محتويـــــات العـــدد

جـــذور

العدد 41 . ذو القعدة 1436هـ - سبتمبر 2015

العنـــوان

النادي الأدبي الثقافي بجدة
الإدارة: حي الشاطئ
جدة ص.ب (5919)
فاكسميلي: 6066695
هاتف: 122-6066-6066364

JUTHOOR

Literary & Culturla
Club Jeddah
P.O. Box: 5919
Jeddah 21432
FAX : 6066695
Tel : 6066122 - 6066364
www. adabijeddah.com

المشـــــــاركــون

رقم الأيداع 19/2536

مقدمة العدد

تهدف مجلة جذور لاستنطاق ما في تراثنا من كنوز علمية نافعة قدمها لنا السلف من جهة، وإزالة ما علق بها من غبار السنين من جهة أخرى، إننا ندرس هذا التراث لأننا ننتمي إليه لغة وفكراً، كما أن هذا التراث يمثل ذاكرة الأمة ومن فقد ذاكرته فقد هويته، إذ تمثل إنجازات اللغويين حلقة هامة من حلقات الفكر اللغوي القديم من ناحية، كما أنها تتفق مع كثير من الأفكار والآراء التي جاء بها علم اللغة الحديث من جهة أخرى.

تتمحور موضوعات هذا العدد من مجلة جذور حول مفاهيم أدبية ونقدية وبلاغية ونحوية متعددة، تعالج قضايا متنوعة. فبدأت عددها الحالي بمقال: نظرية النص الأنموذج في كتاب المثل السائر، لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير. دراسة نصوص مختارة، للباحثة: نعيمة سعدية من جامعة بسكرة بالجزائر. تبحث النظرية النصية في نسيج النص وتحليله بهدف الفهم والإفهام؛ إذ إنَّ النص عملية تشابك مستمر وتماسك وانسجام يقيمها الناص للكلمات والجمل والمعاني. كما أن التحليل اللغوي للنص يهتم بالحوادث المباشرة في إنتاج النص وفهمه مع بيان المعارف التفاعلية للناس في أبنية النصوص.

وجاء المقال الثاني بعنوان: العناصر المنهجية التاريخية في النقد العربي القديم (كتب الطبقات نموذجاً) للباحث محمد مريني من

جامعة محمد الأول – المغرب. بيَّن الباحث اهتمام العرب والمسلمين بالمنهج التاريخي لكونه أثبت صور التعبير التاريخي والطبقات والأنساب وسند الرجال، مع تقديم مثال عن الشاعر امرئ القيس، مركزاً على طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، الذي جمع فيه أربعين شاعراً موزعين إلى طبقات مع توضيح الأسس المنهجية التي أقام عليها ابن سلام تقسيمه. وكتاب الشعر والشعراء، لابن قتيبة، الذي يخبر فيه صاحبه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم.

وثالث هذه البحوث بعنوان: نُزه القلوب نحو قراءة بلاغية لنثر الجاحظ للباحث سعيد العوادي، من جامعة القرويين بالمغرب. وفيه يسلط الضوء على أعمال الدكتور محمد مشبال، من خلال اشتغاله على بلاغة النصوص النثرية، متخذاً من نُزه القلوب للجاحظ مثالاً تطبيقياً، وهي محاولة لإبراز أهمية الانتقال في السياقين العربي والغربي، وهو ماأسماه بالبلاغة الأدبية التي تهتم بجمالية النص الأدبي النوعية وقيمه الإنسانية والإيديولوجية؛ أي دراسة بنية النص الأدبي ووظائفه وتأثيره في المتلقي وهو ما يعني بلاغة الإمتاع والإقناع.

ويعالج البحث الرابع: تدفق دلالة المفردة النبوية بتعدد الروايات في غريب الحديث، من خلال بغية الرائد للباحث مولاي علي، من جامعة بني ملال بالمغرب، وهي دراسة للثراء اللغوي في غريب الحديث الشريف من خلال جهود القاضي عياض، في بغية الرائد، حيث تناول بالتحليل والشرح والتعليل لغة هذا النوع من الحديث شرحاً لغريبه وفكاً لعويصه، وبياناً لفوائده البلاغية والنحوية والفقهية وتحرير القول في لغته العربية، وحرص فيه الباحث على توضيح منهج القاضي عياض في البغية ومكانته العلمية، كما بيَّن منهجه في الترجيح اللغوي.

ويتناول المقال الخامس: المروي له ودوره في البنية الحكائية في كتاب بلاغات النساء، لابن طيفور (280هـ) للباحثة صلوح مصلح السريحي، من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. ناقشت فيه مفهوم المروي له كما ظهر عند رولان بارت، وجيرار جينيت، والمروي له شأن داخلي، فهو الذي يتلقى خطاب الراوي ويتوازى مع زمن الخطاب وهو زمن الكتابة والنص. وفرَّقت الباحثة بينه وبين السارد، والمسرود له، والمتلقي، والمستقبل، والقارئ الحقيقي، والقارئ الضمني، ثم عرضت أنماط المروي له داخل العالم الحكائي أي داخل النص السردي.

ويتناول المقال السادس: المحسِّن البديعي وأثره الإقناعي في الخطاب الجاهلي، دراسة نصية للباحث: بدر علي العبدالقادر، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. ناقش هذا البحث موضوع استخدام المحسِّن البديعي بنوعيه اللفظي والمعنوي في الخطاب الجاهلي بدءاً بتعريفه وعرض نماذجه التطبيقية مع بيان الغرض من استخدامه وأثره الإقناعي، فالمحسنات البديعية من الوسائل الضرورية التي يستدعيها الخطيب للتأثير في نفوس المُخَاطبين، وتوظيفها يكشف عن خفايا الكلمات ويدعم معناها.

ويعالج المقال السابع: التحليل الوظيفي في الدراسات اللسانية المفهوم والإجراء للباحث: صلاح الدين ملاوي، من جامعة خيضر – بسكرة، بالجزائر. وعرض فيه لأربع نقاط أساسية بدأها بمفهوم التحليل الوظيفي في الدراسات اللسانية الذي يعني أن الأقوال اللغوية تُحلَّل بالعودة إلى الطريقة التي تؤدي بواسطتها إلى سيرورة التواصل؛ إذ إن المعتبر في التحليل الوظيفي هو المدلول وليس الدال، ثم المبادئ المنهجية، ثم موقع الوظيفية من التيارات اللسانية، وختم بعرض التحليل النحوي الوظيفي في الدراسات الغربية، حيث ذكر نموذجين توليديين هما: التركيب الدلالي، والمعجمية الوظيفية.

وجاء المقال الثامن بعنوان: حذف نون الرفع من الأفعال الخمسة لغير علة، للباحث عبدالعزيز حميد الجهني، من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. بيَّن الباحث أن حذف نون الرفع من الأفعال الخمسة لغير علة مخالف في ظاهره لمشهور قواعد النحو التي أصَّلها أئمة هذا العلم في حكم رفع الأفعال الخمسة، وبتتبع كلام العرب - شعراً ونثراً - نجد نصوصاً متناثرة ورد فيها هذا الحذف في حال الرفع، وقد ورد هذا الحذف في السماع، ووضَّح الباحث تعليل النحاة لهذا الحذف، ثم ختم بحثه ببيان حكمه في القياس النحوي.

ويعرض المقال التاسع: الاختزال الدلالي في الحديث النبوي دراسة في ضوء نظرية تحليل الخطاب للباحث: محمد أحمد عبدالباقي، من كلية اللغة العربية بجامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم - السودان. وناقش الباحث إبراز قيمة معايير تحليل الخطاب التي أوجدها علماء اللغة الغربيون ومدى فاعليتها في الحديث النبوي الشريف، وطبق تلك المعايير على أربعة أحاديث نبوية مختارة من كتاب الأربعين النووية متبعاً المنهج الوصفي التحليلي في دراسته.

ويختتم العدد ببحث: التحويل بإعادة ترتيب عناصر الجملة في شعر الفرزدق دراسة في ضوء نظرية تشومسكي للباحثة: إحسان عثمان الطيب، من كلية العلوم والآداب بجامعة الباحة، هدفت الباحثة فيه إلى التعمق في دراسة ظاهرة التقديم والتأخير عند الفرزدق، وتحليل النماذج الشعرية لظاهرة إعادة ترتيب العناصر البنائية للجملة، وتوضيح المعاني الدلالية التي تعكسها ظاهرة إعادة الترتيب للنموذج وبيان العلاقة بين التركيب والدلالة في النظام اللغوي للعربية وذلك في إطار النظرية التوليدية التحويلية عند تشومسكي وما أسماه التحويل بإعادة الترتيب لمكونات الجملة.

هيئة التحرير

نظرية النص الأنموذج في كتاب المثل السائر لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير

دراسة لنصوص مختارة

نعيمة سعدية(*)

أولا. النظرية النصية/ أو النص الأنموذج:

النظرية هي «نسق من المعرفة المعممة»[1]، إنها مجموع الافتراضات المنسجمة القابلة للتقصي، فالافتراض والانسجام والتقصي مفاهيم أساسية تحدد بعد النظرية ؛ انسجام المبادئ مع النتائج، وطريقة الوصول إليها ضرورة كل نظرية مهما كانت، ولعل ما تسمى النصية (textualité)، واحدة من بين هذه النظريات اللسانية المعاصرة.

وكون النص نسيجا لغويا محبكا، تجمع بينه العديد من العلاقات حتى يحدث من خلاله الفهم والإفهام، يعني هذا أن النص منتج من عملية التشابك المستمر والانسجام والتماسك التي يقيمها الناص (الكاتب) للكلمات والجمل والمعاني، التي تعطينا، في النهاية، نصا، كما يعطي العنكبوت شبكة من ذاته؛ وعليه يهتم نموذج التحليل اللغوي للنص بالحوادث المباشرة في إنتاج النص وفهمه، مع بيان كيفية تقديم

(*) جامعة بسكرة.

المعارف التفاعلية للناس في أبنية النصوص،فهو لا يصف كيف تسير «اللعبة»، بل ماذا في «اللعبة»[2]».

ويرى »هارتمان« (Hartman) أن النص هو الموضوع الرئيس في التحليل والوصف اللغوي، وأن تحليل النصوص ما هو إلا تحليل يتجاوز النظام إلى كيفيات الاستخدام، وتفسير النصوص عنده يقوم على عناصر داخلية وأخرى خارجية (خارج النص)؛ إنه بإيجاز البحث عما يجعل من النص نصا (دراسة وسائل بناء النص)[3]؛ لأن كل نص يتميز ببنية خاصة . ثم نقوم برصد حركاته وتفكيك رموزه وعلاقاته الداخلية والرؤية التي يطرحها.

أما «إريك انكفيست» (N.E .Enkvist)، فقد أشار إلى النصية في معرض حديثه عن «البناء النصي السليم»، الذي اعتبره وظيفة تتكون من ثلاثة أنواع من العناصر الرئيسة:

أولا: إنه يعتمد على البناء النحوي السليم للجمل المنفردة؛ فالنص المتكون من جمل غير سليمة البناء يعد نصا غير سليم البناء.

ثانيا: إنه يعتمد على النمط الذي تنسج به الجمل، و تربط ببعضها، حتى تؤلف النص.

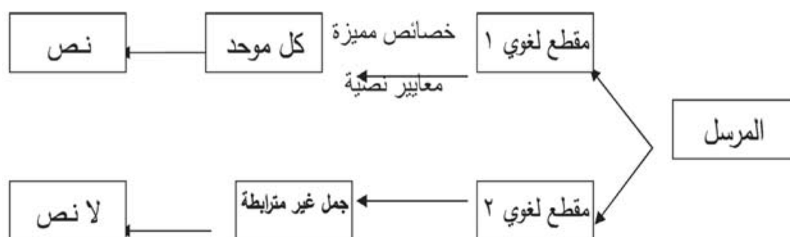
ثالثا: وكما أشرنا آنفا إنه يعتمد على السياق[4] فالبناء النصي السليم ، هو صورة أخرى للنصية، طالما تبحث كيف يكون النص نصا. وعبر عن ذلك آن روبول وجاك موشلار في قولهما: «يمكن للخطاب أيضا أن يكون منسجما أو غير منسجم تبعا لتقييده أوعدم تقييده بقواعد الخطاب»[5].

المهم في هذه الأبحاث، أنهم يرون أن الوقوف عند تحديد خواص منفصلة للأبنية يسهم في تقديم تصور كلي شامل للنصوص، على الرغم من أنهم لا ينكرون مطلقا أن تحليل الجملة ضروري، ولكن إلى جوار الجمل الأخرى السابقة واللاحقة، فهي في رأيهم، تعد أبنية

صغرى تتجاور في التحليل مع أبنية النص الكبرى، وتتضح العلاقة بينهما بتحديد وظيفة كل منهما، وربطها بنوع التماسك الذي تؤديه في بنية النص الداخلية أو الخارجية(6).

وأيا كان الأمر، فلا نجده يتحقق إلا بإدراج النص كبنية منسجمة نحويا و دلاليا ضمن سياقه التداولي، الذي يمكننا من الوقوف على معيار المعلوماتية فيه بين المنتج والمتلقي، ومقاصد الأطراف الثلاثة (نص - منتج - مؤلف)، و تناصه عبر انفتاحه على إشارات خارج نصه، وأهمها أطره المعرفية ومرجعياته السياقية، لأن هذا التفاعل هو الذي يسمح لنا مقاربة النص وفق هذا المنظور الحداثي، والذي يأخذ النص النموذج أو ما عرف بالنصية إطارا له، كون النصية نتاج تشكل مزدوج؛ مقطعي وتداولي، وهي أهم مبحث في لسانيات النص، على الإطلاق، من حيث هي «بنية مجردة تتولد بها جميع ما نسمعه، ونطلق عليه لفظ «نص» ويكون ذلك برصد العناصر القارة في جميع النصوص المنجزة مهما كانت مقاماتها وتواريخها ومضامينها»(7)، و من أجل أن تكون لكل نص نصية يجب أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق هذه النصية؛ بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة.

وقد وضّحها كل من هاليداي وحسن (Halliday Michael & Hasan Ruqaiya). وهذه المعايير هي خصائص معينة، تميز النصوص بتوافرها فيها وتتنافى النصية إذا تنافت هذه المعايير من المقطع اللغوي، مبرزين ذلك في التخطيط الآتي(8):



ولا تكون سيطرة كل من المتكلم والسامع والكاتب والقارئ على لغته كاملة إلا إذا استطاع أن يميز بين النص (texte) واللا.نص (non-texte) أو يبن الوحدة الدلالية المتكاملة المتماسكة معنى وصياغة، وبين مجموعة عشوائية من الجمل لا يجمع بينها جامع ولا يربطها رابط، كالأمثلة التي تساق في كتب النحو إيضاحا لقاعدة أو تدريبا عليها، أو قائمة الكلمات التي ينظمها المعجم ولا يكاد المرء يواجه في التفاعل اللغوي الحي بظاهرة اللا.نص؛ فاللا.نص محض هراء، لايلتفت إليه أحد، ولا يعتد به سامع أو قارئ، والنص يتميز عن اللانص بخاصية النصية، التي تقوم على ركيزتين هما: التماسك الداخلي، وسياق الحال، الذي «يكبسل» فيه النص أو يتجلى فيه[9].

إنها (ونعني النصية) «عدم إمكانية النص على الحسم (indécidable) والنص يتموقع عند السطح البيني القائم بين المرئي/ اللامرئي، والداخل/ الخارج، والحضور/ الغياب والنص/ السياق، فالنص هو ما لا يمكن حسمه، و لا يقع النص على أي جانب من جوانب هذه الثنائيات، ولا يمكن وقوع حسم على أي جانب؛ فعدم إمكانية النص على الحسم هي نصية النص»[10]، والتي من خلالها يؤسس نص ما هويته؛ كونها مبدأ يحقق شمولية النص ووحدته النموذجية، ويبحث في العلاقات التي تربط أجزاءه؛ إذ تشكل كل متتالية من الجمل نصا، شرط أن يكون بين هذه الجمل علاقات؛ تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر، سابق أو لاحق وارد في متتالية جملية.

وقد دفع البحث في هذه الجوانب غير اللغوية إلى جوار الجوانب اللغوية بجهود اللغويين إلى إيجاد صيغة ملائمة تحقق التوازن بينهما، ولم يكن ذلك إلا للتأكيد على أن نماذج النص لم تنشأ من فراغ، أو أنها مستقلة عن نماذج الجملة، بل إن مكونات نماذج الجملة لاتزال تشكل أجزاء جوهرية في نماذج النص، وينعكس ذلك بوضوح في محاولات

كل من جوليش (E. Gulich) ورابيليه (W. Riblé) توضيح نماذج علماء لسانيات النص المعروفين ونقدها، إلى جانب توضيح الفروض الاتصالية ووضع نموذج خاص، وقد أشارا إلى أن معظم الاتجاهات اللغوية السابقة قد قامت على نماذج نصية محددة، فاقترحا نموذجا للاتصال اللغوي، انطلاقا من أن الكلام فعل أو نشاط محدد القصد؛ ومن ثم فإن اللغة متضمنة في محيط يحدده الموقف،أو لا يحدده، أي في مواقف الاتصال[11] (KommunitionsSituationen)، وعليه، فالنموذج كالتالي:

قواعد العلامات غير اللغوية المصاحبة للنصوص
قواعد تأسيسية لأحداث كلامية(نصوص)
اللغة بوصفها قواعد لترميز النص
اللغة بوصفها نظاما للقواعد التأسيسية لأحداث الكلامية
اللغة بوصفها قواعد لفك ترميز النص
علامات غير لغوية مصاحبة
نص
نص من علامات لغوية و بوصفه علامة لغوية
علاقات
متحدث
قصد
مستمع
رد فعل
إشارة
إحالة
موضوعات و مضامين داخل مجال الإدراك الحسي المشترك للمتحدث و المستمع (موقف اتصال)
مجال الموضوعات والمضامين
موضوعات ومضامين خارج مجال الإدراك المشترك للمتحدث و المستمع

تخطيط لنموذج الاتصال اللغوي عند جوليش ورابليه

أما بتوفي (Petôfi) فقد قدم محاولات لا تقل عن المحاولات السابقة جدية وثراء وعلى الرغم من أنه قد استقى مكونات نماذجه من المعين ذاته الذي اغترف منه فان ديك، إلا أن محاولاته لها سمات خاصة، فهي مستقاة من المنطق والنحو التحويلي ومكونات أخرى دلالية وتداولية، حاول «بتوفي» فيها التفرقة بين مكونات سياقية داخل النص، وبين مكونات سياقية خارج النص، أي دلالية-تداولية؛ فبينما أطلق على الأولى «بنية النص» عدت الثانية «بنية العالم» وقد ربط كلا منهما في نظريات جامعة «بنية النص وبنية العالم» المعروفة بهذا المختصر (Te Swe ST)، ويلاحظ فيها ذلك التوازن بين بنية إبداعية وبنية واقعية، وبين شكل النص ومعناه، وتلك العلاقات الممتدة داخل النص وتلك المعاني الإحالية له، أما المكونات المهمة في نموذج النص الذي انتهى إليه بتوفي فهي[12]:

أ - المعجم، الذي ينبغي أن يشتمل على معجم أساس محوري Kernlexikon ذي معان أساسية أولية، و معجم إضافي يضم المعاني الإضافية.

ب - نحو النص، الذي يتكون من قواعد تشكيل توليدية (لإنتاج صورة التمثيل غير الأفقية للنص) و قواعد تحويل (Text-Omega) لإنشاء تحقيق أفقي للنص (سطح النص).

ج - التمثيل التوسعي - الدلالي، الذي ينبغي أن يتبع من خلال تمثيل امتداد النص، نماذج قائمة على السياق بكل نص على حدة، في كل عالم من العوالم الممكنة، أي يربط بين منطوقات النص بنماذج غير لغوية للواقع، و هو ما يتضمن أوجه ترابط معقدة للغاية.

لتكون معايير النصية متمركزة جميعا حول العلاقات والتواصل بين العناصر في مستوى واحد أو في عدة مستويات. وفي هذا المنظور

تعطى الأولوية الكبرى في فهم محتوى النص واسترجاعه للحفاظ على كل ما يلحظه المرء ويختزنه ويسترجعه ضمن نمط مستمر[13]؛ فنصية النص هي شرط للنص وممارسته.

وكما يقول دريسلر: «النصية نشاط حل القضايا»[14]، لا تنتج عن استعمال اللغة ولكنها نشاط ضروري يخضع لقيود ذات نظام إدراكي تواصلي في جوهرها؛ فما يوحد حقيقة كل شيء هو علاقات التأسيس، حيث إنَّ حقيقة العلاقات بين الأجزاء و نوعها هما ما يحدد الكل و يعطيه شكلا مميزا وخصائص مميزة؛ لأن «بنية النص هي جملة العلاقات التي تؤسس، مجتمعة، النص ذاته. وترد في شكل كل متشابك. وبالتالي فإن دراسة البنية تعني، ضمنيا، الوقوف عند نظام الحركات (الذوات والطرائق حضورها وتفاعلها مع محيطها) واستقراء العلاقات التي تتأسس داخل النص سواء بين الألفاظ أو الأشخاص أو بين الصور وطرائق تأسيسها. وبإيجاز رصد حركة النّص، وإيقاعه الداخلي»[15].

ومن المؤكد أن ليس كل النصوص تعرض وتمارس الأنماط النصية جميعها، فبعضها يحقق هيمنة فيما تشغل الأخرى منزلة ثانوية في نصوص محددة ويمكن لنصيات معينة أن تميز وتوصف بصرف النظر عن النصوص، لكنها تحقق ممارستها و وظيفتها بنموذج نصوص معينة، كما أن انسجام نص ما مرتبط بصفة كبيرة بنوع النص؛ لأن كل متتالية جملية، تظهر منسجمة إذا نسبناها إلى نوع معين من النصوص على أن تصبح غير منسجمة أو تقدم مظهرا مختلفا من الانسجام إذ نسبناها إلى نوع آخر من النصوص[16].

أما النموذج الذي اقترحه دي بوجراند (Beau grand) ودريسلر (Dressler) سنة (1981)، اللذان عُنيا فيه بالقوة الكامنة في مستويات محددة داخل النظام اللغوي ونظام النص، خصوصا ،هو النموذج الأقوى،

من حيث المرتكزات والرؤى، لأن النص عندهما يمتلك سبع خصائص نوعية والتي أطلق عليها النصية (Textuality) والأخرى القصدية (أي يمتلك مخطط الطرح) والمقبولية، يمتلك بعض استعمالات التأثير والموقفية (قيمة السياق) والمعلوماتية (درجة المعلومات الجديدة في النص) و التناص علاقة غيره من النصوص»[17]؛ فانصبت أبحاثهما على كيفية تحقق هذه المعايير وعناصر الكفاءة في الأداء اللغوي، لتأثرهما بمراحل إنتاج النص في البلاغة القديمة ومراحل التخطيط ووضع الهدف و تكوين الفكرة (إيجاد الأفكار/ ضم الأفكار) وتطورها (عناصر المعرفة) والتعبير عنها وتركيبها النحوي/ تأليفها في أشكال من التبعية النحوية والتحويل إلى الأفقية.

وعليه «ينظر للنص اللغوي بوصفه نصا في موقف أو حدثا اتصاليا أو شبكة من العلاقات الناتجة من تضافر نظمه بمستوياتها المختلفة، وتكون المهمة التي يطمح إلى تحقيقها أو إنجازها هي مناقشة النص في سياق الإبلاغ»[18] من حيث إنتاجه، واستراتيجيات الاستقبال وكل العوامل الأدبية والاجتماعية والنفسية، التي تؤثر في النص أيا كانت صفته: جملة أو فقرة أو ملفوظا أو رسالة أو حدثا أو أسلوبا أو غير ذلك من المصطلحات التي تفاعلت معه، وتزاحمت، ففسر بها وفسرت به، في حقل الدراسات اللسانية، ومناهج البحث فيها.

فالنصية تؤسس نصا بوصفه نصا بطريقة معينة، ونصية نص ما تنتج معرفة بشأن النص، وهذه المعرفة التي تنتجها النصية هي معرفة من نوع معين، و«عدم إمكانية الحسم» في هذه النصية لا تكمن في المعرفة المنتجة، وإنما تكمن في منزلة النص الذي يحدث فيها الإنتاج»[19]؛ لأن النصية ينبغي أن تعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلقها بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدة النص الشاملة،

لذلك تحاول لسانيات النص تقديم أشكال الاطراد أو صور الانتظام، التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي، وأن يعالج أشكالا نصية متباينة في سياقات تفاعل اجتماعي مختلفة من زوايا عدة»[20]، كون النص قطعة ذات دلالة وذات وظيفة، أي قطعة مثمرة من الكلام في سياق.

إن معالجة النص، وفق كل ما طرح من منطلقات معرفية ومنهجية، خصّت بها النصية، في رحلة تحديدها وضبطها لمفهوم النص، ينبغي أن تؤسس على تحليل الأسس الحاملة لمعلوماته وتأثيراتها الداخلية الدلالية، والانتقال من مضامين خارج النص، غير نصية إلى معلومات الأساس، أي قضايا الإحالة والسياق، أي وظيفة النص في سياقه غير اللغوي، وتحديد التراكيب في النصوص، سواء كانت كبرى أو صغرى، وتحديد بلاغتها، لتتوزع معايير النصية وخصائصها على ثلاث جوانب أساسية هي:

- بناء النص وتنظيمه.
- دلالة النص ومرجعياته.
- بلاغة النص.

ثانيا. النصية في كتاب ابن الأثير:

حاول البلاغيون القدامى وضع الأسس والمعايير لهذه الصياغة، سواء على المستوى الشعري أم النثري فألفوا في ذلك كثيرا من الكتب وأفردت له الفصول والأبواب، ووضعت الرسائل ومنها: (رسالة عبد الحميد الكاتب (ت 132هـ)، ورسالة بشر بن المعتمر (ت 210هـ)، ووصية أبي تمام (ت 228هـ) للبحتري في صناعة الشعر...) وغير ذلك من الوصايا والرسائل التي اهتمت بوضع قوانين وأسس صناعة الكلام، شعرا ونثرا، أما الكتب التي تناولت هذه القضايا بوجوه مختلفة فهي كثيرة، يأتي على رأسها «البيان والتبيين» والحيوان للجاحظ

(ت255هـ)، والذي شكل بمؤلفاته فترة مخاض لاهتمامات عربية، من أجل ما سمي صناعة الكلام، أو «فن التأليف» والذي يمكن اعتباره باكورة القضايا اللسانية النصية في هذا الموروث، أين تعرض الجاحظ إلى قضايا لسانية تعلقت بالكلام، أي النص تعلقا شديدا، مثل قضية اللفظ والمعنى، والإيجاز، والسبك (أي الاتساق)، يقول: «هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة»(21)، إذ جعل لكل صناعة ألفاظها، التي ستنتظم بشكل خاص مقاما معينا، وحالا خاصة، تعرف بفضل الكلام، والمتكلم به، ليكون الجاحظ بكتابيه(الحيوان/ والبيان والتبيين) صاحب فضل في مخاض لسانيات نص عربية أصيلة، أو بالأحرى نراها كذلك، فكانا زادا لمن كتب بعده، ونخص بالذكر ابن الأثير.

وانطلاقا من قول مصطفى ناصف: «علينا أن نجعل للنص احتراما أوفى، علينا أن نساعده على الحديث وبعبارة أخرى علينا أن نجرب حرمة النص، من حيث هو آخر كامل لا مجرد موضوع نجرب فيه ذواتنا وأهواءنا»(22).

وقول أدونيس: «هذا القارئ لا يقرأ النص من حيث هو نص قائم بذاته، في استقلال عنه: نص يشكل له لغته وعلاقاتها، وأبعادها إنه بالأحرى، لا يقرؤه، وإنما يبحث فيه عما يؤكد أو ينفي ما يضمره في عقله ونفسه ينتظر من النص أن يكون عونا له، إيجابا أو سلبا»(23)، سنحاول استنطاق بعض النصوص لواحد من الذين أبدعوا في الكلام عن فن التأليف وفن صناعة الكلام وهو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير الموصلي، المتوفى عام 637هـ.

النص الأول يقول ابن الأثير: «اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا... أن يكون **الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي**

بني عليه الكتاب... وكثيرا ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها؛ فإني قصدته فيها وتوخيته... أن يكون **خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة**؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة... أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال.. أن تكون الألفاظ المستعملة **مسبوكة سبكا غريبا**، يظن السامع أنّها غير ما في أيدي الناس، وهي **مما في أيدي الناس**، وهناك معترك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها، والأقلام شجاعتها»[24]... إلى قوله: «وأن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية»[25].

لعل هذا النص يصرخ حداثة من خلال عبارات عديدة تضمنها وتشير بطريقة أو بأخرى إلى النص الأنموذج أو النظرية النصية، إذ يقول: «الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب» - و«خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة» - و«مسبوكة سبكا غريبا» - و«مما في أيدي الناس»؛ إذ تثير هذه العبارات وغيرها قضايا لسانية عديدة، لعل مجملها مرتبط بالنص، أي بلسانيات النص وهي القصد في العبارة الأولى، والتناص في الثانية، والاتساق في الثالثة، وكأنّ ابن الأثير قد جعل من النص تفاعلا معرفيا قبل أن يكون بنية لغوية، تندمج فيه دينامية الاستجابة المرئية في طبقاتها السطحية ضمن ما تحتويه من الموجود الملموس، مع روح التأمل الداخلي، قصد إدراك مخيلاته المخفية، ليتقاطع - بذلك - مع محاولات لسانية نصية معاصرة حاولت استجلاب أسرار النص، وكشف مستوى التناغم فيه، مع ورود منعرجات احتمالية في فهمه وتأويله، تتفق فيه الذات مع الآخر وفق مبادئ مشتركة تمثلها البراعة، بمصطلح ابن الأثير.

النص الثاني: ويقول أيضا: «اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها **اختيار الألفاظ المفردة**، وحكم

ذلك حكم **اللآلئ المبددة**؛ فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم؛ االثاني **نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها**، لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم **العقد المنظوم** في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها. الثالث **الغرض المقصود** من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنفا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه.... وهي أمور لا يدركها إلا من دقّ فهمه وجلّ نظره»[26].

يتظاهر لنا في هذا المقام أن الناظم مهندس بنّاء، كما صورته البلاغة العربية في نصوص نفيسة أخرى، وابن الأثير في هذا النص النفيس والبديع قد قام بتلخيص نظريته حول صناعة الكلام، أي ما يعرف في لسانيات النص بنظرية إنتاج النص[*] - في رص هندسي ورصف للبنيات النصية أفقيا وعموديا مع مراعاة انسجام الأجزاء و تناسقها واتساقها لتحقيق البنية في الصورة الهندسية المرجوة، التي اختارها الكاتب، طبقا للصورة المثالية، التي ارتسمت في ذهنه قبل الشروع في الكلام[27]؛ ذلك لأن المفردات اللغوية لا تمثل إلا ناحية جامدة هامدة من تلك اللغة، فإذا نظمت و رتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة، و عبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان. وليست اللغة - في حقيقة أمرها - إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، تحتمه قوانين معينة للغة[28]، وبه تتحقق مطابقة الكلام لسياقه، من حيث إفادته المعاني الثواني، والتي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، ما يجعل كلامه مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق سياق الحال، وهي قضايا تمتد إلى مجالات متنوعة غيرها، مثل: علم الاتصال، علم الاجتماع، نظرية التعامل والتداول، علم النفعية أو المنهج العملي، أو المناهج التجريبية

في البحث الاجتماعي»[29]، في اللسانيات المعاصرة، التي تخضع لها كل ما تحتاجه في سبيل تحقيق الغاية، ألا وهي فهم النص والوقوف على معانيه ومقاصده.

ونشير في هذا الصدد – على سبيل المثال – إلى ما ذهب إليه دافيد روملهارت (d. romlhart) بعدّ: «عملية الاستيعاب مطابقة لعملية انتخاب المخططات التصويرية والتحقق منها في محاولة تفسير الموقف أو النص الذي يراد فهمه؛ لأن انتخاب المخططات والتحقق منها، يساهمان في الاستيعاب دون أن يكونا مطابقين لـه. ويجد المرء مصالحة مطردة بين المعرفة التي يعرضها النص وبين أنماط المعرفة التنظيمية المختزنة عند الشخص الذي يفهم النص وطبعه ومزاجه[30]. وللمكون النصي – هنا – دور في تركيب التأليف/ النص؛ إذ يتكون من موضوع ومحمول، واختيار العنصر الموسوم بوظيفة تماسكية cohésive، تلفت انتباه العنصر الذي وضع في غير موضعه، و علاقته بالعناصر الأخرى، كما تتصل بتقسيم عنصري القضية إلى معلوم و هو ما يفترض المتكلم أن السامع يعرفه، وجديد، وهو ما يريد المتكلم الإخبار عنه أو يفترض أن السامع لا يعرفه[31].

إذ تتحكم في إنتاج النص عدة عمليات لغوية و نفسية و اجتماعية ومعرفية تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على قواعد تركيبة ودلالية تداولية معا، و يؤدي الفصل بين هذه القواعد أو الاكتفاء بقسم منها إلى خلل حتمي في التفسير، لأن عمليات فهمها و تفسيرها لا تقل عن عمليات إنتاجها، و أن الثوابت المتمثلة في البناء النصي تختلف عن المتغيرات المتمثلة في أشكال الفهم المتباينة، كون «النص بنية دلالية تنتجها ذات تفاعلت وفعّلت، وفعلت».

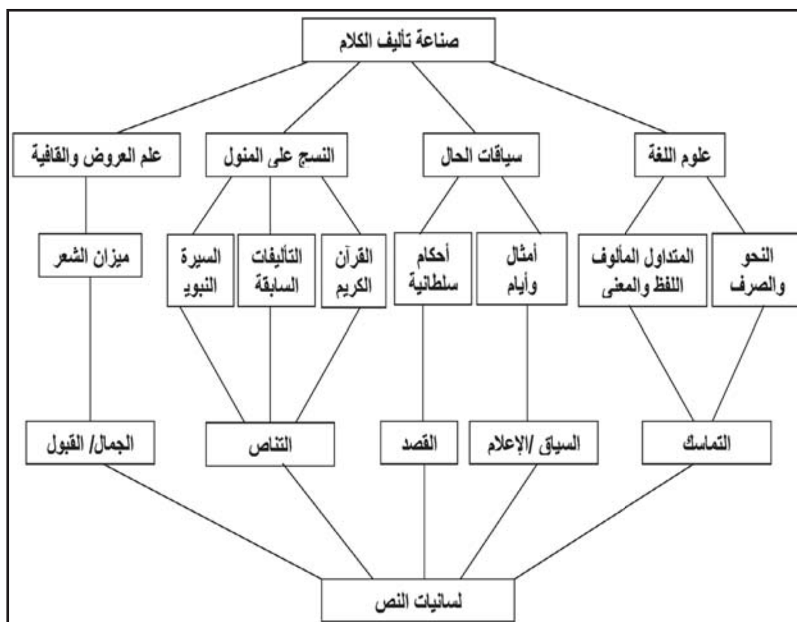
النص الثالث: يقول: «اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن، وملأ هذا كله الطبع، فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل ذلك قيل: شيئان لا نهاية لهما: البيان والجمال»[32]؛ فصناعة الكلام أو الكتابة في مواضع أخرى صناعة لم ترتبط بأي علم ولا عالم، ما تحتاجه هو الآلات الكثيرة والتي يتحكم فيها الطبع إلى غاية البيان والجمال، أي اللذة والإثارة والتأثير لتتحقق قوة الناص وشاعريته وشعرية النص وفاعليته. ولعل في سبيل كل ذلك يضع ابن الأثير ثمانية آلات كشرط لتحقق فن الكتابة، أو «صناعة الكلام»، وهي[33]:

1. معرفة علم العربية من النحو والتصريف.
2. معرفة ما يحتاج إليه من اللغة (المتداول المألوف).
3. معرفة أمثال العرب وأيامهم.
4. الاطلاع على تأليف من تقدمه من أرباب الصناعة المنظومة والمنثورة.
5. معرفة الأحكام السلطانية (الإمامة، الإمارة، القضاء).
6. حفظ القرآن الكريم وإدراجه في مطاوي الكلام.
7. حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار (الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
8. معرفة علم العروض والقوافي (أي ميزان الشعر).

لقد أوجب ابن الأثير على ناظم الكلام أن يمعن النظر في علوم البلاغة، حتى يستطيع معرفة محاسن اللفظ مفردا ومركبا، ويحيط بما يتفرع من أصول النقد الذي منه البديع الذي هو رقوم الكلام، ونتائج مقدمات الإفهام، وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز، وليميز إعجازه أدق تمييز، فإنه البحر الذي لا تفنى عجائبه ولا يظمأ فيه راكبه، منه استخرجت درر المحاسن، واستنبطت عيون المعاني، وعرف كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة، ولما خصه الله به من جودة سبك وحسن الرصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز، وعذوبة الألفاظ، وجزالتها وسلاسة المعاني ورشاقتها(34)، ورصف الجمل والتراكيب،كأنها جملة واحدة تتآخذ أجزاءها وتتماسك، حيث اعتمدت على قواعد النظام اللغوي لاسترجاع الاتصال اللغوي، والقائم تماسكها على معرفة شعرية النص المبنية على الوسائل اللغوية المستعملة والمتميزة، متبعة مبدأ التعاون والتزاوج بين علم اللغة والدراسات الأدبية من أجل صياغة النص الشعري، ومرتبطة بقضايا النص والخطاب(35).

وأوجب عليه الدراية النحوية؛ وظيفة النحو هي استخراج مبادئ اللغة ونظمها، استنادا إلى الاستعمال المشترك، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد، والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية التي هي الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي تفصل بين الخطأ والصواب، ومن ثمة تساعد هذه المبادئ على تفسير البناء اللغوي تفسيرا يقوم على توضيح العلاقات وكشف الترابط بين أجزاء الكتابة (النص)، في قوله: «أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي».

أي أنّ الدراسة النحوية للظواهر اللغوية عند ابن الأثير تقوم على المقارنة بين «علم البيان» و«علم النحو»، وفي ذلك دعوة صارمة إلى تزاوج بين «القواعد النحوية البلاغية» والإحساس الفني الجمالي، لأن النص ليس نظاما من الوحدات اللغوية التي تستهدف الفهم فحسب، وإنما هو نظام ذو وظيفة تأثيرية، وبهذا التزاوج وآلياته، نتميز جيد الكلام من رديئه، كون العلاقات التي تربط بين مفردات الكلام من ناحية، وبنيتها البيئية الاجتماعية النفسية، من ناحية ثانية، قد تشكل سياقا جديدا مغايرا، يعود برمته إلى المتكلم، والنسق والنص والقصد والقارئ، ليقرأ قول ابن الأثير عن فن تأليف الكلام من وجهة نظر لسانية نصية كالتالي:



يفتح ابن الأثير نافذة كبرى على دراسة النص، وفق هذه الآليات، التي وضعت «لفن الكتابة»، ويشرع بأحكام الكلام، مسبقا لما سمي في الدرس المعاصر «لسانيات النص». كما أن المتأمل في قضايا النحو

والبلاغة لدى العلماء، وفي إطار حديثهم عن التماسك الحاصل في تأليف الكلام، أو صناعة الكلام أو الصناعة الشعرية، وربطها بالرغبة وسياق الحال، تبين رؤية متكاملة(**) واضحة المعالم والحدود، تحكمت في تحليلاتهم ومناقشاتهم ووصاياهم لقضايا الكلام والنص-خاصة القرآني- وقد استطاع العلماء من خلالها أن يتجاوزوا ذلك الإطار الضيق الذي لم يتعد تحليل الجملة أو مجموعة الجمل الذي فرضته القواعد المعيارية التعليمية على مستوى النحو أو البلاغة؛ ذلك أن البلاغة ليست أمرا مستقلا عن النحو، وأن البلاغة تساعد اللغة على أداء وظيفتها البلاغية شرط أن تدرس عنصري اللفظ والمعنى، وهي فكرة وجدت صدى لها في لسانيات النص، «لأن كل عبارة متلفظ بها ينبغي ألا توصف فقط من جهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها، بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام للإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة».

ما يعني أن البلاغة العربية - في بحث صناعة النص وتفسيره، وبخاصة ما تحسسناه ووقفنا عنده في نصوص ابن الأثير - قد اشترطت على الصانع - في تمام وظيفته - إن أراد عدولا وخروجا عن معايير اللغة، أن يشير إلى ذلك بقرينة تمنع من فهم التركيب على الحقيقة، وتوجه الفكر إلى المعنى المجازي الذي أراده مع عدم الغلو والمبالغة في ذلك إذ عدوها عيبا لابد من الابتعاد عنه. كما اشترطت على القارئ، إذا أراد السفر في رحلة فهم «غير ظاهر النص»، أن يستند - في تأويله- إلى حجة تبرر فهمه ذاك، وكلا الطرفين مجبر على احترام قواعد اللغة، والعرف اللغوي، وهي أمور وقضايا تأكدت في اللسانيات الحديثة وتمت معالجتها برؤى جديدة. ليكون - ذلك - إسهاما عربيا بلاغيا تراثيا أصيلا، لا يجب أن نتجاوزه ولا نستطيع، بل علينا إبراز عبقريته ما أمكن، وإظهار ما فيه من شمولية وموسوعية.

وصفوة القول، أنّ علماء العربية قد تنبهوا لما اشتغلوا على النص القرآني والنص الشعري وفي أحاديث سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم- إلى العديد من قضايا لسانيات النص وما يتميز به من ترابط أجزائه، وجودة التحامه وسبكه، وحسن صياغته، وأسلوبه الإيحائي، الذي يتطلب العودة إلى السياق من أجل فهمه، وتلاؤم دواله وانسجامها، ودقتها في أداء مقاصدها، حقيقة ومجازا، وانفتاحه على كل الأمكنة والأزمنة، وعذوبة الموسيقى وحسن الجرس الموسيقي وترتيب الفواصل، فكثرت حوله الشروح والتفاسير، وتعددت القراءات والرؤى بتعدد وجهات الناظرين، انطلاقا من قناعاتهم العلمية وميولاتهم، ومنطلقاتهم ومرجعياتهم النظرية والفكرية والثقافية لفهم النص وتأويله.

الهوامش

(1) ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997، ص 64.

(2) فيهيفيجروهاين منه، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح ابن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الكتاب رقم 115، 1419هـ. ص 168.

(3) سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص-مفاهيم واتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص 102، 103.

(4) نيلس أريك انكفيست، الأسلوبية اللسانية، ترجمة أحمد مؤمن معهد اللغات الأجنبية، مطبوعات منتوري، قسنطينة، فيفري 2001، ص 113.

(5) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة ، لبنان، دار الطليعة للطباعة و النشر، ص 205.

(6) سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 126.

(7) الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي، المغرب، 1987، ص 18. وينظر: محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى، 1991، ص 12-13.

(8) Halliday & Hassan، cohesion in English، Longman، London 1976. p1-2.

(9) محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي(مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي)، ملتقى الفكر، الإسكندرية، 1998. ص 154.

(10) هيوسلفرمان، نصيات بين الهيرمنيوطيقا و التفكيكية، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2002، ص 134.

(11) سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 92.

(12) المرجع نفسه، ص 95-97.

(13) إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1999، ص 258.

(14) سعيد حسين بحيرى، المرجع نفسه، ص 102.

(15) اليوسفي، في بنية الشعر المعاصر، سراس للنشر، تونس، د.ط، 1985م، ص 21. وينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 146. و ينظر: فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص 27.

(16) Maingeneaux ، L’analyse du de discours (introduction aux lecteurs de l’archive)، Hachatte، paris، 1991.p.210.

(17) Katie walls ، a dictionary of stylistics Pearson education، Edinburgh ate ، Harlan، England، 2001. ،p390.

et; -Shirley carter Thomas، La cohérence textuelle (pour une nouvelle pédagogie de lécrit)، langue &parole، Lharmattan، Paris، France، 2000، p 18.

(18) سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص 75.

(19) هيو سلفرمان، المرجع نفسه، ص 127.

(20) سعيد حسين بحيرى، علم لغة النص، ص 99-100.

(21) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت. ط 3، 1969، ج2، ص27. وينظر: المرجع نفسه، ج 3، ص 368، 367.

(22) مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التأويل، ص 176. وينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص(النظرية والتطبيق)، تقديم: سليمان العطّار، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ص 28-29.

(23) أدونيس، سياسة الشعر-دراسات في الشعرية العربية المعاصرة- دار الأدب، بيروت، ط 1، 1985، ص 57.

(24) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1939م/1358هـ، ج 1، ص 72-73.

(25) ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 75.

(26) ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 142.

(*) باعتبار «أن المتكلم الذي ينتج نصا، يستعمل معارف مختلفة يمكن أن تنظم في ثلاثة أنساق من المعارف هي: علم لغوي/ علم موضوعي أو موسوعي/ وعلم التفاعل الذي يشمل علم الإنجاز النظري/ وكذلك العلم الخاص بالمعايير الاتصالية، وعلم ما وراء الاتصال بوصفه علما خاصا بضمان التفاهم و كذلك منع نزاعات الاتصال وإزالتها، وعلم أبنية النص الشمولية أو أنواع النص، في لسانيات النص، وهي إلى حد مقبول ما أشار إليه ابن الأثير وتحدث عنه في هذا النص». ينظر: فيهيفيجر وهاين منه، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 126.

(27) ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 35، 39

(28) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 295. ينظر: محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت، ص 226 وما بعدها.

(29) voir/Jean- Louis chiss/jacques Filliolet et Dominique Maingueneau، introduction a la Linguistique Française،Hachette،paris،2001،tome 1.p 48.

(30) ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 7، 8 .

(31) ينظر: ابن الأثير، نفسه، ج 1، ص 09، 10.

(32) ابن الأثير، نفسه، ج 1، ص 12.

(33) voir; Mangonneaux، L'analyse du discours، p 48.

(34) ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 10.

(**) هناك قضايا عديدة دفعتنا لهذه الرؤية: التماسك بين الآي - المناسبة (علاقة مقاميه)، العلاقات الاستطرادية - التمثيل - حسن التخلص، التشاكل النحوي- الحذف وتقدير المحذوف، التضاد - الحديث عن المقاصد والإفادة، هذه أدق القضايا التي قامت عليها لسانيات النص، خاصة عند فيهيفيجر، في حديثه عن

السياق والترابط المفهومي، والمناسبة في تحليل المحادثة، والوصل والمتواليات النحوية عند فان ديك، كل هذه وأكثر دفع بنا إلى القول بهذه الرؤية التي لا تخفى عن أحد أراد أن ينظر إليها، ويتأمل تضاريسها ويرى مكنوناتها.

(35) فان ديك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبدالقادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص 18. وفان ديك، النص بنياته ووظائفه، نظرة الأدب في القرن العشرين، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1996، ص 51، 52. وينظر: سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص 220، 221.

العناصر المنهجية التاريخية في النقد العربي القديم
(كتب الطبقات نموذجاً)

محمد مريني (*)

0 – إذا كان المنهج التاريخي قد ظهرت بداياته في الغرب في القرن الثامن عشر، فإننا نجد له ملامح في **نقدنا العربي** في **وقت متقدم**. لقد بدأت الأحكام التاريخية في النقد العربي القديم منذ وُجه السؤال: من أشعر؟ والإجابة عنه تقتضي معرفة تاريخية تمتد إلى أكبر عدد من الشعراء. لكن تبقى هذه الملامح ذات **نزعة إخبارية** عامة، لا ترقى إلى مستوى القراءة التاريخية التحليلية إلا في النماذج المتأخرة. وإذا كان من الصعب تتبع أشكال الممارسة التاريخية العربية في صورها المختلفة، فحسبنا هنا أن نقف عند نوع واحد من هذه المصنفات، هي التي يطلق عليها عادة: **التراجم والطبقات**؛ مع التركيز على الأعمال التأسيسية، التي شكلت قاعدة لأعمال أخرى لاحقة.

1 – اهتم المسلمون منذ القديم اهتماما بالغا بالمصنفات التي تعنى بالتراجم، لقد كان هذا العلم عندهم – حسب تعبير **فرانز روزنتال** – «أثبت صور التعبير التاريخي»[1].

يبدو هذا الاهتمام – في نظره – قائما على تصور معين لمفهوم التاريخ؛ فقد كان المسلمون «يعتقدون أن السياسة كانت كلها من عمل

(*) أستاذ بجامعة محمد الأول ـ المملكة المغربية.

الأشخاص، وأنها لا تفهم إلا على ضوء صفاتهم، وخبراتهم، وبذلك أصبح التاريخ في أذهان كثير من المسلمين مرادفا تقريبا للتراجم وسير الرجال»(2).

1-1 لقد اتخذ الاهتمام بالتراجم صورا عديدة؛ لعل أهمها جميعا ما اصطلح عليه **بعلم الطبقات**. وإذا كانت المصنفات في هذا العلم تغطي مختلف الحقول المعرفية التراثية، فإن التركيز كان على ثلاثة علوم: **الحديث النبوي والأدب والنحو**(3).

وكانت بدايات هذا العلم في مجال **الحديث النبوي**؛ إذ تصدرت المصنفات المرتبطة بطبقات المحدثين اهتمام المحققين؛ وذلك لحاجة العلماء الذين كانوا معنيين بتدوين الحديث إلى **معرفة سير رجال الأسانيد**، طبقا لمنهجهم في عملية «الجرح والتعديل». لذلك يقول **ابن الصلاح** في مقدمته:

«الباحث الناظر في هذا الفن يحتاج إلى معرفة المواليد والوفيات ومن أخذ عنه ومن أخذ عنهم»(4).

2-1 وقد ذكر **ابن النديم** أن **أبا عبدالله بن عمر الواقدي** (207) ألف كتابا بعنوان «الطبقات». كما ألف بعده **ابن سعد** (230) كتابه المشهور «**طبقات ابن سعد**»(5).

وكان الدافع الديني عاملا أساسيا في انتقال فكرة الطبقات إلى علم الأدب وعلم اللغة؛ إذ ثمة تداخل واضح بينه وبين علم الحديث النبوي. يتعين علينا أن نذكر هنا بخصوصية الحضارة العربية الإسلامية؛ فهي **حضارة قائمة على النص**، ومن هنا كان للغة منزلة متميزة. ومما لاشك فيه أن الأدب كان مصدرا جوهريا لتحقيق خصوصية الحضارة الإسلامية. لقد كان الأدب هو المعين على **فهم النص الديني** (القرآن الكريم والحديث النبوي)، لذلك كان «من الطبيعي أن تتداخل المقاييس

المرجعية وتذوب قيمة الأدب من حيث هو فن لينساب في شرايين اللغة كأس من أسسها المحايثة»[6].

3-1 لقد حظي الشعر، وخاصة الجاهلي منه بأهمية كبيرة، إذ به تعرف معاني ألفاظ القرآن الكريم والسنة النبوية. لذلك اعتبر العلماء المسلمون علم الأدب وعلم اللغة من **فروض الكفايات**[7]. كما أصبح علم الشعر من بين الكلام «شريفا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم، وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها»[8].

كما يشير بعض الدارسين إلى أن مصطلح الطبقة قد ظهر في الأدب العربي كشكل من أشكال **الموازنة الجماعية بين الشعراء**، بعد أن تبين أن التفاضل بين الشعراء المتقاربين في الجودة الفنية لم يعد ممكنا «وكان ذلك أول إشارة في تاريخ النقد إلى أن الشعراء طبقات»[9].

2 - يعتبر كتاب «**طبقات فحول الشعراء**» **لابن سلام الجمحي** في رأي بعض الباحثين أقدم كتاب - وصلنا في مجال الأدب - يستعمل لفظ طبقة[10]. **لذلك سنفرده باهتمام خاص، في سياق تأكيد الطابع الإخباري للممارسة التأريخية العربية.**

1-2 **موضوع الكتاب** كما هو واضح من العنوان هو تصنيف الشعراء الفحول في الجاهلية والإسلام إلى طبقات. والفقرة التالية تقدم بعض الإضاءات حول موضوع الكتاب. يقول ابن سلام:

«ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما يقول فيه العلماء، وقد اختلف الرواة فيهم. فنظر قوم من أهل الشعر والنفاذ في كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلف الرواة وقالوا بآرائهم

وقالت العشائر بأهوائها، فلا يقنع الناس في ذلك إلا الرواية عمن تقدم»[11].

2-2 صنف **ابن سلام** الشعراء **الجاهليين** – وعددهم أربعون شاعرا– إلى **عشر طبقات**، وكل أربعة منهم في طبقة. كما ألحق بهم ثلاث طبقات أخرى:

- طبقة **أصحاب المراثي**، وهي مؤلفة من أربعة شعراء.
- طبقة **شعراء القرى العربية**، يتميز هؤلاء بنشأتهم العربية، وتضم هذه الطبقة ثلاثين شاعرا. صنفوا بحسب القرى التي عاشوا فيها: فهناك شعراء المدينة، وشعراء مكة وشعراء الطائف، وشعراء اليمامة، وشعراء البحرين.
- طبقة **شعراء اليهود**.

كما جعل **شعراء الإسلام** في **عشر طبقات** أخرى منتهيا إلى **العصر الأموي**.

ما هي **الأسس** التي أقام عليه ابن سلام تقسيمه؟

2-2-1 الأساس الأول هو **الفحولة**؛ كل الشعراء الذين تعرض لهم ابن سلام شعراء فحول. صرح بهذا المقياس في حديثه عن الشعراء الجاهليين، بقوله:

«اقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا». وقد استمد ابن سلام هذا المقياس من الأصمعي الذي كان يقسم الشعراء إلى فحول وغير فحول[12].

2-2-2 الأساس الثاني هو **التقارب** بين الشعراء الذين يندرجون ضمن الطبقة الواحدة. يرى محقق الكتاب **محمود شاكر** التشابه «هو أساس نظر ابن سلام، ولا يتشابه شاعران إلا في مذهبهما في الشعر، ومنهجهما الذي يتميز به كل واحد منهما»[13].

2-2-3 الأساس الثالث هو **الزمن**؛ وعلى أساسه تم تقسيم الكتاب إلى مجموعتين: جاهليين وإسلاميين. وقد ورد عنوان الكتاب عند بعض الباحثين بالصيغة التالية: «**طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين**»[14]. كما اعتبر صاحب **الفهرست** طبقات فحول الشعراء لابن سلام **كتابين** وليس كتابا واحدا[15]؛ أحدهما في طبقات فحول الشعراء الجاهليين، والآخر في فحول الشعراء الإسلاميين؛ ذلك أن اضطراب المقدمة، وما فيها من خلط يشعر بأنه كانت هناك مقدمتان أدمجت إحداهما في الأخرى[16].

2-2-4 الأساس الرابع هو **المكان**؛ لقد وزع ابن سلام الشعراء بين الجاهلية والإسلام، لكنه لاحظ - بعد ذلك- أن هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة، بل ظلوا متصلين كل بقريته، فجمعهم في باب شعراء القرى[17]:

على هذا الأساس قسم الشعراء بحسب **الانتماء الجغرافي** إلى مايلي:

«المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين، وأشهرها قرية المدينة. شعراؤها الفحول خمسة: ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس. فمن الخزرج، من بني النجار حسان بن ثابت. ومن بني سلمة: كعب ابن مالك ومن بلحارث بن الخزرج: عبدالله بن رواحة. ومن الأوس: قيس بن الخطيم من بني ظفر، وأبوقيس ابن الأسلت، من بني عمرو بن عوف»[18].

2-2-5 كما **فاضل بين شعراء كل قرية** فجعل عبدالله بن الزبعرى أشعر المكيين: «وبمكة شعراء، فأبرعهم شعرا: عبدالله بن الزبعري ابن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، وأبو طالب بن عبد المطلب شاعر، والزبير بن عبد المطلب، شاعر. وأبو سفيان بن الحارث، شاعر»[19].

من المهم الإشارة هنا - ونحن بصدد الحديث عن العامل الجغرافي - إلى ما ذكره ابن سلام عن **تأثير الحروب في الشعر**؛ إن الشعر يكثر بالحروب:

«وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا. وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف في طرف»[20].

2-3 من أهم القضايا - ذات الصلة بالمباحث التاريخية - التي أثارها ابن سلام مسألة **الوضع والانتحال**. وقد كانت نظراته من أقدم ما كتب في الموضوع.

2-3-1 لقد كان الشعر عند العرب في الجاهلية **ديوان علمهم**، ومنتهى حكمهم، فجاء الإسلام، فتشاغل عنه المسلمون بالجهاد، وغزو فارس والروم «فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه»[21].

وقد وقف ابن سلام في مواضع كثيرة من كتابه عند **أسباب الانتحال**:

أول سبب وقف عنده هو العصبية بين القبائل:

«وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت»[22].

2-3-2 عامل آخر ساهم في شيوع ظاهرة الوضع والانتحال – من منظور ابن سلام – هو تزيد الرواة:

«وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار»[23].

3-3-2 كما قد يكون سبب الانتحال هو شهرة قصيدة من القصائد مثال ذلك قصيدة أبي طالب التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم، فقد زيد فيها وطولت «ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، ولا أدري أين منتهاها. قلت: لا»[24].

4-3-2 هناك عامل آخر ساهم في ظاهرة الانتحال، كما أشار إليها ابن سلام، له علاقة **بالقصص الديني**، وقد أشار ابن سلام هنا تحديدا إلى **ابن إسحاق**، الذي كتب في **السيرة النبوية**:

«وكان مما أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار – مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير. قال الزهري: لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخرمة، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك– فقبل منه الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، أتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك عذرا، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام معقود بقواف»[25].

5-3-2 أما **الدليل العملي** الذي يقدمه ابن سلام لتأكيد فكرته حول ذهاب الشعر قلة ما بأيدي الرواة المصححين من أشعار طرفة بن العبد

وعبيد بن الأبرص «إذ لم يصح لهما من القصائد إلا بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة»[26].

يستشهد ابن سلام هنا بكلام لأحد العلماء، وهو أبو **عمر بن العلاء**، الذي قال:

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير»[27].

2-3-6 إذا كان ابن سلام يقدم - عادة- في تاريخ الأدب العربي باعتباره أول من أثار ظاهرة الوضع والانتحال بطريقة منهجية[28]، **فإن المؤرخين العرب الذين جاؤوا بعده**، لم يطوروا هذه النظرية. لكن مسألة الانتحال سيثيرها بعض **المتأخرين من العرب والمستشرقين**[29].

من جهة أخرى تعرض ابن سلام - فيما يتعلق بمسألة الانتحال - **لهجوم عنيف**، من قبل بعض المهتمين بتاريخ الأدب العربي القديم. وقد طرح هذا الموضوع من زاوية الصراع الذي كان بين الكوفيين والبصريين؛ على الأساس الذي قررت فيه أوضاع المنافسة بين المدينتين أوضاع أخذ الشعر، وطرق النظر فيه[30].

2-4 إن الرغبة في توثيق النصوص، وتمييز صحيحها من زائفها هو ما جعل ابن سلام يتشدد في **مهمة النقد والناقد**، لقد أصبح الشعر «صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»[31].

هذا الناقد هو الذي يستطيع **ضبط الشعر**، **عكس الراوي الذي يكتفي بالنقل**: «وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر، ولا يضبط الشعر

إلا أهله»[32]. لذلك «ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء، أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الإشكال»[33].

هذا النوع من **الصرامة المنهجية** هو الذي سيسعف ابن سلام في ضبط مادة الكتاب، والتحديد الدقيق للطبقات التي تؤلفه. يقول في آخر المقدمة:

«ثم اقتصرنا – بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم– إلى رهط أربعة اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة»[34].

3 – **الكتاب الثاني** الذي نمثل من خلاله للطبقات والتراجم هو كتاب «**الشعر والشعراء**» **لابن قتيبة**[35]. الذي قدمه صاحبه باعتباره يخبر عن «الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم ، وقبائلهم، وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أومعانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون و[...] أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار عليها الشعر ويستحسن لها، إلى غير ذلك....»[36].

3-1 يتضح من خلال هذه **القولة الطابع الموسوعي** للخطاب النقدي التاريخي في الأدب العربي القديم. ذلك أن الممارسة النقدية لابن قتيبة تكاد تغطي هنا مختلف العناصر المرتبطة بالجوانب الثلاثة التالية : **الشاعر – السياق – الشعر**.

3-1-1 من الجوانب التي تندرج ضمن **المستوى الأول**، ما يلي :

– اسم الشاعر.

– اسم آبائه.

- اللقب والكنية.

- أخبار الشاعر.

3-2-1 أما الجوانب التي لها صلة بـ «**السياق**» فتتمثل في :

- الانتماء القبلي للشاعر.

- الزمن الذي عاش فيه.

- مكانته الاجتماعية.

3-2-3 وتتمثل الجوانب المتصلة **بشعر الشاعر** في:

- أقوال العلماء في شعره.

- جوانب التجديد والتقليد فيه.

- أقسام الشعر وطبقاته.

3-2 يمكن تقديم مثال لما أشرنا إليه بما أورده المؤلف في ترجمته لأول شاعر وقف عنده، وهو **امرئ القيس**:

فبعد تقديمه لاسم الشاعر: (هو امرئ القيس)، ولقبه:(ذو القروح) أشار إلى نسبه من جهة أبيه: (حجر بن عمرو الكندي)، وانتمائه القبلي:(هو من أهل نجد). ثم ذكر طائفة من الأخبار، سواء ما له صلة مباشرة به شخصيا، أو ما له صلة بعائلته وقبيلته بشكل عام.

3-2-1 الملاحظ أن **هناك تداخلا بين النصوص الشعرية والأخبار المقدمة**، بحيث تصبح هذه الأخبار بمثابة الإطار الذي يسعف في إدراك حقيقة النصوص. هذا فضلا عما يحققه هذا التداخل من تشويق، وذلك بالنظر إلى اعتمادالأسلوب السردي؛ أي تقديم الأخبار في صورة أقرب إلى القالب الحكائي، مما يجعل التحليل يتحول أحيانا إلى «**حكي من الدرجة الثانية**». لنر ذلك من خلال هذا المقطع الذي اقتطفناه من الكتاب (بشيء من التصرف):

«... وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقا، فطلبها زمنا فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غرة حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان، فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى له يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وأتني بعينيه، فذبح جؤذرا فأتاه بعينه، فندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن، إني لم أقتله، فقال: فأتني به، فانطلق فإذا هو قد قال شعرا في رأس جبل، وهو قوله:

فلا تتركني يا ربيع لهذه   وكنت أراني قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، ثم قال:

ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي

فبلغ ذلك أباه، فطرده، فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون، فقال:

تطاول الليل علينا دمون   دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

ثم قال: ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر، وغدا أمر، ثم قال:

خليلي ما في اليوم مصحى لشارب

ولا في غد إذ كان ما كان مشرب

ثم آلى لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يثأر بأبيه، فلما كان الليل لاح له برق، فقال:

أرقت لبرق بليل أهل   يضيء سناه بأعلى الجبل...»

2-2-3 يمضي المؤلف على هذا النحو في تقديم أخبار وأشعار امرئ القيس، من خلال هذا النص الطويل، الذي يسعفنا في تقديم **ملاحظات حول النزعة الإخبارية عند ابن قتيبة:**

- ليس هناك **توسع في عرض الخبر**، وإنما هناك حرص على انتقاء المعلومات ذات العلاقة المباشرة بالنص، إن الصيغة الإخبارية جاءت هنا جد مكثفة. تتضح هذه الخصوصية بالمقارنة بين النص هنا، والطريقة الإخبارية التي اعتمدها **أبو الفرج الأصفهاني** في الأغاني مثلا، كما سنرى لاحقا. كما لا يقدم المؤلف القصيدة المستشهد بها كاملة، وإنما يكتفي بتقديم المطلع، في حدود بيت أو بيتين.
- روعي في تقديم الأخبار والأشعار **تطورها الخطي الزمني من البداية إلى النهاية**. وكأننا بصدد قصة تعرض فيها أخبار وأشعار امرئ القيس متسلسلة بطريقة خطية: لقد كانت **بداية القصة** بعرض الأخبار والأشعار المتعلقة بلهو ومجون امرئ القيس، وموقف والده من ذلك. وكانت **نهاية القصة** بتقديم أخبار عن ظروف وفاته: فقد أحب ابنة القيصر، وكان يأتيها، ولما علم القيصر بذلك أرسل له حلة مسمومة، فلبسها في يوم صائف، فتناثر لحمه وتفطر جسده. «فقال حين حضرته الوفاة:

وطعنة مستحنفره وجفنة مثغنجره تبقى غدا بأنقرة»[37].

- كان ابن قتيبة يحرص على **إسناد النصوص والأخبار**، وذلك من خلال نسبتها إلى من سبقه من العلماء. من أمثلة ذلك قوله: «قال ابن الكلبي: هذا آخر شيء تكلم به....قال أبو عبدالله الجمحي: كان امرئ القيس ممن يتعهر في شعره، وذلك قوله: فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع. وقال: سموت إليها بعد ما نام أهلها»[38].
- لا تخلو هذه الترجمة التي يقدمها ابن قتيبة لامرئ القيس من **أحكام فنية**، يقدمها أحيانا منسوبة إلى غيره كما في قوله:

«ومما يستجاد من تشبيهه قوله:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي»[39].

أيضا قوله: «ومما يعاب عليه من شعره قوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل»[40].

3-3 **الاهتمام بالنسب:**

يمكن اعتبار النسب من العناصر الأساسية التي تقوم عليها الكتابة التاريخية عند ابن قتيبة. لذلك شكلت هذه المسألة **ثابتا من الثوابت** في أغلب الترجمات التي أوردها في كتابه.

1-3-3 يمكن تقديم مثال لذلك بما أورده الناقد في ترجمته للفرزدق:

فقد بدأ بسلسلة نسبه من جهة أبيه:

«هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم...»[41].

أورد بعد ذلك سلسلة نسبه المتصلة بأم جده صعصعة:

«وأم صعصعة قفيرة بنت سكين، من عبد الله بن دارم...»[42].

ثم قدم نسب أم صعصعة:

«وكانت أمها أمة وهبها كسرى لزرارة، فوهبها زرارة لهند بنت يثرب ابن عدس، فوثب أخو زوجها، واسمه سكين بن حارثة بن زيد بن عبد الله ابن دارم، على الأمة فأحبلها، فولدت له قفيرة أم صعصعة....»[43].

ينتقل بعد ذلك إلى تقديم نسب أمه:

«وأمه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس...»[44].

2-3-3 ينتقل - بعد ذلك- إلى التعريف بإخوته، خاصة منهم «هميم ابن غالب»[45]. وكذا أخته «جعثن»[46].

كما نلاحظ أن ابن قتيبة يقيم أحيانا علاقة وطيدة بين الشعر والنسب؛ وكأن الشاعرية تأتي الشاعر من جهة نسبه. هذا ما نفهمه من حديثه عن مكانة أم عمرو بن كلثوم:

«لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب»[47].

إن مسألة الوراثة تتجاوز عند ابن قتيبة علاقة الدم لتشمل الشعر أيضا؛ وهذا يعني أن الشاعر يرث موهبة الشعر ممن سبقه، من أجداده المتقدمين أو المتأخرين. لنر من خلال هذا المثال كيف يقيم علاقة حقيقية أو مفترضة بين امرئ القيس والفرزدق، من خلال هذه الرواية:

«... لأن امرأ القيس كان صحب عمه شرحبيل قبل الكلاب، حتى قتل شرحبيل بن الحارث، وكان قاتله أخاه معدي كرب بن الحارث، وكان شرحبيل بن الحارث مسترضعا في بني دارم رهط الفرزدق، وكان امرؤ القيس رأى من أبيه جفوة، فلحق بعمه، فأقام في بني جارم»[48].

3-3-3 لقد أوضح ابن قتيبة سلسلة النسب التي تربط بين **خمسة شعراء**: «فهؤلاء خمسة شعراء في نسق: العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى وكان أبو سلمى أيضا شاعرا»[49].

يحرص ابن قتيبة أحيانا على الجمع بين علاقة **النسب والرواية**؛ فقد يكون الشاعر راوية لأحد قرابته: فقد كان المسيب بن علس «خال الأعشى، أعشى قيس، وكان الأعشى راويته»[50].

مما يتصل بالنسب أيضا حديثه عن **منزلة الشاعر**، ومنزلة القبيلة التي ينتمي إليها:

«فقد كان طرفة بن العبد: «في حسب من قومه... وكانت أخته عند عمرو بن بشر بن مرثد، وكان عبد عمرو سيد أهل زمانه... »[51].

3-4 على الرغم من هيمنة النزعة الإخبارية على مادة الكتاب، نصادف أحيانا ميلا إلى **التحليل والتعليل** القائمين على ربط الظواهر الأدبية بأصولها الاجتماعية، والبيئية، والنفسية. لعل المثال الواضح لذلك، هو التفسير الشهير الذي قدمه **لظاهرة المقدمة الطللية**:

3-4-1 يبدأ ابن قتيبة كلامه في هذا المجال بعرض الظاهرة، وتقديم **تفسير بيئي اجتماعي** لها:

«وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان»(52).

3-4-2 ثم يقرن هذا التعليل الاجتماعي البيئي **بتقديم تفسير نفسي**:

«ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام»(53).

3-4-3 كما يشير ابن قتيبة إلى **تأثير هذه التقاليد الفنية في المتلقي**، من حيث تحقيق الغرض الذي يسعى إليه الشاعر في الحصول على مكافأة الممدوح:

«فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل.

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد»(54).

3-5 كما نصادف في الكتاب بعض **الشروح ذات الطابع اللغوي**.

3-5-1 لنتتبع ذلك من خلال هذا التحليل الذي يقدمه للبيتين التاليين **لأبي نواس**:

«كان أبو نواس متفننا في العلم، وقد ضرب في كل نوع منه بنصيب ونظر مع ذلك في علم النجوم، يدلك على ذلك قوله:

ألم تر الشمس حلت الحملا وقـام وزن الزمـان فاعتـدلا

وغنت الطير بعد عجمتهـا واستوفت الخمر حولها كملا

وكان بعضهم يذهب إلى أنه أراد أن الخمر حولا منذ جرى الماء في العود، وجعل ذلك الماء هو الخمر، لأنه يصير عنبا فيعصر.

وهذا قول، لولا أن الماء يجري في العود قبل حلول الشمس برأس الحمل بمدة طويلة.

والذي عندي فيه: أن الهاء في قوله «حولها» كناية عن الشمس، لا عن الخمر، كأنه قال: واستوفت الخمر حول الشمس كملا. وقد تقدم ذكر الشمس في البيت الأول، فحسنت الكناية عنها. ومعنى استيفائها حول الشمس: أن الله تبارك وتعالى خلق الفلك والنجوم والشمس برأس الحمل، والليل سواء، والزمان معتدل في الحر والبرد، فكلما حلت الشمس برأس الحمل فقد مضت سنة للعالم، فقد استوفت الخمر حول الشمس كملا، وإن هي لم يأت لها حول في نفسها. وإنما أراد أن الشرب يطيب في هذا الوقت لاعتدال الزمان، وتفتح الأنوار، وتفجر المياه، وغناء الطير في أفنان الشجر»(55).

3-5-2 لقد كان **ابن قتيبة** حريصا على التدقيق اللغوي، بل إن موقفه من اللغة هو أقرب إلى التعصب، فهو لا يقبل إلا **الألفاظ العربية الخالصة**. والدليل عل ذلك هو موقفه من الشاعر عدي بن زيد العبادي. فقد ذكر في مستهل ترجمته قوله:

«وعلماؤنا لا يرون شعره حجة»(56).

وأورد في موضع آخر من هذه الترجمة ما يلي:

«وذكر أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء : كان عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها. قال: والعرب لا تروي شعره، لأن ألفاظه ليست بنجدية»[57].

3-6 نصادف في كتاب ابن قتيبة الكثير من **أحكام القيمة**، وهي أحكام قائمة على أساس فني.

3-6-1 وقد أوضح في مقدمة الكتاب **الأسس** التي تقوم عليها هذه الأحكام بقوله:

«ليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يحفظ ويختار على أسباب منها: الإجادة في التشبيه... وقد يختار ويحفظ على خفة الروي... وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره، أو لأن شعره قليل عزيز... وقد يختار ويحفظ لأنه غريب في معناه... وقد يختار أيضا لنبل قائله»[58].

1-6-2 من المقاييس الأخرى التي كان يعتمدها ابن قتيبة في التقويم **مقياس الطبع والصنعة**. يقول:

«ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة... والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر»[59].

لقد حاولنا من خلال ما سبق تتبع العناصر المنهجية التاريخية في النقد العربي القديم؛ من خلال نموذج واحد من النماذج التأليفية التي وضعها العرب. يتعلق الأمر بكتب **التراجم والطبقات**. وقفنا في هذا الإطار عند نموذجين تأسيسيين، يتمثلان في: طبقات فحول

الشعراء لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة. وإذا كانت هذه الأعمال تندرج ضمن ما يسمى التاريخ «**الإخباري**» أو «**النوادري**»، فإن عناصر المقاربة التاريخية حاضرة في هذه الأعمال خاصة على مستوى **الأدوات الإجرائية التطبيقية**. وقد توصلنا من خلال التحليل إلى تأكيد الحقيقة التالية: **إذا كان المنهج التاريخي قد ظهرت بدايته في القرن الثامن عشر في أوروبا، فإن ملامح له موجودة في نقدنا العربي القديم.**

الهوامش

(1) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة:د. صلاح أحمد العلي، بغداد، 1963، ص: 1963.

(2) المرجع نفسه، ص: 142.

(3) للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى: د. محمد أمين، مفهوم «الطبقة» بين المحدثين والأدباء، مقال بمجلة التسامح، مؤسسة عمان للأنباء والنشر والإعلان، شتاء 2004، ص: 188 وما بعدها.

(4) مقدمة ابن الصلاح في علم الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، 1978، ص: 197.

(5) طبقات ابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1068.

(6) عبدالسلام المسدي، في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994، ص:127-128.

(7) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عيسى البابي الحلبي، ط 2، (ب-ت)، ج: 2 ص: 302.

(8) عبدالرحمان بن خلدون، دار القلم، بيروت، ط 1: 1978.

(9) طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة ، بيروت،(ب-ت)، ص: 45.

(10) د. عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت(د-ت)، ص: 281، وأيضا: طه احمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة، بيروت(ب-ت)، ص:88.

(11) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمد شاكر، دار المدني بجدة، (ب-ت)، ص: 23-24.

(12) عرف الأصمعي الفحل كما يلي: «له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق». والحقة من أولاد الإبل التي بلغ أن يركب عليها. ونقل ابن رشيق القيرواني عن الأصمعي نصا يبين من خلاله كيف يصير الشاعر فحلا. يقول الأصمعي: «لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم إعرابه، والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم». ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة 1934.

(13) محمود شاكر، تقديم كتاب طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي،دار المدني بجدة، (ب-ت)، ص: 12.

(14) د. أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1986، ص: 177.

(15) ابن النديم، الفهرست، المكتبة التجارية، مصر 1348.

(16) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة، بيروت، (ب-ت)، ص: 82.

(17) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة،(ب-ت)، ص: 13.

(18) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج: 1 ص: 215.

(19) المصدرنفسه، ص: 233.

(20) المصدرنفسه،ص: 259.

(21) المصدرنفسه، ج: 1، ص: 25.

(22) المصدرنفسه، ص: 46.

(23) المصدرنفسه، ص: 48.

(24) المرجع نفسه، ص: 244-255.

(25) المرجع نفسه، ص: 8.

(26) المرجع نفسه، ص: 26.

(27) المرجع نفسه.

(28) نتحدث هنا عن المؤلفات في مجال الأدب، أما في مجال السيرة النبوية فهناك إشارات سابقة إلى الموضوع، لعل أهمها ما أورده ابن هشام في سيرته (توفي سنة 231هـ)، التي تعقب فيها العمل الذي أنجزه ابن إسحاق. من بين ما ذكره، في ما له علاقة بموضوعنا: «وأشعارا ذكرها (يعني ابن إسحاق) لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به». انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط: مصطفى البابي الحلبي، 1936م، ج: 1، ص: 4.

(29) نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر مصطفى صادق الرافعي، في الباب الثاني من كتابه: تاريخ آداب العرب. هذا الباب بعنوان: «الرواية والرواة» (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، ج: 1، ص: 269 وما بعدها). وكذا طه حسين في كتابه: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، (ب- ت).

(30) يرى الدكتور محمد نجيب البهبيتي أن ابن سلام كان بصريا، فهو يعادي الكوفيين الذين كانوا ينافسونهم في رواية الشعر. لقد كان الكوفيون أغنياء في الرواية؛ بحكم وقوع مكتبة المناذرة بينهم، وقد لجأ البصريون إلى محاولة إضعاف نقول خصومهم، عن طريق اصطناع المنطق والقياس والاستدلال. وكان طبيعيا أن يجري ابن سلام على المنهج الذي جرت عليه جماعته في أخذ الشعر القديم، والاقتصار على قبول ما وجد منه بين أيدي البصريين. انظر: نجيب محمد البهبيتي، المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين، دار الثقافة، البيضاء، 1985، ص: 125-126.

(31) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج: 1، ص: 5.

(32) المصدر نفسه، ص: 60.

(33) المصدر نفسه، ص: 46-47.

(34) المصدر نفسه، ص: 50.

(35) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق:أحمد محمد شاكر، دار الثقافة بيروت لبنان (بدون سنة الطبع). ج: 1، ص: 7.

(36) المصدر نفسه، ص : 7.

(37) المصدر نفسه، ص: 53.

(38) المصدر نفسه.

(39) المص در نفسه، ص: 53.

(40) المصدر نفسه.

(41) نفسه، ص: 381.

(42) المصدر نفسه.

(43) المصدر نفسه.

(44) المصدر نفسه، ص: 382.

(45) المصدر نفسه.

(46) المصدرنفسه، ص: 383.

(47) المصدرنفسه، ص: 157.

(48) المصدرنفسه، ص: 64.

(49) المصدرنفسه، ص: 81.

(50) المصدرنفسه، ص: 108.

(51) المصدرنفسه، ص: 117.

(52) المصدرنفسه.

(53) المصدرنفسه، ج: 1، ص: 21.

(54) المصدرنفسه، ص: 20.

(55) المصدرنفسه، ج: 2، ص: 682-683.

(56) المصدرنفسه، ص: 150.

(57) المصدرنفسه، ص: 154.

(58) المصدر نفسه، ص: 26-31.

(59) نفسه، ص: 20.

نُــزه القلــوب
نحو قراءة بلاغية لنثر الجاحظ

سعيد العوادي(*)

تقديم تأطيري:

يمتاز الباحث محمد مشبال بصوته البلاغي الخاص ضمن الأصوات القليلة للبلاغة العربية المعاصرة. ويتجلى هذا الامتياز في صدوره عن أسئلة عميقة، كانت سببا مباشرا في انتظام مشروعه البلاغي انتظاما كميا ونوعيا فمن الناحية الكمية، أنتج أحد عشر كتابا، وأشرف على أربعة كتب مشتركة، بالإضافة إلى نشره لمجموعة من المقالات في مجلات رصينة وطنية وعربية. ومن الناحية النوعية، ظلت كتاباته البلاغية مركزة عنايتها على ضرورة الانتقال من البلاغة المدرسية الضيقة إلى بلاغة أدبية رحبة تتجاوز منهج استقدام الشواهد النصية لتملأ الخطاطات البلاغية المعدّة سلفا، وتتغيا مسلكا بلاغيا جديدا يعيد ربط الصلات بالنقد الأدبي بهدف إنتاج معرفة مثمرة بالنصوص، تستحضر البعد الأجناسي المتحكم في بلاغتها المخصوصة. وقد عالج محمد مشبال هذا المنزع البلاغي في مشروع تداخلت فيه ثلاثة خطوط متعامدة. وهي: خط الاشتغال على النصوص النثرية، وخط

(*) كلية اللغة العربية - جامعة القرويين.

الترجمة لنصوص الآخر البلاغية، وخط التأطير والإشراف على البحوث البلاغية الأكاديمية الجماعية.

وستحاول هذه المقالة تسليط الضوء على الخط الأول، مبرزة الجهد الذي بذله محمد مشبال من أجل قراءة بلاغية نوعية لنثر الجاحظ (255هـ) الذي لمس فيه ابن دريد (321هـ) «نُزه القلوب»[1]. فماهي النزه الجاحظية التي تجول فيها الباحث محمد مشبال؟ وماهي الذخيرة البلاغية التي رافقته في هذا التجوال الشائق والشائك في الآن نفسه؟

1 - من بلاغة الشعر إلى بلاغة النثر:

يلحظ الدارس للمشروع البلاغي لمحمد مشبال انتقاله الواعي من دراسة بلاغة الشعر إلى بلاغة النثر؛ إذ لم يكن هذا الانتقال تصحيحا لبداية مرتبكة، بقدر ما كان لحظة أساسية للتأمل والاختبار وطرح الأسئلة البلاغية والحضارية.

لقد أدرك الباحث أن بلاغتنا العربية هي بلاغة شعر بامتياز، وأن التناول البلاغي للأجناس والأنواع الأخرى كان يهتدي بالمقومات الأسلوبية والجمالية التي كشفت عنها تلك البلاغة الشعرية.

وبذلك، كان لزاما عليه أن يضبط الأصول الكبرى التي تقوم عليها بلاغتنا العربية، ممتثلا لدعوة الأستاذ أمين الخولي «بداية التجديد قتل القديم فهما»، فجاء كتابه: «البلاغة والأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي - نموذج ابن جني-»[2] الذي هو، في الأصل، أطروحة لنيل الدكتوراه، وتطوير لرسالة الماجستير التي تناولت موضوع «نظرية ابن جني في لغة الشعر».

لم تكن دراسة أسس التفكير البلاغي العربي من خلال نموذج ابن جني ضربا من «قتل القديم المعروف فهما»، وإنما كانت ضربا

من «قتل القديم غير المعروف فهما». فقد تقرر في الأذهان أن ابن جني (392هـ) صاحب «نظرية» في اللغة، دون أن يُلتفت إلى الجانب البلاغي عنده، كما هو حال هذه الدراسة التي أبرزت القيمة البلاغية لهذا العالم الجليل.

ترسخت جذور الدرس البلاغي العربي في أرض النحو التي اتسع مداها لدراسة مجمل الخصائص البنائية للغة العربية، و(هكذا كان لنظر ابن جني في جملة من المقومات الصوتية والصرفية والتركيبية، أن أفضى به إلى الكشف عما تحمله من إمكانات أسلوبية تمثل خصائص هذه اللغة في التعبير البلاغي والجمالي. وبناء عليه لم يكن ما انتهت إليه بلاغة الشعر من مقومات سوى امتداد للتفكير في الخصائص الجمالية للغة العربية)[3].

لم يُغيب ابن جني لغة الشعر؛ وهو المفتون بشعر المتنبي والشارح له. إذ حضرت اللغة الشعرية بجانب اللغة التواصلية في متن الاشتغال. يقول مشبال: (إن النظر في مقومات الشعركان جزءا من التفكير العام في الخصائص الجمالية للعربية، ولم يستقل بنفسه حتى يمنحنا بلاغة شعرية بالمفهوم الدقيق الذي تفترضه نظرية الأدب الحديثة. ومع ذلك فإن ابن جني كان واعيا بخصوصية. ومن هنا ارتباط تفكيره البلاغي بهذا الجنس التعبيري)[4].

وهكذا، فقد استخلص الباحث من كتب ابن جني جملة من السمات والصيغ الواصفة لجمالية جنس الشعر في تعالقاتها مع مفهومي شجاعة العربية والتطوع.

ويتناول كتاب «مقولات بلاغية في تحليل الشعر»[5] زاوية أخرى تنتقل بالباحث، داخل دائرة بلاغة الشعر، إلى المزاوجة بين التفكير البلاغي النظري والممارسة النصية التطبيقية. إذ ناقش مجموعة من

البلاغيين والنقاد كعبد القاهر الجرجاني[6] ومحمد العمري[7] ومحمد الولي[8] ورشيد يحياوي[9] وهنريش بليث[10]، بينما وظف مفهومين بلاغيين في تحليل بعض النصوص الشعرية القديمة والحداثية. وهما مفهوم الالتفات في قصيدة المدح عند أبي تمام، وفي قصيدتي «الطيور» و«الخيول» في ديوان «أوراق الغرفة 8» لأمل دنقل، ومفهوم الصورة في ديوان «نشيد البجع» لمحمد بنطلحة.

تشكلت أصول التفكير في بلاغة النثر في الكتابين السابقين، على الرغم من إخلاصهما لبلاغة الشعر. وهذا ما نلحظه في حضور مقياس النوع والجنس في مناقشات الباحث للبلاغيين القدامى والمحدثين، فضلا عن تخصيصه لوقفات يتدارس فيها بلاغة النثر مصرحا تارة في «مقولات بلاغية» في المبحث الموسوم بـ «مقولة »النوع» وموقع النثر في البلاغة الحديثة»، ومضمِّنا في «البلاغة والأصول» في تأصيل نظري سماه «البلاغة وجنس الشعر» تارة أخرى.

ينتقل محمد مشبال إلى محاولة بناء مشروع بلاغي ينصب اهتمامه على النثر العربي القديم، بعدما لاحظ انشغال بلاغتنا العربية بجنس الشعر؛ هذا الجنس الذي مارس غوايته على البلاغيين والنقاد، فاندفعوا صوبه لكشف مؤثرات تلك الغواية. ثم خرجوا في كشفهم بكشوفات جمالية تحولت إلى شبكة واسعة من المصطلحات والمفهومات.

وإذا ما رام أحدهم دراسة النثر، فهو لا يبحث فيه إلا انطلاقا مما رسخته بلاغة جنس الشعر. يقول مشبال موضحا: «إن وصفنا للشعر بأنه يشكل الجنس الأدبي الأكثر حضورا في صياغة أصول البلاغة العربية ومفهوماتها، لا ينفي حضور أجناس الخطاب الأخرى، ولكنه حضور يتم بواسطة الأسلوب الشعري الذي امتد إلى أجناس النثر ولم

ينحصر في القصيدة)[11]. وحتى مجال المفاضلة بين الشعر والنثر الذي تقوى في نقدنا القديم لم يسمح بتبلور مقاييس بلاغية نثرية، إذ انحصر في سياق التفاضل الثقافي والحضاري، دون أن يعمق النقاش في المقارنة النصية بين الجنسين، وأما الذين سارعوا إلى تقديم كتابات حول النثر، بإيعاز من المكانة الاجتماعية والثقافية التي أصبح يحظى بها الكاتب، فلم تتجاوز في أحسن الأحوال دوائر التصنيف والتقسيم وقواعد الكتابة كما عبر عنها ابن وهب والكلاعي والقلقشندي...

ويرى الباحث أن دراسة بلاغة القرآن الكريم ظلت وفية لما أنتجته بلاغة الشعر من مصطلحات متنوعة كما أن (اعتماد النص الشعري الجاهلي حجة لإثبات أن القرآن الكريم لا يختلف في صياغته التعبيرية عما عهد عند العرب، كان نهجا يرضي أفق التلقي أكثر مما كان في الواقع تقصيا دقيقا لخصائص النص القرآني. بل إن الاحتكام إلى النص الشعري للدفاع عن أسلوب النص القرآني، إنما يؤكد سلطة النص الشعري وتمكنه من ذهنية المتلقي، ويؤكد في الوقت نفسه أصلية هذا النص ومعياريته (...) إنها قراءة شاءت الدفاع عن أسلوب القرآن فوقعت في تمجيد أسلوب الشعر، وبذلك كانت إشباعا لذوق المتلقي واستجابة لمعاييره الجمالية)[12].

وإذا كان هذا الإجراء هو الطاغي على بلاغة القرآن الكريم، فإن ثمة مجموعة من الإشارات التي تعاورها المفسرون وعلماء الإعجاز واصطلحوا عليها بـ «عادات القرآن» وهي في الغالب عادات أسلوبية تبتعد عن مصطلحات بلاغة الشعر، لتنتظم في حقل السمات الأسلوبية القرآنية والتي يمكن أن تكون مقدمة لبناء بلاغة قرآنية مخصوصة ومتميزة عن بلاغة الشعر.

وفي تصوري فقد ساهمت قراءة النثر من خلال مقاييس بلاغة الشعر في بطء عجلة تطور جنس النثر، فضلا عن ذوبانه في جنس الشعر مما أنتج نثرا «مشعرنا» موافقا للأذواق التي عاشت في كنف الشعر كما حدّ من تشكل الأنواع النثرية الصافية، بل دفع إلى تداخلها وتشابكها؛ وهو ما سيصعب من دراستها في إطار النوع، كما يمكن استشعار ذلك في مشروع بلاغة النثر عند محمد مشبال.

وبالنظر إلى حالة الفراغ في دراسة بلاغة النثر عند القدماء، فقد أطلق محمد مشبال صرخة مدوية في وجه النقد العربي الحديث. يقول فيها: (قد حان الوقت كي نجعل من تراثنا النقدي لحظة تأمل فيما ينبغي صنعه من أجل تطوير الحقل النقدي العربي من غير الجهة التي سعى إليها معظم نقادنا في السنوات العشرين الأخيرة)[13]. كما وضع الناقد العربي المعاصر أمام امتحان حقيقي عبر عنه بالسؤال الآتي: (ما السبيل إلى تحليل أنواع نثرية لا تسعف المعايير الموروثة في إدراك طبيعتها؟)[14].

يعرف محمد مشبال «أسرار النقد» العربي المعاصر، ويعلم طابع التسرع والاستيراد من الغرب الذي يطبع مساحة كبيرة من ممارساتنا النقدية المعاصرة، إذ اهتم الدارسون العرب بالنثر السردي وأهملوا النثر الفني غير السردي بإيعاز من الغرب. فسارع إلى التنبيه على عدم (الاستسلام لسلطان الإغراء والنتائج الباهرة)[15] التي انتهت إليها جهود الشكلانيين والبنيويين والأسلوبيين في تحليل النصوص النثرية، مشيرا إلى ضرورة مراعاة مبدأ الخصوصية الإبداعية العربية. يقول: (يظل الإحساس بوجود ألوان من الصياغة الأدبية في تراثنا النثري، لا يسعف في تحليلها الانتفاع المباشر بهذه النتائج قائما، خاصة أننا

بعد فترة من التجريب النقدي القائم على النقل والتقليد لم نقتنع بما حصلناه في نقد الشعر)[16].

لا يعني الكلام السابق أن محمد مشبال يضع قطيعة مضاعفة مع التراث البلاغي القديم من جهة، والخطاب البلاغي والنقدي الغربي من جهة أخرى. بل هو يدعو إلى أخذ الحذر والحيطة في استجلاب الآراء والنظريات.

وأسفر تفاعله مع البلاغة القديمة والحديثة في السياقين العربي والغربي إلى الاطمئنان لما سماه «بلاغة أدبية» تتعالى عن البلاغة النظرية المدرسية، لتتصل بأجناس النصوص وأنواعها باحثة في القيم البلاغية والإنسانية التي تطفح بها بنياتها ووظائفها. ويعرفهامشبال بالقول: (إن ما وصفناه بـ «البلاغة الأدبية» لا يعدو أن يكون مجموعة من المبادئ والأصول التي يمكن أن ترشد القارئ في بيان جمالية النص الأدبي النوعية وقيمه الإنسانية والإيديولوجية. فالبلاغة ليست قوانين كلية مجردة فقط، بل هي أيضا مبادئ مخصوصة مستقاة من الأجناس والأنواع، كما أنها لا تنحصر في وصف وتفسير ما به يكون النص جميلا، ولكنها تتجاوزه إلى تفسير ما به يكون النص مؤثرا في المتلقي؛ أي إن البلاغة الأدبية تزاوج في دراستها بين النظر في بنية النص الأدبي والنظر في وظائفه. يتساءل دارس النص الأدبي عن انسجامه وعن تأثيره معا)[17].

والملاحظ أن هذه المبادئ المعرفية والمنهجية تظل مرافقة للباحث في مختلف دراساته، دالة على تجذرها في وعيه الأكاديمي، فضلا عن مسوغاتها البيداغوجية التي من شأنها أن تذكر القارئ في كل مرة بمرجعيات الباحث لفهم المسار الذي يتجه فيه مشروعه البلاغي.

وتتشابك في مشروع الباحث جملة من القضايا التي ينشغل بها ذهنه البلاغي والنقدي، فيعيد الإشارة إليها على مدار محطات مشروعه وفي سلسلة كتبه المتتابعة. ومن ذلك أن معالجته للجنس أوالنوع الواحد عند الجاحظ إنما يحيله إلى إشكالات كبرى (كإشكال وصف الأجناس الأدبية السردية القديمة، وإشكال قراءة النصوص وتأويلها، وإشكال علاقة الأدب القديم بالأدب الحديث، وإشكال مفهوم البلاغة في صلاته بالأدب والسرد الأدبي وما يثيره من تعارض سائد اليوم بين مفهومي الحجاج والسرد)[18]؛ أي يربطه بقضية «الأصالة والمعاصرة» في بعدها الحضاري الواسع، فليس (الاهتمام بتراث نثري متنوع وخصب إلا وجها لإشكال ثقافي يتجسد في موقفنا من التراث والحداثة وموقفنا من قضية التجديد والإبداع)[19]؛ لأن المساهمة في تعرف مشكلات الأجناس العربية القديمة هو مطمح بعيد (لا يريد الاكتفاء بالتوقف عند هذه الغاية العلمية التاريخية، بل يستشرف آفاقا أوثق صلة بوضع الإنسان العربي المعاصر وبإجاباته الأدبية والجمالية)[20].

وبالنسبة إلى التسمية البلاغية المؤطرة للمسار البلاغي للباحث، فإنني أستحسن أن يستبدل محمد مشبال تسمية «بلاغة النوع» بـ«بلاغة أدبية» لما في لفظة «أدبية» من انحصار في الدلالات الجمالية التي تحيل إلى مفهوم «الأدبية»، كما تشكل مع البنيويين والأسلوبيين. ولربما أحس محمد مشبال بذلك في كتابه الأخير الذي درس فيه رسائل الجاحظ دراسة بلاغية حجاجية، مشغلا مصطلح «البلاغة النوعية» بدل «البلاغة الأدبية».

ومن أجل تجلية بلاغة النوع النثري، انصرف محمد مشبال إلى دراسة الأدب الجاحظي دراسة متعمقة جعلته متخصصا في بلاغة نثر الجاحظ. وباختياره للجاحظ وضع اليد على أحسن مثال للنثر العربي.؛

فهو مدرسة نثرية قائمة بذاتها حافلة بأنواع النثر. لذلك حاز كل عبارات التقدير والتميز من القدماء حين لمسوا في نثره قوة تصويرية وتعبيرية متفردة. وهاهو أبو منصور الثعالبي (429هـ) يقول فيه: (كان يُقال: أربعة لم يُلحقوا ولم يُسبقوا: أبو حنيفة في علمه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره)[21]. وتهور أحد الأندلسيين فقال: (قد رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضا عن نعيمها)[22]. كما قال فيه محمد مشبال: (يخفي الحوار مع الجاحظ حوارا صامتا مع أدباء عصرنا هذا)[23]، مؤكدا الطابع الحضاري الذي تثيره العودة المتجددة إلى شخصية مؤثرة مثل شخصية الجاحظ. كما يضيف: (كان الجاحظ مؤسسا لبلاغة النثر في الأدب العربي؛ بلاغة صارعت الشعر وثقافته، مستجيبة للتحولات الحضارية والثقافية التي حدثت في عصره)[24]. والواقع أنَّ الجاحظ قد أضاف تأسيسا آخر هو توصيفه البلاغي لجماليات النثر، فكانت بلاغة النثر عنده ذات وجهين: أحدهما نصي، والآخر قرائي. كما كان نثر الجاحظ باباً مفتوحا لإنضاج القراءة البلاغية. يقول محمد مشبال في أحد حواراته: (في الحقيقة شكّل نثر الجاحظ اختبارا حقيقيا لأفكاري البلاغية؛ فقد مكنني التواصل المستمر مع هذا النثر من صقل تصوري للتحليل البلاغي وتطويره[25].

وفعلا، فالقارئ لمشروع مشبال يدرك الفضل الكبير للجاحظ عليه، حينما يدفعه إلى تطوير أدواته البلاغية ومصادراته النظرية كلما تحول من نوع نثري إلى آخر، كما سيتضح فيما سيأتي.

1 - نزهة النادرة وبلاغة السمات:

خصص محمد مشبال لدراسة نوع النادرة في نثر الجاحظ كتيبا سماه «بلاغة النادرة»؛ وهو صغير الحجم عظيم النفع كما تدل على ذلك طبعاته الثلاث (1997-2001-2006) قبل قراءته.

يعيد محمد مشبال في هذا الكتاب التذكير بالأزمة التي تعرفها بلاغة النثر كما يقترح حلولا ممكنة لهذه الأزمة، على نحو ما أثاره في مفتتح مقالته حول «سمة التضمين التهكمي في رسالة التربيع والتدوير». أما الأهداف التي يروم تحقيقها في «بلاغة النادرة»[25]، فيستجمعها في أمرين:

1 - محاولة الاستفادة من الموروث النقدي والبلاغي العربي في ضبط سمات النادرة، بيد أن عدم انشغال القدماء ببلاغة النثر عموما جعل (البحث شاقا لايعد بإضافات جديدة إلى ما أقره الجاحظ)[26].

2 - التعويل على الدراسة التحليلية لنوادر الجاحظ من أجل تجلية السمات الأسلوبية المتضمَّنة فيها، خصوصا أن الدراستين الوحيدتين حول نوادرالجاحظ، مع فدوى مالطي دوجلاس في «بنائيات البخل في نوادر الجاحظ» وأحمد بن محمد بن إمبيريك في «صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب الجاحظ»، لم تضيفا أي جديد في كشف بلاغة النادرة الجاحظية.

هي أهداف جريئة لا توقفها العقبات الكمية والنوعية للدراسات السابقة القديمة أو الحديثة؛ ولعل من أبرز هذه العقبات، بالإضافة إلى ما ذُكر آنفا،عقبة تشتت المصطلح أو التسمية؛ فالجاحظ يسمي هذا النوع النثري نوادر وملحا وطرفا وأقاصيص وأحاديث. غير أن الباحث يهون من هذه العقبة بقوله: (إن افتراض وجود فروق نوعية بتلك التسميات التي أطلقها الجاحظ على حكيه؛ ينبغي ألا يقلل من قيمة افتراضنا بضرورة إدراجها في إطار موحد هو النادرة؛ التسمية الأكثر شيوعا والأقوى تمثيلا لهوية حكايات الجاحظ الطريفة)[27].

لا يقرأ الباحث الخصوصيات النوعية لنوادر الجاحظ بوساطة المعايير البلاغية التقليدية كما وصلتنا عن السكاكي ومدرسته، وإنما

يستثمر بلاغة السمات التي تقرب البلاغة من حقل النقد، ويقصد بها (الصيغ التعبيرية التي لا تملك قاعدة سابقة، بل تستمد وجوهها من طبيعة النص والجنس الأدبيين اللذين تنتمي إليهما ومن غيرها من المصادر في الطبيعة والحياة والفن)[28].

وعلى الرغم من أن محمد مشبال لم يخصص مبحثا يعرف فيه النادرة ويميزها عن أنواع نثرية أخرى كالخبر مثلا، حتى لا يلتبس هذا التداخل على القارئ. فإنه قد استخلص مجموعة من الخصائص المميزة للنادرة عند كل من الجاحظ والتوحيدي (421هـ) في عنصر متفرع عن سمة «الضحك سماه «حرارة النادرة»؛ إذ استخلص من الجاحظ سمات: (صورة اللغة والطاقة الإيحائية لاسم الشخص الذي تسند له النادرة، وسمات نوادر البخل التي اختزلها في الحجة والحيلة والتعجيب)[29]، كما استخلص من التوحيدي سمات إضافية هي: (حسن المقطع وقصر المتن واختيار الراوي المناسب وتوخي الوقت وإصابة الموضع أي مراعاة المقام)[30].

ترتب عن قراءة نوادر الجاحظ من خلال بلاغة السمات فصلان: الأول بعنوان «سمات حكي الجاحظ»، والثاني بعنوان «صور بخيل الجاحظ»؛ حاول الباحث أن يستخرج خمس سمات كبرى في الفصل الأول ، وهي:

1 – سمة العري: تتعلق بطبيعة اللغة العارية عن أساليب البديع.

2 – سمة التصوير: ترتبط بالإيهام بالواقعية مع التماسها للتخييل.

3 – سمة الطرافة: تتصل بالتشكيل الفني الطريف المسنود بالاحتجاج والحيل.

4 – سمة التعجيب: تقوم على استعمال الأشياء بطريقة تحويلية غريبة.

5 – سمة الضحك: تتأسس على الهزل أو السخرية.

كما جلّى محمد مشبال صورة بخيل الجاحظ في الفصل الموالي، حددها في ست سمات، وهي:

1 – سمة القلق المسلي: يتفاعل فيها قلق البخيل من الوقوع في الكرم، وقلقه من إظهار البخل.

2 – سمة الشح المؤذي: يتجاوز الشح ذات البخيل إلى إيذاء الآخرين من حوله.

3 – سمة التغافل القاسي: يوظف البخيل كل الحيل القاسية لتفادي استضافة الأصدقاء القدامى.

4 – سمة موعظة الرقيب: يحتال البخيل بالمواعظ المطولة لإلهاء المدعوين عن الأكل.

5 – الجسارة الشرسة: يأكل البخيل بطريقة نهمة متجاسرة عندما يدعى إلى مأدبة.

6 – حُمى الغيظ: يصاب البخيل بغيظ بالغ عندما يفاجئه طفيلي يهدم ما خطط له في الأكل.

2 – نزهة الخبر وبلاغة الإمتاع والإقناع:

ينهض كتاب «البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ» بدراسة مكون الخبر عند الجاحظ من خلال زاوية قرائية جديدة في مشروع محمد مشبال، تنتقل من بلاغة السمات أوالبلاغة الجمالية إلى بلاغة متضافرة تجمع بين بلاغتي الإمتاع والإقناع.

فقد ترسخ في اعتقاد الباحث بدءا من الكتاب أن سرد الجاحظ لايقوم على مجرد الإمتاع والإثارة الجمالية، ولكنه (أيضا أداة للتواصل تتغيا الإقناع وتبليغ المعرفة)[31]؛ وهو بذلك يشترك مع النصوص ذات المقصد الحجاجي. يقول الباحث: (إن النص السردي عند الجاحظ نمط بلاغي حجاجي يلتقي مع نصوص حجاجية صريحة مثل الخطبة

والموعظة في توجهها نحو المتلقي لتعديل فكره أو تحفيزه على الفعل، لكنه يشترك مع النصوص التخييلية في كونه خطابا سرديا يروي حكاية متخيلة غير قابلة للاختيار)[32]؛ فسرد «البخلاء» مثلا يشابك بين التصوير والحجاج في تكامل تام، يعمد فيه التصوير إلى إضفاء متعة آسرة على السرد، فيما يجنح الحجاج إلى (بناء الأخلاق وتوجيه الأفعال نحو قيم الجود والسخاء التي ميزت العرب)[33]. وأعتقد أن حضور التصوير والحجاج في سرد الجاحظ وغيره من السرود القديمة والحديثة يأتي في شكل سُلَّمي يكون فيه التصوير الإمتاعي في أعلى السلم، بينما ينحدر الحجاج إلى أسفل السلم؛ وبعبارة أخرى يغلِّف الإمتاع النص السردي فيما ينْدَّس الحجاج إلى باطنه. ذلك، لأن الحجاج في النص السردي يشكل بُعدا، وأنه في النصوص الحجاجية الصريحة يشكل مقصدا كما نبهت على ذلك روث آموسي.

وقد عزا محمد مشبال قراءة النص النثري في ضوء تداخل التصوير والحجاج إلى أمرين: (الأمر الأول هو ما شهدته البلاغة اليوم من إعادة تحديد لأسسها وجوهرها؛ فقد استعادت الأساس الحجاجي الذي فقدته في ظل سيطرة الأساس الأسلوبي على حقلها فترات طويلة من الزمن (...) الأمر الثاني هو التحول في النظر إلى النص النثري القديم؛ فقد نشأ وعي نقدي جديد لدى قراء نثر الجاحظ يوجب وصفه وتفسيره في سياق بلاغة أنواعه المخصوصة)[34]. إذ انفتحت القراءة البلاغية عند محمد مشبال على واجهتين حديثتين: واجهة غربية أعادت للبلاغة أصولها التداولية الحجاجية وقادت الباحث إلى ضبط المقاصد السردية لنثر الجاحظ في: بناء الأخلاق المجتمعية، والوصل إلى الإيمان عن طريق المعرفة العقلية، والتمييز بين الإنسان والحيوان، وتثقيف القارئ. وواجهة عربية تمتد بجذورها إلى أمين الخولي الذي دعا إلى بلاغة رحبة، تصل إلى طه حسين في استثماره لمفهوم التصوير، إبان

إشارته إلى قيام أسلوبية «البخلاء» على (التصوير الدقيق الذي لايقاس إليه تصوير)[35]. وعلى الرغم من التباس مفهوم التصوير عند طه حسين بالمناهج التقليدية وعدم انضباطه لإطار نظري متماسك إلا أن محمد مشبال لمس فيه إغناء لبلاغة النثر الجاحظي الذي (يدرأ عنها ما تعرضت له من تهوين بسبب ابتعادها عن معيار الشعر)[36]، ثم عمل على شحن هذا المفهوم بطاقة بلاغية تقويه وتمنحه نشاطه التحليلي.

يعرِّف محمد مشبال الخبر بقوله: (الخبر جنس سردي يتسم تارة بالهزل والفكاهة، وتارة بالغرابة الطبيعية؛ وهو نص واقعي بسيط يتوجه إلى المتلقي برسالة تثقيفية وخلقية)[37]. يحتاج هذا التعريف المركز إلى تفكيك لعناصره البانية؛ فاتسام الخبر بالتنويع يدل على تشكله في أنواع وأصناف، وواقعيته لا تعني المطابقة الحرفية للواقع، ولكنها واقعية احتمالية لا تنزع عنها صفة التخييل، وبساطته تحيل إلى الاختزال الكمي الدال؛ لأن ما يهم سارد الخبر هو (تقديم الحدث مجردا من تأثيراته في الشخصية أو ارتباطه بالزمن والمكان)[38]، أما رسالته التثقيفية فتتجلى في محمولها المضموني المتنوع بين الحكم والأخلاق وأفكار.

بين الخبر الذي يدرسه مشبال هنا والنادرة التي درسها سابقا تداخل وتخارج،يجليه الباحث بقوله: (النصوص التي نصنفها في دائرة النوادر تشترك مع الخبر في المكون السردي، واللغة النثرية العارية عن البديع، والواقعية، وقصر الحجم، والوظيفة الحجاجية، ولكنها تتميز عنه بمكون الهزل الذي يظل عنصرا حاسما في تحديد نوعها السردي المخصوص)[39].

ميز محمد مشبال بين نمطين من الخبر في المدونة الجاحظية موظفا معيار السؤال؛ فهناك أخبار تجيب عن سؤال واحد، تكتفي

الإجابة عنه بتقديم المعلومة من أجل تعليم المتلقي، وهناك أخبار تجيب عن أسئلة اجتماعية وثقافية وخلقية.

ويرى الباحث، مستفيدا من كبدي فاركا، أن ثمة سؤالا مؤطرا للنمطين معا، خصوصا عندما يرتبطان بالهزل، ويمكن صياغته على النحو الآتي: كيف ينبغي أن أتصرف لو أنني وضعت في موقف مماثل لمواقف بخلاء الجاحظ وشخصياته الأخرى؟

بيد أن ربط الهزل بالخبر يفضي به إلى الذوبان في النادرة كما نبه إلى ذلك محمد مشبال في نص سابق، كما سيجعل كتاب «البخلاء» في منطقة جذب بين الخبر والنادرة.

يصدر الجاحظ في كتاباته النظرية أوالأدبية عن تصور شامل للكون والحياة يمكن الاصطلاح عليه بـ «الرؤية البيانية» للعالم؛ وهي رؤية تؤول إلى مفهوم الاعتدال والتوسط الذي يبدأ إيديولوجيا بما يعتقده المعتزلة من «المنزلة بين المنزلتين»، ويتجلى صراحة في المنظور البلاغي الذي يدافع عنه في «البيان والتبيين»، كما يتخفى في بلاغة سرده بمختلف تنويعاته، حيث يجذِّر السرد، بقوته التأثيرية الإبداعية، التصور النظري والإيديولوجي على نحو يحوِّل السرد إلى (خطاب يجسد بوقائعه وشخصياته وإشاراته الخطاب البلاغي أو نظريته التي ثبت الجاحظ أصولها ومفهوماتها في سائر كتبه)[40]؛ فلا تكتفي البلاغة بتقوية التخاطب الفعال، ولكنها تكون أيضا (قواعد لبناء حياة الناس في المجتمع)[41]، بما يخلق ترابطا جوهريا بين البلاغة والحياة.

حاول محمد مشبال الكشف عن ذلك في أخبار الجاحظ، كما كشف عنه في نوادره ورسائله، فألفاها تدور حول أدواء البلاغة التي عبرت عنها الشخوص بالتزيد والتخاذل والعِيِّ والسلاطة. يقول الباحث

موضحا: (اضطلعت جملة من الأخبار أو النوادر بالصياغة السردية التخييلية لأدواء الخطاب وعلل البلاغة؛ أقام الجاحظ تناظرا بين سمات التزيد والتخاذل والعي والسلاطة في الخطاب وبين سمات الإنسان في سلوكه وأخلاقه الاجتماعية المنافية لمقياس الاعتدال الذي طالبت به البلاغة التي لم تكن جهازا لضبط آليات الخطاب فقط، بل كانت أيضا جهازا لضبط سلوك الإنسان وتعامله في الحياة)[42].

3 - نزهة الرسالة وبلاغة الإقناع:

يعود اتصال محمد مشبال بنوع الرسالة في نثر الجاحظ إلى بداية تسعينيات القرن الماضي، عندما نشر مقالة في مجلة فصول المصرية، بعنوان «سمة التضمين التهكمي في رسالة التربيع والتدوير: اقتراح منهجي»[43]، مثيرا إشكال قراءة هذا النوع النثري، ومتوقفا عند تحليل رسالة «التربيع والتدوير» التي سخر فيها الجاحظ من أحمد ابن عبدالوهاب؛ إذ استخلص ،في الواقع، تضمينين: أحدهما نقدي تستضمره الرسالة من خلال بعدها «الميتاخِطابي» الذي تومئ فيه إلى مقومات البيان النظرية عند الجاحظ، وثانيهما تهكمي أسلوبي اتخذ صيغا صريحة أو شبه صريحة أو خفية يستثمر فيها متناصات نصية أو ثقافية في سياق هزلي باعث على التهكم.

وعلى الرغم من أهمية التحليل وقيمة الخلاصات في المقالة، إلا أنها ظلت بعيدة عن التناول الحجاجي عكس ما سنجد ذلك في كتاب الباحث الصادر سنة 2015 بعنوان «خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية»[44]؛ والذي يجهر فيه العنوان بمقاربة تتناول الجانب الحجاجي[45] بدل الجانب الجمالي أو السماتي. ويعي مشبال بهذا الأمر، فيوضحه في مقدمة كتابه بالقول: (لقد سعيت في هذا الكتاب إلى توسيع تصوري للبلاغة ليشمل البعد

التداولي الحجاجي إلى جانب البعد الجمالي الذي كان قد استأثر باهتمامي في الدراسات السابقة (...) وقد تبين لي في اتصال رابع مع أدب الجاحظ من خلال الكتاب الحاضر «خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية» أن إسقاط البعد الحجاجي في أي مقاربة نصية لنثر الجاحظ عامة ورسائله خاصة يفضي بالمحلل إلى الطريق المسدود)[46].

وسيدرج هذا الكتاب رسالة «التربيع والتدوير» مع رسائل عديدة أخرى، مما سيرشحه ليكون أول كتاب عربي حديث يتناول عددا كبيرا من رسائل الجاحظ، قارئا إياها من المنظور الحجاجي.

وكما عودنا محمد مشبال في تلقيه النقدي للنظريات الغربية، فإنه لم يقبل بنسخ النماذج النظرية الحجاجية كما هي، بقدر ما اهتم بالمساحة الفاصلة بين مبادئ النظرية الحجاجية والمطالب الخاصة للنصوص؛ وهي (مساحة للاجتهاد والإبداع وإعادة تركيب المعطيات النظرية لتتوافق مع استراتيجيات وأهداف التحليل)[47]. وفي خضم هذه المساحة الاجتهادية خصص القسم الأول الموسوم بـ«بلاغة النص النثري العربي القديم: المكونات والمبادئ» لإبراز الأصول الكبرى التي تقوم عليها القراءة الحجاجية عنده، وهي ثلاثة: الإطار النوعي، والحوارية، والحجج. وإذا كانت الحجج أس القراءة الحجاجية، فإن الإطار النوعي والحوارية قد وسعا من دائرة النظرية البلاغية التي لم تنشغل بهما بشكل صريح. وانطلاقا من هذا (التوسيع يصبح التحليل البلاغي وصفا للنص في كليته وليس لجزئية من جزئياته)[48]. وكنت آمل أن يخصص الباحث حيزا لتناول البناء المعماري للرسالة، والذي يشكل وجها حجاجيا نوعيا في بلاغة الرسالة.

على أن إبراز هذه الأصول جاء في ضوء المقاربة النصية لرسائل الجاحظ، وليس في نطاق كم نظري يحتطب من هنا ومن هناك. ولذلك

أظهر محمد مشبال في هذا القسم الطابع المتداخل للرسالة الجاحظية، مما جعله يقسم رسائل الجاحظ إلى صنفين: الأول تتحول فيه الرسالة إلى أنواع خطابية أخرى، فتكون مجرد إطار خارجي، والثاني تستدعي فيه أنواعا خطابية مختلفة تتحاور معها. ولعل هذا التداخل في النوع الواحد سيصعب من المأمورية التحليلية عند الباحث، بحيث سيجد نفسه أمام الرسالة - المفاخرة،والرسالة-المناظرة، والرسالة-الوصية.

وسينصرف جهد الباحث في القسمين المواليين إلى مقاربة المحمولات الدلالية للرسائل الجاحظية من وجهة بلاغية حجاجية، يضيء من خلالها جملة من القضايا كالأخلاق والهوية والسياسة والإنسان والمرأة والأقليات والحيوان والمكان. وكانت غايته من كل ذلك (بيان أن التحليل البلاغي ليس استصفاء للتقنيات من النصوص فقط، ولكنه كشف عن تفاعل هذه التقنيات بموضوعات النص وقضاياه، واشتغالها في نص ذي أبعاد إنسانية)[49].

وهكذا، فقد عالج القسم الأول «البلاغة والأخلاق»، مبرزا اتساع مفهوم الأخلاق عند الجاحظ؛ فهي تدل على الفضائل تارة، وعلى الآداب السياسة تارة أخرى. وتأتي المقاربة البلاغية لتظهر أهمية الأخلاق في المشروع الإقناعي لرسائل الجاحظ، كما تُجَلي أنه مجرد تعلة لقراءة طبائع الإنسان الصالح أو الفاسد، والمركزي أو الهامشي.

وكما سُخرت البلاغةالحجاجية لبناء نظام قيمي أخلاقي يروم الإشادة بالفضائل أو تعديلها في نفوس أهل السلطة أو الرعية، فقد جاء القسم الثالث ليتناول مسألة لا تقل أهمية عن سابقتها؛ وهي مسألة «البلاغة والهوية» والتي أدلفت بالجاحظ المعتزلي العقلاني إلى نضال آخر يتأسس على التعايش وقبول الآخر وعدم الإقصاء، ويتعلق بالدفاع

البلاغي عن وجود الهويات الأخرى، كهوية السود في رسالة «فخر السودان على البيضان»، وهوية الترك في رسالة «مناقب الترك». أما ذمه للنصارى في رسالة «الرد على النصارى»، فكانت من باب الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية؛ لأن هذه «الرسالة تظل خطابا يروم صيانة العقيدة الإسلامية باعتبارها مكونا من مكونات الهوية الثقافية للعرب»[50]. ولربما دفعت مثل هذه القضايا وغيرها في كتب الجاحظ أندريه ميكيل لأن يقول: (إن الجاحظ هو أول من طرح قضية الإنسان في العالم)[51].

لم تنحصر بلاغة الجاحظ عند هوية الإنسان، لكنها امتدت لتتناول هوية المكان من خلال رسالته «الأوطان والبلدان». ولم تصرف المعلومات الجغرافية محمد مشبال عن قراءة الرسالة ضمن أفق بلاغي سيكشف له عن دلالات جديدة في هذه الرسالة عندما سيضعها في سياقها التواصلي والنوعي، بحيث سيغدو وصف الأمكنة متجاوزا للغاية العلمية إلى صياغة غاية حجاجية تتصل بتقييم البلدان وتمييز بعضها عن بعض. ولذلك يقول مشبال عن هذا نص الرسالة: (فإن أي قراءة له ينبغي أن تراعي هذا الأفق النوعي ومن ثم ينبغي أن تنخرط في المقام الأول في تحليل بلاغته وحجاجيته بدل تحليل معرفته)[52]. ويمكن أن نعد رسالة «مناقب خلفاء بني العباس»[53]، التي لم ترد في كتاب «رسائل الجاحظ» معتمَد محمد مشبال، كشفا لهوية الدولة العباسية وانتصارا لها ولمذهبه الاعتزالي. وعرض فيها بطريقة زمنية تعاقبية لمناقب خمسة خلفاء عباسيين معتزليين، مستثمرا التقنيات البلاغية التي تعتمد على الترجيح والاختيار والمدح والذم المبطن.

تلبست طريقة الجاحظ في التعبير والتفكير معا بالتناول البلاغي والمنهاجي لمحمد مشبال، فراح يحلل رسائل الجاحظ وعينه على صياغة

أسئلة كبرى تؤطر مشروعه الثري في بلاغة الخطاب النثري،متجاوزة دائـرة «مـاذا يـوجد؟» الوصفية إلـى أفـق «كيف يمكن؟» التحليلية المنافذة للتعالقات المعرفية والمنهاجية بين البلاغة والنص، نحو[54]: كيف يمكن مقاربة نص في كليته من منظور بلاغي دون الانزلاق إلى تحليل تفتيتي يقطِّع أوصال النص ويزهق روحه ويهدم وحدته؟ وكيف يمكن أن يتجاوز التحليل البلاغي البنيات البلاغية الجزئية الصغرى إلى البنيات البلاغية الكبرى من قبيل السرد والوصف؟ وكيف يمكن تحليل الوجوه الأسلوبية تحليلا بلاغيا وظيفيا موصولا بسياقاته الأوسع؟ وكيف يمكن تحليل التفاعل بين النص باعتباره خطابا بليغا وبين ما ينتظمه من خطابات كالخطاب العلمي والخطاب الأخلاقي والخطاب التاريخي والخطاب السياسي والخطاب الكلامي؟

تركيب إشكالي:

استطاع الباحث محمد مشبال أن يرسم لنفسه مسارا بلاغيا جريئا على مستوى الوطن العربي. فلم يحصر مجهوده في البلاغة النظرية أو المدرسية، وإنما اتجه إلى المقصد المركزي من المعرفة البلاغية، والمتجلي في تحليل النصوص والخطابات المختلفة.

وبذلك، عكف على التشريح البلاغي لنثر الجاحظ، مستعينا ببلاغة رحبة تراعي مبادئ النوع الأدبي وخصوصياته التي لا تطابق بين بلاغته النثرية وبلاغة الشعر، كما لا تنغلق على نفسها في الشبكات المصطلحية للبلاغة التقليدية.

والواقع، أنه بقدر ما تعمق محمد مشبال في إضاءة المعتمات البلاغية لنثر الجاحظ الذي سماه ابن دريد «نزه القلوب»، أفاده الجاحظ نفسه في تجديد الرؤية البلاغية التي يصدر عنها في دراسته؛ فقد انتقل من بلاغة السمات في نزهة/نوع النادرة إلى بلاغة يتضافر

فيها الإمتاع والإقناع. ولم يتوقف عند هذا القدر، ولكنه تحول إلى بلاغة الحِجاج أو الإقناع في منافذته لنزهة/ نوع الرسالة.

كما أننا لم نسلم من هذه العدوى، فوجدنا أنفسنا متفاعلين مع نصوص الجاحظ التراثية من جهة، والمقاربة البلاغية المعاصرة للباحث محمد مشبال من جهة أخرى، مما أسفر عن نشوء أسئلة وإشكالات من شأنها أن تعمق الحوار حول البلاغة والنص النثري عموما، من قبيل:

- كيف يمكننا الانتقال من الخصائص البلاغية للنادرة والخبر والرسالة عند الجاحظ إلى الخصائص العامة لهذه الأنواع التي ستعرف تطورا ملحوظا فيما بعد؟
- كيف يمكن للبحث أن يتأسس على أرضية صلبة تروم دراسة بلاغة النوع، علما أن هذه الأنواع الخِطابية عند الجاحظ متداخلة وغير صافية؟
- ألا يمكن للبحث أن يتحول من بلاغة النوع الصافي إلى بلاغة النوع الهجين؟
- وألا يمكن أن تكون بلاغة النوع الهجين هي ما اصطلح عليه محمد العمري بالمدخل البلاغي الذي يتلون بتلون النصوص؟
- ألا يمكن أن يكون توسيع القراءة البلاغية عند الباحث بإيعاز من تطورات النظرية البلاغية أكثر من التفاعل مع نثر الجاحظ؟
- كيف يمكننا الاحتكام إلى البلاغة الجاحظية في بعديها الصريح والضمني لضبط سمات الأنواع الخطابية الإبداعية، دون مساءلة المسافة بين «التنظير» والمنجز النصي عند البلاغي المبدع؟
- وألا يمكن أن يكون «التنظير البلاغي» عند الجاحظ تسييجا لفعل القراءة، ونوعا من الاستراتيجية المغلقة التي لا تؤمن بذات القارئ

عندما تغدو مثلما نلحظه اليوم من تقديم المنتوج مرفقا بطريقة الاستعمال؟

- وأخيرا، كيف يمكن أن نستفيد من بلاغة النثر المستصفاة من الجاحظ في بناء بلاغة الرواية والقصة؟ ومن بلاغة الخبر والنادرة في بناء بلاغة القصة القصيرة جدا التي لا تزال تثيرا جدلا نقديا متشعبا؟

الهوامش

(1) خاص الخاص: أبو منصور الثعالبي، قدّم له: حسن الأمين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، ص 67. أخذ محمد مشبال عن حسن السندوبي عبارة «منتزهات القلوب». وقد تحققت من هذه العبارة بالعودة إلى كتاب «خاص الخاص» فوجدت أن الصواب هو «نزه القلوب» التي يقصد بها ابن دريد كتب الجاحظ وأشعار المحدثين. ووجدت في تحقيق آخر عبارة «منتزهات القلوب» لكنها متصلة بكتب أخرى غير كتب الجاحظ.

(2) أفريقيا الشرق، المغرب، ط 1، 2007.

(3) م،ن، ص 105.

(4) البلاغة والأصول، ص 105.

(5) مطبعة المعارف الجديدة، البيضاء، ط 1، 1993.

(6) فحص عنده الأثر الجمالي من خلال كتابي «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

(7) ناقش عنده المكون الصوتي في تحليل النص الشعري.

(8) تناول كتابه «الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي».

(9) تناول كتابه «الشعرية العربية: الأنواع والأغراض».

(10) تدارس كتابه «البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص»، والذي ترجمه محمد العمري.

(11) البلاغة والأصول، ص 38 .

(12) م،ن، ص 23.

(13) بلاغة النادرة، دار جسور للطباعة والنشر والتوزيع، طنجة، ط 1، 2001، ص 5.

(14) م،ن، ص 6.

(15) م،ن، ص 6.

(16) م،ن، ص 6.

(17) البلاغة والأدب؛ من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين للنشر، القاهرة، ط 1، 2010، ص 132.

(18) البلاغة والسرد؛ جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، ط 1، 2010، ص 5.

(19) بلاغة النادرة، ص 5.

(20) البلاغة والسرد، ص 5.

(21) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1965، ص 170.

(22) معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993، 4/1517.

(23) البلاغة والسرد، ص 6.

(24) م،ن، ص 165.

(25) حوار مع الدكتور محمد مشبال؛ نحو بلاغة رحبة، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ملف العدد: التداوليات وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، عدد 5، 2014، ص 125.

(26) بلاغة النادرة، ص 12.

(27) م،ن، ص 10.

(28) البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الخطاب: محمد مشبال، دار العين، القاهرة، ط 1، 2010، ص 126.

(29) بلاغة النادرة، ص 34.

(30) م،ن، ص 34.

(31) البلاغة والسرد، ص 13.

(32) م،ن، ص 16.

(33) م،ن، ص 14.

(34) م،ن، ص 146.

(35) من حديث الشعر والنثر: طه حسين، دار المعارف، مصر، 1969، ص 66.

(36) البلاغة والسرد، ص 122.

(37) م،ن، ص 10.

(38) م،ن، ص 11.

(39) م،ن، ص 9.

(40) م،ن، ص 65.

(41) م،ن، ص 65.

(42) م،ن، ص 86.

(43) محور: قراءات تراثية، المجلد 13، العدد 3، خريف 1994.

(44) عن دار كنوز المعرفة، الأردن.

(45) سيتزايد الاهتمام القوي لمحمد مشبال بالنظرية الحجاجية وقيمتها في إنتاج معرفة بلاغية ونقدية بالنصوص في سنة 2013 على وجه الخصوص، عندما سيصدر ترجمته، بالاشتراك مع عبد الواحد التهامي العلمي، لكتاب «الحجاج في التواصل»، لفليببروطون، المركز القومي للترجمة بمصر، العدد 2338، ط 1، 2013. وسيشرف على الكتاب الجماعي حول «بلاغة النص النثري: مقاربات بلاغية حجاجية»، دار العين، ط 1، 2013.

(46) م،ن، ص 6.

(47) م،ن، ص 6.

(48) م،ن، ص 7.

(49) م،ن، ص 311.

(50) م،ن، ص 221.

(51) منقول عن المرجع السابق، ص 225.

(52) م،ن، ص 243.

(53) رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس، دراسة وتحقيق: محمد محمود الدروبي، الرسالة 187، الحولية 22، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، 2002.

(54) م،ن، ص 311.

تدفق دلالة المفردة النبوية بتعدد الروايات في غريب الحديث من خلال بغية الرائد فيما ورد في حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض

مولاي علي سليماني(*)

توطئـــة:

يعتبر الحديث الشريف الركن الأقوم واللازم الأعظم بعد القرآن الكريم، لكل دراسة لغوية أو أدبية رصينة، فثمة معين اللغة الذي لا ينضب وعينها التي لا تجف.

ارتأينا أن نخص بالمدارسة والمباحثة ذلك الثراء اللغوي في غريب الحديث الشريف من خلال جهود القاضي عياض رحمه الله في «بغية الرائد» حيث تناولنا فيه بالدرس والتحليل والشرح والتعليل لغة هذا الحديث، شرحا لغريبه، وفكا لعويصه، وبيانا لفوائده البلاغية والنحوية والفقهية وتحريرا للقول في لغته العربية.

وغير خاف خصوصية هذا الكتاب، فهو فضلا عن كونه في الحديث إلا أن القاضي عياض أبان عن مكنة واقتدار كبيرين من خلال مناقشاته اللغوية لغريب الحديث، وقام بعرض الروايات المختلفة، فقبل منها ماقبل ورد منها ما رد، بناء على خبرته الحديثية واستنادا إلى آراء العلماء المتقدمين.

(*) أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب بني ملال - المملكة المغربية.

ولقد أشار القاضي عياض في مقدمة بغيته إلى غزارة الجانب اللغوي في هذا الحديث لاختلاف النقلة، يقول «ورأينا أن نبتدئ بالحديث سياق متنه مع اختلاف ألفاظ نقلته، وزيادة بعضهم على بعض في سرده، ثم نذكر بعد ذلك علة إسناده، وشرح غريبه وعويص إعرابه، ومعنى فصوله وما يتعلق به من فقه وتنقدح فيه من فائدة»[1].

لذلك وسمنا هذه الورقة بـ «**تدفق الدلالة في المفردة النبوية في غريب الحديث بتعدد الروايات من خلال بغية الرائد فيما ورد في حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض**».

سعينا من خلالها إلى استخراج هذا الثراء اللغوي من خلال تدفق الدلالات القائم على الجمع بين معاني المفردة المثبتة في النص الحديثي والتي رجحها القاضي مقارنة مع معادلاتها الواردة في روايات أخرى، إذ اعتمد الرواية الكاملة والسياق الحسن ، ونبه على موضع الخلاف فيها، وبين الفوائد المستجلبة والنكات المعتصرة من اللفظ الأصل، أو من معادله.

لذلك سنشتغل على المحاور التالية:

- القاضي عياض: منهجه في البغية ومكانته العلمية.
- منهج القاضي عياض في الترجيح اللغوي.
- تدفق الدلالة في المفردة النبوية باختلاف روايات الحديث.

1 - القاضي عياض: منهجه في البغية ومكانته العلمية:

قبل الحديث عن منهج القاضي عياض في ترجيح المفردات واختيارها، ارتأينا أن نمهد لذلك بعرض منهجه العام في تأليف الكتاب، ولعل في ذلك مزيد فائدة، يقول: «وطرقنا في هذا الحديث كثيرة متشعبة، جئنا بعضها عن أئمة شيوخنا، وبعضهم يزيد على

بعض، وفي متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية وأحسنها سياقا، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها، إيثارا للاختصار والائتلاف ، واستظهارا بمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبهنا على موضع الخلاف فيها مما يفيد فائدة، أو يزيده فقرة شاردة، وثم زيادات من غير الطرق التي ذكرناها جلبنا بعضها ونبهنا على ما أمكن منها، والله ولي التوفيق»[2].

لا يخفى علينا من خلال هذا الفرش المنهجي الذي جاد به علينا القاضي عياض، مدى دقته في التأليف، وحرصه على استجلاب الأنفع والأفيد، لما في منهجه من صرامة المحدثين، لذلك كان من فضل القاضي على هذا الحديث تمشيطه له من الخارج أولا ثم بعد ذلك من الداخل.

قصدنا من ذلك أن القاضي عياض سلك منهج علماء الحديث - وهو المحدث طبعا - في تمحيص السند بما يستلزمه من صحة واعتماده منهج المحدثين في الجرح والتعديل و ومعرفة الرجال، قبل الانكباب على المتن مدارسة ومباحثة.

إن الترجيح في الروايات يقوم عند القاضي عياض على:

- المقارنة بينها للكشف عن أكملها وأحسنها سياقا، من خلال تسييقه للمعاني، وذلك باستحضار السياق العام الذي ورد فيه المعنى،
- الترجيح في المتن راجع إلى استيفائه لما يقنع القاضي عياض من حيث لغته وبيانه وفتنة بديعه، فهو أميل إلى اختيار السند الصحيح مع استيفائه للعناصر الفنية للبيان النبوي،
- التنبيه على الفروق بين الروايات وإيثاره الرواية التي تفضل غيرها بفائدة وتزيد عليها بشاردة
- الزيادة في إيضاح معنى الحديث بما لم يسبق إليه.

ويذكر لنا نماذج الروايات التي أوردها لما فيها من غرائب وزيادات، يقول «وبعضهم يزيد على بعض، ولبعضهم زيادة من غير هذه الطرق، فأكثرها غرائب وزيادات ما حكاه ابن الأنباري من رواية ابن الهيثم بن عدي بن هشام بن عروة عن عائشة»[3] وفضلا عن ذلك «يكثر من الروايات إمعانا في التوثيق والدقة حتى إذا حل النص بأدواته وصورته وروايته كان واثقا من عمله»[4].

إن قصد القاضي من إيراد مثل هذه الرواية كونها تقدم له مادة ولودا – قابلة للشرح والتأويل، والقراءة، والمقارنة، والنقد – لم يجدها في غيرها من الروايات، وذلك دليل على رغبة القاضي عياض في تقصي دلالات الحديث عامة واللغوية خاصة، إنه لا يغادر فائدة إلا أوردها ولا إضاءة أو تنويرا إلا وجاء به. ومن دقة القاضي عياض المتناهية ما نجده «عند ذكره لبعض الكتب التي أخذ عنها، فنقله لرواية وردت في صحيح البخاري لا يورده مطلقا غر مقيد بتوثيق، أي أنه ينص على أخذه من إحدى روايات البخاري، ويحدد خط النسخة التي أخذ عنها شيوخه الذين أجازوه، فيقول وهكذا وجدتها في أصل الأصيلي أبي محمد بخطه داخل الكتاب»[5].

كل هذه الدقة في تحديد النسخة وتحديد الخط الذي كتبت به،دليل على تحري القاضي عياض ودقته في منهجه، فسلامة المتن من سلامة السند، وسلامة القراءة والتأويل من سلامتهما.

ومن مظاهر قوة هذا الرجل جمعه لما تفرق في غيره من الشراح، فقد أبان عن مكنة قوية في النقد لا تتيسر إلا لموسوعي مثله، وجمع مناهج عدة قل ما تجتمع عند شارح، نذكر منها منهج المحدثين، ومنهج الفقهاء، ومنهج اللغويين، ومنهج النحاة ومنهج الأدباء والبلاغيين.

وعلى ما ذكرناه من استرفاد القاضي عياض لمناهج عدة في كتابه هذا، إلا أنه يمكننا القول، وباطمئنان، إنَّ قرن النقد لغة وأدبا وبلاغة قد بدا طالعا، مما يجعلنا نقول بأنه كتاب في النقد وإن كان منطلقه غريب الحديث، ويؤكد هذا رأي الدكتور علال الغازي في الكتاب حين قال «والبغية عندي... خصوصا في الجانب اللغوي الأدبي والبلاغي هي خير من يمثل النقد في المغرب العربي في طول وعرض العالم الإسلامي»[6].

ولعبدالله الطيب رأي أكثر جرأة مما أوردناه، يبين من خلال مكانة القاضي عياض قياسا لمن كتبت لهم شهرة العلم، يقول فيه: «للقاضي عياض، رحمه الله ورضي عنه، رسالة من الروائع في باب النقد كان ينبغي من أجلها وحدها أن يذكر بين كبار النقاد، كما ذكر القاضي عبدالعزيز الجرجاني مثلا، ومن دونه في مرتبة العلمين كبار النقاد من أجل رسالته بين المتنبي وخصومه، وليست رسالة القاضي عياض دونها في مرتبة النقد، بل لا أشك في أنها أعلى منها مرتبة، والشهرة حظوظ، ولقد نفق الجرجانيان الكبير والصغير في عصرنا هذا نفاقا مدهشا، وأشار الثعالبي في فصله عن المتنبي في يتيمة الدهر إلى وساطة القاضي الجرجاني بنوع لا يخلو من روح السخرية والله تعالى أعلم... وكان حق القاضي عياض أن يعتبر من كبار النقاد من أجل كونه من كبار علماء الحديث»[7].

2 - منهج القاضي عياض في الترجيح اللغوي:

إن قارئ البغية يدرك منذ صفحاته الأولى أن القاضي عياض قد وضع مفاتيح منهجه بيد القارئ، «ولقد عودنا عياض مع جميع مؤلفاته وضع هذه المفاتيح في يد القارئ»[8] وبين ما حواه الكتاب من فرائد وفوائد، وما اشتمل عليه من معان عور أصح بصرا، مركزا على بيان الغريب فيه، مع مكابدة شرحه وبيانه.

ولم يقتصر القاضي عياض بإبراز نكته اللغوية فحسب ، بل كثرت آليات شرحه وبيانه، فنجده تارة ناقدا وأخرى بلاغيا وثالثة نحويا ورابعة فقيها...

وليس ذلك غريبا على عالم محدث مثل القاضي عياض رحمه الله، واستكمالا لبيان منهجه نورد قوله: «هنا انتهى بنا القول فيما حررناه من الكلام في هذا الحديث، وقد احتوى على جمل من فنون العلم حسان، وفقر من ضروب الأدب غراب، وخرجنا فيه نحو عشرين مسألة من الفقه، ومثلها في العربية، مع كثرة ما ذكرنا فيه من كلام الشارحين، وأصحاب المعاني وترجيح الصواب، وتوليد كثير مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمي، وانتهى إليه ذكري، واقتصرت في أكثر ما ذكرته من اللغات على رفعها من مقانع هذا العلم، واستغنيت بذلك عن الشاهد إلا في النادر حرصا على الاختصار، واكتفاء بقول أولئك القدوة...وذكرت الشواهد في المعاني تمهيدا لها، وإظهارا لوجوهها، وحجة على صحة تأويلها، لاشتراك الخواطر فيها، وتوارد العقول عليها»[9].

إن القاضي عياض يجمل لنا أهم عناصر منهجه في الاشتغال على هذا الحديث، وخاصة في ترجيحه الرأي الصواب، نجمل ذلك في الآتي:

- إيراده لكلام الشراح وترجيحه للصواب، وفي هذا دليل قوي على مكنة القاضي واقتداره على تمييز الغث من السمين،
- قدرته الجبارة على توليد المعاني، توليد إبداع لا اتباع، من غير أن ينسى تقييد كلامه بقوله «مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمي، وانتهى إليه ذكري» احترازا من الإطلاق، وادعاء الإحاطة،
- رفعه الرأي لصاحبه صوابا كان أو خطأ، وحرصه على إرجاع الفضل لأصحابه،
- استحضاره القارئ أثناء التأليف، لذلك قلل من إيراد الشواهد تخفيفا عليه وطلبا للاختصار، فليس يورد شاهدا إلا نادرا ولضرورة،

3 - تدفق الدلالة في المفردة النبوية باختلاف روايات الحديث:

ابتغينا من هذا المحور بيان تدفق الدلالة في المفردة النبوية من خلال جهود القاضي عياض، وذلك وفقا لما قام عليه منهجه في الشرح والبيان من جمع وعرض لمختلف الروايات التي ورد بها الحديث، لذلك بينا هذا الفيض الدلالي في غريب أقوال النسوة الواردة في الحديث، وعرضنا لذلك من خلال اللفظ وبديله في غريب قول كل واحدة.

غريب قول الأولى: (لحم جمل غث)

غث = قحر

يستدل القاضي بالشعر بيانا لمعنى الغث الذي هو المهزول، قائلا: «يقول الشاعر:

«**فأمست قريش قد أغث سمينها**»

والغث أيضا الفاسد من الطعام، ومنه الغثيثة، وهي المادة التي تجتمع في الجرح، ويقال غث الطعام يغث وأغث.

والأصح أن يكون هنا الهزيل لقولها بعد: لا سمين فينتقى.

ومن رواه (قحر) فمعناه هرم قليل اللحم... يقال جمل قحر وقحارية قال ابن الأنباري تريد لحم جمل مهزول(10).

إن القاضي سلك منهجا دقيقا مكنه من اختيار أنسب الألفاظ للحديث وأكثرها فيضا وتدفقا في الدلالة، من ذلك:

- استدلاله بالشعر، استقطارا لمعنى اللفظ كما ورد في الاستعمال العربي الفصيح؛
- عرض دلالات اللفظ وترجيح المعنى الأنسب للسياق بما يخدم المعنى الخاص؛
- تلخيص الدلالات، والاستشهاد بأهل اللغة كابن الأنباري وابن دريد؛
- ترجيح القاضي رحمه الله الرأي الصائب اعتمادا على الاختيار،

يقول: «والأصح أن يكون هنا الهزيل لقولها بعد: لا سمين فينتقى» وهذا دليل قوي على أن القاضي لا ينظر في دلالات اللفظ من خلال المعاجم معزولة عن السياق بل إنه يقلب دلالات الألفاظ ناظرا في علاقاتها وتراسل معانيها، تأكيدا لعلاقة اللاحق بالسابق.

ولقد عدل القاضي في شرح قول الأولى (ولا سمين فينتقى)عن المعنى الظاهر - فينتقى معناها يختار - قائلا: «أي ليس بسمين له نقى- أي مخ - فيخرج... وبيان معنى ما وقع هاهنا أن يقال: ليس بسمين له نقى فيطلب لأجل نقيه، فلذلك قال (ينتقى) أي يطلب طيبه لأجل ما فيه من النقى»[11].

وقد تحقق التوازي التركيبي والصوتي بين الفاصلتين، فجعل «لا» بإزاء مثيلتها و«سهل» بإزاء «سمين»، و«يرتقى» بإزاء «ينتقى».

وأما قولها: (ولا لي عنده معول) فقد وردت برواية ثانية هي (ولا له عندي معول) ولترجيح الرواية الأنسب والأقرب عمد القاضي عياض إلى المدخل المعجمي قائلا: «وأصله من عال الرجل عياله عولا أي كفاهم وأصله من العول الذي هو الثقل: يقال: عَوِّلْ عليَّ: أي حَمِّلني من ثقل شؤونك ما تشاء.

وأما من رواه: (ولا له عندي معول) فإما أن يكون بمعنى الأول، ويكون له بمعنى عليه، أو يكون بضده، أي: أنه لا يشتغل بها ولا يلجأ إلى شيء من أمورها تهاونا بها وسوء عشرة لها»[12].

إن منهج القاضي في اختيار أوثق الروايات هو اعتبارها الأصل في الحديث، حيث يوردها الأولى، ثم بعد ذلك يورد الروايات المخالفة، وهذا معناه أن الرواية الأنسب والأسلم في نظره هي قولها: (ولا لي عنده معول) وقد سلك لتأكيد رأيه إلى:

- التأصيل اللغوي لمعنى كلمة «معول» باحثا في أصلها ومشتقاتها،
- تثبيته الرواية التي تخدم السياق الخاص،
- نقضه الرواية الثانية من خلال النتيجة التي خلص إليها، وهي أنها لا تعول عليه في شيء من أمورها.

وأرى أن لا حاجة لتأويل الرواية الثانية (ولا له عندي معول) بخلاف ظاهرها، وأن نجعل له بمعنى عليه كما ذهب إلى ذلك القاضي عياض لتتوازى دلاليا مع الرواية الأولى، وهو في الحقيقة تأويل لا ينسجم مع المعنى المقصود لأن المرأة أغرقت في ذكر نقائص زوجها وسوءاته، ثم إنها هي التي تصف زوجها وليس هو الذي يصفها، لذلك ناسب المقام أن يكون محور الكلام ضمير المتكلم (ولا لي عنده) وليس ضمير الغائب (ولا له عندي).

غريب قول الثانية: (لا أبث خبره)

أبث= أنث

فقولها : لا أبث خبره بمعنى لا أنشر وأذكر ومن رواه أنث فمن هذا، يقال بث الخبر ونثه بمعنى، إلا أن النون أكثر ما يستعمل في الشر[13].

فالملاحظ أن البث والنث جعلا بمعنى واحد في بداية الشاهد، إلا أننا وجدنا القاضي رحمه الله خص النث بالشر لكثرة استعمال النون لذلك، ويكون المعنى بناء على ذلك أن المرأة إن كانت لا تريد إفشاء عيوب زوجها، فقولها أَبُث أنسب للمعنى ولقصدها، وإن كان العكس فالأولى أنُث.

وفي معنى قولها (إن أذكره أذكر عجره وبجره) قول طويل، قال الأصمعي إنها تستعمل في المعايب أيضا. أما القاضي عياض فقد جمع عدة آراء في معنى العجر والبجر ، فيها قول الأصمعي، وابن الأعرابي وثعلب وما روي عن سيدنا علي وقول أحمد بن عبيد والهروي وابن

السكيت ثم المبرد، وأبو سعيد النيسابوري الذي جمع المعاني المختلفة في قوله: إنما عنت أن زوجها كثير العيوب متعقد النفس[14].

إن القاضي أخر رأي أبي سعيد النيسابوري لأنه الأقرب إلى رأيه، أو لأنه الرأي الجامع لما أورده اللغويون من غير تفصيل.

ثم يمضي القاضي فيقسم الآراء السالفة إلى ثلاث مجموعات:

فعلى مذهب ابن الأعرابي وثعلب والأصمعي، أي إني إن ذكرته ذكرت همومي وأحزاني به، وعلى مذهب الأصمعي الآخر والهروي والنيسابوري، أي إن ذكرته ذكرت معايبه وقبائحه، وعلى مذهب ابن السكيت ذكرت أسراره، وبعضها قريب من بعض، قال الخطابي: أرادت عيوبه الباطنة، وأسراره الكامنة[15].

لقد سعى القاضي من خلال عرضه للآراء أعلاه إلى تحقيق مقصدين:

الأول: عرض آراء اللغويين وإظهار ما بين أقوالهم من التقارب، فكلها تتكامل ما لم ينهض دليل معارض في أحدها، كما أنه لا يقدح في رأي أحد من اللغويين والعلماء الذين أورد آراءهم،

الثاني: انفراد القاضي برأي خاص مع إقامة الدليل عليه، وهو ترجيحه رواية لا أبث، لقوله «فأرى – والله أعلم – أنه كان مستور الظاهر رديء الباطن، فلم ترد هتك ستره ... ولكنها وإن لوحت وما صرحت، وأجملت وما شرحت، فقد بثت، وإن قالت لا أبث، إذ لابد للمصدور أن ينفث.

فلو هتكت حجاب الصوت عن عورات ما عرفت منه، لكان الأرجح أن تقول: لا أنث بدل لا أبث»[16].

ولنا أن نقول إنها لو لم ترد ذكر سوءاته، وإظهار عوراتهما قالت : لا أبث خبره، وما أردفته بقولها: إن أذكره أذكر عجره وبجره، إنها تلوح

وتعرض بكونه ذا عجر وذا بجر إلا أنها كفت عن ذكرها، وغير خاف أن الخبر أمر كائن وواقع في الماضي في عالم الشهادة المعلوم، عكس النبأ والذي ينحصر في عالم الغيب . فعجره وبجره تحققت ولا سبيل إلى إنكارها، ويكفي من تعريضها بزوجها التشهير بعيوبه.

غريب قول السادسة: (إذا أكل لف)

لف = رف = اقتف = استف = اشتف

عرض القاضي عياض قول السادسة (إذا أكل لف) وهو الراجح عنده قياسا إلى البدائل أعلاه والتي روي بها الحديث، وهي كلها متقاربة في المعنى وليست مترادفة البتة، جاء في البغية ما يلي: «قولها إذا أكل لفَ اللف في الأكل الإكثار منه، والتخليط من صنوفه، واستقصاؤه حتى لا يبقى منه شيء.

ومن روى «رف» فمعناه الإكثار من الأكل، حكاه الهروي، ويقال منه رف يرف، ومن روى «اقتف» فمعناه قريب من هذا، قال صاحب العين القفان الجماعة، وقفان كل شيء جماعته واستقصاؤه»[17].

ويضيف القاضي فعلين آخرين هما: الاشتفاف والاستفاف، يقول «والاشتفاف في الشرب استقصاء ما في الإناء، مأخوذ من الشفافة وهي البقية تبقى في الإناء، فإذا شربها صاحبها قيل اشتفها. ومن رواه «استف» بالسين المهملة فمعناه قريب من الأول في الاستقصاء والإكثار»[18].

ما يعضد اختيار القاضي (إذا أكل لف) عدة أمور، نذكر منها:

• أن اللف والرف كلاهما يعني الإكثار في الأكل، إلا أن الأول يزيد عن الثاني بالتخليط في صنوف المأكولات فضلا عن الإكثار منها، وهذا أدخل في الذم وإظهار العيوب،

- الاشتفاف والاستفاف كلاهما مختص بالشرب، وذلك دليل انتباذ القاضي عياض لهما،
- مشاكلة رأس الفاصلة اللاحقة للتي سبقتها (إذا أكل لف وإذا اضطجع التف) ولف والتف كلاهما من جذر واحد غير أن الثاني مزيد. «وقولها: إذا اضطجع التف» تعني رقد ناحية ولم يباشرها) (19) وهذا أكمل في الذم، فهو شره في الأكل نهم فيه، حصور مع زوجه زاهد فيه.
- إن تقارب الكلمات والألفاظ في الرسم لم يدفع الفروق الدقيقة بينها، بل لكل لفظة ظلالها وإيحاءاتها ومعانيها.

ومن غريب قول السابعة (زوجي عياياء)

عياياء= غياياء

استهل تفسير قول السابعة بقوله: «قولها عياياء» وفي الرواية الأخرى «أو غياياء» هو شك من الراوي، قال أبو عبيد: هكذا يروى بالشك».

إن أهم ما قام به القاضي في شرحه هنا إيراده لروايتين مختلفتين، رواية تؤكد لفظ «عياياء» وأخرى يداخلها الشك في غياياء.

مما أورده القاضي قول أبي عبيد:« الصحيح عياياء بالعين المهملة فأما المعجمة فليس بشيء، والعياياء من الإبل الذي لا يضرب النوق، وكذلك في الرجال... قال الهروي العياياء العيي الذي تعييه مباضعة النساء»(20).

لقد عرض القاضي عياض رأي أبي عبيد، ولم يكن غرضه الموازنة والمقارنة بين روايتين واحدة موثوق بها (عياياء) والثانية يداخلها الشك (غياياء) فالظاهر أنه رجح (عياياء) إلا أن قول أبي عبيد «فأما المهملة فليس بشيء» قد هاله، لأنه أصدر حكمه بإزائها من غير أن يشرح أو يفسر، وكأن هذه اللفظة لا أصول لها في العربية، يقول عياض

رحمه الله تعالى: «وقول أبي عبيد: إن الغياياء بالغين المعجمة ليس بشيء ولم يفسره، وتابعه على ذلك سائر الشارحين، فقد ظهر لي فيه معنى صحيح إن شاء الله في اللغة، بين في التأويل، وهو أن يكون مأخوذا من الغياية وهي كل ما أظل الإنسان من سحاب وغيره، ونحو ذلك... فكأنه غطى عليه من جهله وسترت عنه مصالحه»[21].

ومما أفادنا هذا الشاهد أن القاضي عياض لم يعتبر غياياء تصحيفا لعياياء، بل اعتبرها أصيلة في اللغة العربية وراح يبحث عن دلالتها من غير اقتصار واتباع لما أورده الشراح قبله، فمباشرة القاضي عياض لتأويل غياياء ليس يعني ترجيحا لها، بل حسبه إظهار معناها اللغوي بعدما أقر أبو عبيد بأنها ليست بشيء، وتبعه في ذلك شراح الحديث.

غريب قول العاشرة: (لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف)

زوج هذه نقيض زوج السادسة التي وصفته بالنهم والشره قائلة: (إذا أكل لف). أما العاشرة فقد «وصفته بكرم النفس وشبعها، ونزاهتها وإيثارها، وقلة همه بالأكل وشرهه له، وأنه إذا أضيف واحتفل في إكرامه وأكثر من إطعامه، لم يكن همه شبع بطنه، واكتفى بأيسره واقتصر على ما يقيم صلبه، ويرد قوته منه»[22].

عرض القاضي عياض، رحمه الله، جملة من الشواهد الشعرية ليؤكد أن هذا الطبع متأصل في العرب، عريق بينهم.

وأورد احتمالا آخر، «فقد يحتمل أن يكون معنى «يضاف» أي ينزل به الضيفان، يقال: ضفت الرجل إذا نزلت به، وأضفته: أملته إلى ضيافتي، تقول: فهو لا يشبع لإيثارهم بما عنده، وتقديمهم على نفسه، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾»[23].

إن عرض التأويلين لا يتعارضان، والغاية منهما أن الرجل كريم النفس عزيزها سواء كان ضيفا أو مضيفا.

ومن غريبها أيضا قولها: «إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك».

في معنى المزهر:

أورد القاضي عياض رأي أبي عبيد وغيره قائلا: «ومعنى قولها: «إذا سمعت صوت المزهر أيقن أنهن هوالك» أي أنه لما كثرت عادته بإنزال الضيفان وإطعامهم وسقيهم وضرب المعازف عليهم، ونحره الإبل، إذا سمعت المعازف عرفت بجري عادتها أنها تنحر... وهذا لا تعتاده الإبل ولا تفهمه إلا مع التكرار والاستمرار»[24].

ولعل رأي ابن عبيد هو ما يصطلح عليه في علم اللسانيات بالنظرية السلوكية، فاطراد اقتران صوت المزهر بالنحر جعل الإبل توقن بنحرها كلما سمعت المعازف، وهو ما سماه ابن عبيد بجري العادة.

كما أورد القاضي عياض رأيا لأبي سعيد النيسابوري يقول فيه: «لم تكن تعرف العرب العود، إلا من خالط الحضر منهم، والذي نذهب إليه أنه المزهر، وهو الذي يزهر النار للأضياف الطراق، فإذا سمعت صوت ذلك ومعمعان النار أيقنت بالعقر»[25].

ولقد رد القاضي رأي النيسابوري وأنكره عليه مع جواز صحته، قائلا: «ولا نعرف أحدا رواه 'المزهر' كما قاله النيسابوري، وإن كان يصح، لأن زهور السراج والنار تلألؤ سناها، والذي رواه الناس كلهم «المزهر» وهو الصواب لا ما قاله إن شاء الله»[26].

إذن للمزهر معنيان:

الأول لأبي عبيد ومن معه وهو بمعنى صوت المعازف.

الثاني لأبي عيد النيسابوري أنكر فيه رأي أبي عبيد وزعم أن معنى المزهر من زهور النار وهو اشتعالها وتسعرها.

والملاحظ أن القاضي عياض عرض الرأيين معا فلم ينكر على الأول، ونعتبره ذلك تسويغا لرأي أبي عبيد، إلا أنه أنكر رأي النيسابوري ورده عليه مع جواز صحته، فقد مال القاضي عياض، رحمه الله، لرأي الغالبية من أهل اللسن وجمهور اللغويين وهو الذي عناه بقوله: «رواه الناس كلهم» أي العالمين باللغة ولا يقصد السوقة طبعا، وجعله صوابا حين قوله «وهو الصواب لا ما قاله إن شاء الله (أي النيسابوري)».

لقد درج القاضي، رحمه الله، على عرض الآراء مع اختلافهما، فإذا جوزها جميعا اكتفى بالعرض دون ترجيح، أما إذا مال إلى رأي وكان له الدليل - وإن خالف فيه أهل الاختصاص - فإنه يعرضه بما يكفي من الثقة، وأحيانا يبدو الترجيح ظاهرا من خلال القرائن الصريحة كقوله هنا «وهو الصواب». كما يعمد أحيانا إلى إظهار تميزه، واستحالة إيجاد رأي مثل رأيه ، بسطا وبيانا،كما في قوله «وهذه نكتة بالغة في هذا الفصل تغلغل القول بها لعلك لا تجدها بهذا البيان في غير هذه الأوراق»[27].

أشار الدكتور عبدالله الطيب إلى أن القاضي عياض نبه إلى المواضع التي كان فيها قوالا مبرزا لم يسبقه أحد إلى ما فتح الله به عليه، يقول: «هذا وقد كان القاضي عياض، رحمه الله، متواضعا، وفي أطراف نفسه أريحية، ودماثة خلق ولين... ومع هذا لم ير بأسا أن يذكر لقرائهما عنده من أن النهج الذي انتهجه في هذه الرسالة فريد، ولم يسبق إليه، واحترس بما جبل عليه من شيمة تواضع العلماء فقال: مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمي»[28].

ويتابع القاضي، رحمه الله، إنكار رأي النيسابوري قائلا: «فمن أخبره أن مالكا المذكور لم يخالط الحضر؟ وقد ذكرنا في بعض طرق هذا الحديث أن قرية من قرى اليمن، وذكر أنه اجتمع بها إحدى عشرة

امرأة والقرى هي الحواضر والمدن، قال تعالى: ﴿**رجل من القريتين عظيم**﴾، وفي الطريق الآخر أنهن من قريش، وأنهن من أهل مكة كما قدمنا، كما أن أشعار العرب جاهليها وإسلاميها، بدويها وحضريها قد ذكرت فيها المزاهر وأشباهها، قال الأعشى:

جالس حوله الندامى فما ينـ ـفك يؤتى بمزهر مندوف

كذا أنشد أبو عبيد وغيره، وهي إحالة من الرواية، وغلط، والشعر «يؤتى بمؤكد محذوف» يعني الزق، وبعده:

وصدوح إذا يهيجها الشر ب تزقت في مزهر مندوف»[29]

فانظر كيف نظر القاضي عياض، رحمه الله، في كلام النيسابوري، وسعى إلى إظهار خلله، منطلقا من الدليل العقلي المتمثل في عدم استحالة مخالطة مالك للحضر، ومن أن النسوة قد اجتمعن في قرية من قرى اليمن، ثم مضى القاضي ينظر في لفظ القرية كما ورد في القرآن الكريم مستدلا بما يجعل القرية تفيد المدن والحواضر، وبهذا يكون القاضي قد هوك رأي أبي سعيد النيسابوري، وزاد دليلا آخر يؤكد من خلاله معنى المزهر وذلك بالشاهد الشعري. وبأنه لفظ عربي، وعادة العرب إطراب الضيفان، وذلك داخل في الكرم.

ولا اعتراض بين الرأيين، أو بين المعنيين للمزهر سواء قصد به تسعر النيران أو الآلة الموسيقية، فكلاهما مخصوص بالضيفان ومتعلق بهم، غير أن الأول يكون قبل وصول الضيفان توجيها لهم بمكان الخيمة، وبعد وصولهم لإنضاج اللحوم، والثاني لا يصلح إلا بوصولهم والجلوس إليهم.

وللشعراء كلام يطول في زهر النار للأضياف قصد هدايتهم وإرشادهم لموطن الخيام، قال الشاعر:

وأني لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسا الأرض نضاح الجليد وجامده

وقال آخر:

ومستنبح قال الصدى مثل قوله حضأت له نارا لها حطب جزل
وقمــت إليه مســرعا فغنمـته مخافة قومي أن يفوزوا به قبل

غريب قول الحادية عشرة: (أناس من حلي أذني)

في معنى أناس:

يقول القاضي، رحمه الله: «أي حرك أذنـي بالحلي من القرطة والشنوف، والنوس حركة كل شيء متدل وسائل، قال يعقوب: أناس أثقل حتى ناسا أي تدليا واضطربا، وهذا نحو الأول، قال ابن الكلبي: سمي ذا نوس أحد ملوك اليمن لضفيرتين كانتا له تنوسان تحت عاتقه، ومنه حديث ابن عمر أنه دخل على حفصة ونوساتها تنطف، وفي الحديث أنه كان للعباس ضفيرتان تنوسان على ترائبه، والحلي جمع ويقال بكسر الحاء، وقرئ في الكتاب العزيز بهما جميعا، والحلي واحد وهو كل ما تحلى به من ذهب وفضة وجوهر وشبهه»[30].

لقد سلك القاضي، رحمه الله، مسلك التفسير في شرح أناس بقوله:أي حرك أذني، ثم مضى مؤكدا كلامه بقول يعقوب وابن الكلبي من غير أن يعرف بهما، ولا أن يذكر المضان التي استقى منها هذه الشواهد سالكا مسلك الاختصار تخفيفا على القارئ، ومعضدا كلامه بالمأثور من حديث ابن عمر والعباس.

ولقد بدت ثقافة القاضي عياض – رحمه الله – اللغوية واسعة حيث يشرح انطلاقا من مخزونه المعرفي من غير رجوع للمعاجم مكتفيا بإيراد أسماء اللغويين والمحدثين. فضلا عن علمه بالقراءات القرآنية.

إننا من خلال تتبعه لشرح غريب الحديث ندرك أنه، رحمه الله، ليس يقتصر على رافد واحد بل إنها روافد عدة متح منها موسوعيته، ويعتبر الرافدين القرآني والشعري أهمها.

وعلى ما أوردناه فإن معنى أناس يتأرجح بين معنيين:

• حرك.

• أثقل.

والمعنيان متقاربان، فلا تتحرك الأذن إلا بالأقراط، فإذا كان وزن الحلي ثقيلا أثقلت الأذن وإلا فإنها تحركها فقط، ويبقى المعنى الثاني أنسب للدلالة على زنة حليها وثقله.

ومنه قولها: (بجحني فتبجحت)

«أي فرحني ففرحت، قال الراعي:

وما الفقر من أرض العشيرة ساقنا إليك ولكنا بقرباك نبجح

أي: نفرح، هذا قول أبي عبيد، وقال ابن الأنباري: معناه عظمني، ويؤيده قولها: فبجحت إلى نفسي... وقال يعقوب: بجحت فخرت، وقال ابن أويس: معناه وسع علي وترفني»[31].

لقد استقصى القاضي دلالات بجحني فأورد لها خمس دلالات:

• فرحني.

• عظمني.

• فخرت.

• وسع علي.

• ترفني.

وهذه الدلالات متكاملة لا تعارض بينها، ولم يرجح معنى دون آخر، فقد ارتضاها جميعا، والحق أن المقام مقام فخر بالزوج، لذلك لا مانع بأن تفخر به لأنه فرحها وعظمها ووسع عليها وترفها، وكل ما يقوم به الزوج في حق زوجه قليل إذا صلحت.

ومنه قولها: (فعنده أقول فلا أقبح، وأشرب فأتقمح)

أتقمح = أتقنح

«أي: يقبح قولي علي ويرده، وقولها: أتقمح، قال أبو عبيدة: أي أروى حتى لا أحب الشرب، مأخوذ من الناقة المقامح، وهي التي ترد الحوض فلا تشرب، وترفع رأسها ريا، ومن رواه «فأتقنح» بالنون، فإن أبا عبيدة قال: لا أعرفه، ولا أرى المحفوظ إلا بالميم»[32].

وقريب من هذا ما أورده ابن دريد، في معنى تقمح: «والإبل قماح، إذا قامحت عن الماء، قال الشاعر:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

فهذا يخالف قول أبي عبيدة لأنه قال: نغض الطرف، فكأن المقمح - والله أعلم - الرافع رأسه شاخصا كان أو مغضيا[33] وفي الصحاح تقمح بمعنى: «رفع رأسه وغض البصر»[34].

يعتبر هذا الشاهد دليلا على علو كعب القاضي عياض في اللغة، فقد عهدناه دائم الاستحضار والرجوع لآراء أبي عبيد، فكان يقبل رأيه تارة ويتحفظ أخرى، إلا أن أبا عبيد أقر بعدم علمه بمعنى «أتقنح» -وتلك عادة العلماء - فقال القاضي حكاية عنه: «ومن رواه «فأتقنح» بالنون، فإن أبا عبيدة قال: لا أعرفه»، فكان ما أورده القاضي بإزاء هذا اللفظ من صميم تنقيره وتنقيبه واجتهاده، قال: «وحكى أبو علي القالي، في كتابيه: البارع والأمالي: يقال: قنحت الإبل تقنح، بفتح النون في الماضي والمستقبل قنحا بإسكان النون... إذا كرهت الشرب بعد الري، وأكثر كلامهم تقنحت تقنحا، قال أبو زيد وقال نحوه ابن السكيت وأبو حنيفة فهما إذن بمعنى، والميم تتوارد مع النون كثيرا... وقال شمر عن أبي زيد: التقنح الشرب بعد الري، قال ابن حبيب: هو الري بعد الري، قال ابن أبي أويس، وقال أبو سعيد: هو الشرب على رسل لكثرة اللبن، لأنها ليست تناهب غيرها الشرب... وقال يعقوب: أتقنح: لا يقطع علي شرب»[35].

فانظر إلى تدفق دلالات اللفظ من خلال ما أورده القاضي أخذا من كتابي أبي علي القالي، وهي كالآتي:

- كراهة الشرب بعد الري.
- الشرب فوق الري.
- الري بعد الري.
- الشرب على رسل لكثرة اللبن.
- عدم قطع الشرب على الشارب.

يمكن أن نفرز من هذه المعاني معنيين كبيرين:

الأول: يتعلق بشرب الماء أو غيره من المشروبات المستحلة إلى درجة الارتواء والتضلع.

الثاني: يتعلق بشرب اللبن شربا على رسل لإفادة الكثرة فيه، وذاك دليل على غنى زوجها وامتلاكه الإبل. وسواء تعلق الأمر بشرب الماء أو اللبن فإنها تتضلع منهما معا حتى ترتوي، ولا مانع من أن يكون مشروبها ماء ولبنا.

ولقد أصل القاضي التأصيل اللغوي للفظ بإثبات موارده على غير عادته فذكر المصدرين اللذين استقى منها دلالات اللفظ وهما الأمالي والبارع لأبي علي القالي.

وعرض جملة من آراء اللغويين مبينا ما بينها من التقارب في دلالات اللفظ، فخلص إلى أن التقمح هو التقنح يقول: «فهما إذا بمعنى». ووضح سبب التقارب في المعنى والراجع إلى توارد الميم مع النون في العربية ممثلا بنماذج مثل غيم وغين، وامتقع وانتقع.

ثم عرض القاضي معاني عدة لتقنح يمكن إجمالها في كثرة المشروب وغزارته لبنا كان أو ماء، والجمع بينهما دليل الرخاء والتنعم.

لقد أظهرت المرأة نعيمها ورغد عيشها، وتمام ريها من مشروبها كائنا ما كان، وتفضلها على غيرها بفضول طعامها، وانتشاؤها وزهوها أو اتساع جسدها واكتنازه.

قال أبو عبيد: »ولا أراها قالت ذلك إلا من عزة الماء عندهم، يعني قولها: (أشرب فأتقمح).

هنا يتدخل القاضي عياض ليبرز لنا سعة علمه وغزارة فهمه منتقدا أبا عبيد ومنكرا عليه هذا التأويل، يقول: «وما اضطره إلى هذا التأويل، وكأنه لا شراب إلا الماء، فأين أنواع اللبن والخمر والسويق وسائر أشربة العرب التي كانوا يستحلونها ويستعملونها من صريف وضريب وصريح ورقيق ونبيذ ومزر وجعة وبتع وفضيخ وطلاء وباذق وسويق؟»[36].

يبدو من خلال هذا الشاهد أن إنكار القاضي، رحمه الله، على أبي عبيد كان بقصد إظهار معرفته بعادات العرب وعلمه بسائر أشربتهم، وفي هذا إشارة ضمنية بعلم القاضي، رحمه الله، بدقائق اللغة، والفروق الدقيقة بين المعادلات الدلالية فيها، سالكا في هذه الفقرة مسلك أبي هلال العسكري في فروقه أو مسلك الأصفهاني في مفرداته.فقد كان كافيا أن يقول: «وكأنه لا شراب إلا الماء، فأين أنواع اللبن والخمر والسويق وسائر أشربة العرب التي كانوا يستحلونها ويستعملونها» من غير تفصيل، فقد كانت هذه الصياغة كافية لإقناعنا بأن ما ذهب إليه أبو عبيد مرجوح، وبأن الأمر غير مقتصر على الماء وعزته، لكن القاضي بسط القول بسطا وبث الفروق بثا،مبينا من ذلك كله حسه اللغوي المرهف وعلمه الغزير بأسرار العربية، وترجيحا للرأي القائل بأن المقصود غير الماء، مذيلا كلامه بأشعار يذم فيها أصحابها المقتصرين على شرب الماء وحده، كما في قول بعض الهذليين:

ومن تقلل حلوبته وينكل   عن الأعداء يغبقه القراح

يقول القاضي «ومن رواه «أتفتح» بالفاء والتاء، فإن لم يكن وهما، فمعناه عندي التكبر والزهد، قال ابن دريد الفتحة التيه والتكبر، يقال في فلان فتحة، ومثله في كتاب العين للخليل، ويكون هنا التيه والكبر من الشراب لنشوة مسكره»(37).

إن أول ما يلفت انتباهنا تشكيك القاضي في هذه الرواية بقوله «فإن لم يكن وهما»، وإن سلم بصحتها فقد حددها في التكبر والزهو، وقد ارتكز القاضي على ابن دريد والخليل من خلال معجميهما.

ويحسن قصر معنى «أتفتح» على الزهو إشارة إلى ترف هذه الزوجة ورغد عيشها، إذ من شأن سعة الحال أن تشعر صاحبها بالانتشاء والزهو.

ومنه قولها (وآكل فأتمنح) «أي أطعم غيري، يقال منحه يمنحه إذا أعطاه، وأصله من المنحة والمنيحة وهو أن يجعل الرجل للرجل لبن شاته أو ناقته ثم يردها، ثم جعلت كل عطية منحة.

وجاء بلفظ أتفعل التي تقتضي تكرار الفعل وملازمته للفاعل، ومطالبة نفسه أو غيره به، فكأنها تطلب من نفسها من تمنحه، أو تحرك لذلك غيرها لتفضل عليه بما فضل من مأكوله لكثرته»(38).

أصل القاضي للفظ «أتمنح» قائلا (وأصله من المنحة)، ووظف المورد الصرفي مؤكدا على دلالات التضعيف في الفعل وما يقتضيه من التكرار والمعاودة.

غريب قولها في أم أبي زرع (عكومها رداح)

رداح = دراح

جاء في كتاب العين «ناقة رداح ضخمة العجيزة، والمآكم، ردُحت ردَاحة فهي رَدُوح ورَدَاح، وكبش رَداح ضخم الألية»(39).

قال أبو عبيد وغير واحد من الأئمة: العكوم: الأحمال... والرداح الطعام الكثير الحشو، وزاد على ذلك معاني منها:

قال الهروي: الثقيلة ومنه قيل للكتيبة الواسعة رداح، ويقال للمرأة رداح، إذا كانت عظيمة الأكفال ثقيلة الأوراك، وجفنة رداح عظيمة، وجمل رداح عظيم.

أما ابن حبيب فقال: إنما هو دراح أي ملاء[40].

فقد سوغ القاضي عياض، رحمه الله، الرواية التي اعتمدها أبو عبيد ومن معه من الأئمة ، وهي «رداح» عوضا عن دراح لشهرتها، لذلك عقب على ابن حبيب قائلا: ما قاله أبو عبيد وغيره صحيح معروف ومعناه ظاهر، ولا أدري لم أنكره ابن حبيب، ....، فإن روايتهم (الرواة) كلهم رداح، لا كما قاله ابن حبيب عن أبي أويس: دراح لم يذكرها غيره ولا شرحها سواه، ولا سمعناها من شيخ ولا وجدت هذه اللفظة في جماهير اللغة وصحاح العربية، إلا أن تكون من قولهم رجل درياحة، أي ضخم، حكى ذلك ابن دريد...وفي كتاب العين: الدرياحة القصير[41].

لقد عرض القاضي، رحمه الله، رأيين أحدهما راجح والثاني مرجوح، فبدأ برأي أبي عبيد، وعادته أن يبدأ بما هو إليه أميل وعليه أحرص، ويحسبه صوابا لا يداخله شك ولا يتسرب إليه وهن ولا يلفه وهم، فبدأ برأي أبي عبيد قبل رأي أبي حبيب قائلا: «قال أبو عبيد وغير واحد من الأئمة» وليت شعري لم عدل عن قول اللغويين – لأن هذا مناط اشتغالهم – إلى الأئمة؟ فمعلوم أن المقام لغوي بامتياز فذكر اللغوي أولى من ذكر الإمام لما يحتمله هذا الأخير من معان عدة.

إنه قال الأئمة ولم يقل اللغويين أو أئمة اللغة – في نظرنا – لأن الإمام متبوع لا تابع وسابق لا لاحق، وبه يأتم غيره من الأتباع، قال الخليل: «فكل من اقتدي به، وقدم في الأمور فهو إمام»[42] فقصده

ظاهر واضح وحصيلة قوله جلية، مفادها أن رأي أبي عبيد ومن معه أحرى أن يتبع لأنهم لن يجتمعوا على رأي أعجف مهزول، لأن مصدره أئمة اللغة وفرسانها.

وقبل أن يصدر أحكامه في رأي ابن حبيب تحرى في نسبة الكلام لصاحبه قائلا «وقال ابن حبيب فيما قرأته مضبوطا في كتابه، ولم أروه سماعا إنما هو دراح»[43].

لقد فعل ذلك لئلا يبني أحكامه على وهم فثبت الرأي لصاحبه، ثم انبرى له ناقدا، ونافيا نفيا قاطعا بأن يكون واحد من أئمة اللغة قال برأي ابن حبيب، قال، رحمه اللّٰه: «ما قاله أبو عبيد وغيره صحيح معروف، ومعناه ظاهر، ولا أدري لم أنكره ابن حبيب» ثم واصل حديثه عن رواية دراح قائلا: «لم يذكرها غيره ولا شرحها سواه، ولا سمعناها من شيخ، ولا وجدت في جماهير اللغة وصحاح العربية»[44] وبهذا يكون القاضي، رحمه اللّٰه تعالى، قد نسف رأي ابن حبيب نسفا وهوكه تهويكا، وقد ظهر ذلك من نفيه المطلق بانعدام أثر لرأي ابن حبيب في مصادر اللغة وبطونها، وهذا دليل آخر على أن القاضي، رحمه اللّٰه، قد استقصاها وأوجعها تقليبا وتفتيشا، فضلا عن كونه لم يسمعها من شيخ. على عكس الرأي الذي اعتمده فهو جار على ألسنة الشيوخ.

فالقاضي نفى وجود دراح في المعاجم العربية إلا أن تكون درياحة، وهو ما أثبته الجوهري في صحاحه قائلا: «رجل درياحة أي قصير سمين ضخم البطن»[45].

وإن كانت درياحة هي مقصود ابن حبيب، فإن فواصل الحديث تأباها وتمجها، وتسكن لرداح لموافقتها لها.

غريب قولها في ابنة أبي زرع: (بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع طوع أمها، ويروى زين أبيها وزين أمها وغيظ جارتها، ويروى عقر جارتها،

ويروى عبر جارتها، ويروى حير جارتها، ويروى حين جارتها، ويروى حبر جارتها...)

طوع = زين= غيظ =عقر = غير= عبر= حير= حين = حبر..

«وقولها: طوع أبيها وطوع أمها، أي: أنها بارة بهما غير خارجة عن رأيهما، وهذا دل على عفتها وعقلها، ومن رواه زين فمعناه أن من له مثل هذه البنت في كمالها وجمالها يتزين بها ويتجمل، قال تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾»[46].

بالنسبة للفظتي طوع وزين فلا معادلات دلالية لها، أي أن ثمة إجماع بين رواة الحديث، وقد فسرهما القاضي عياض تفسيرا مقبولا وأصل لذلك من القرآن الكريم، أما الشق الثاني من الكلام والمتعلق ببنت أبي زرع في علاقته بجارتها، فقد وجدنا رواية راجحة اعتمدها القاضي، رحمه الله، وهي: (غيظ جارتها) وروايات أخرى يمكن اعتبارها بدائل للرواية الأصل، وهي في عمومها لا تتعارض، بل يمكننا اعتمدها مجموعة، وهي كالآتي:

- غيظ جارتها
- عقر جارتها (أي: جرحها)
- غير جارتها (أي: تغار منها جارتها)
- عبر جارتها (أي: تعتبر بها جارتها)
- حبر جارتها (أي: سرورها) «الحبر والسر الجمال والبهاء»[47].
- حير جارتها (أي: سبب حيرتها) قال الخليل: «حار بصرك ، يحار حيرة وحيرا، وذلك إذا نظرت إلى الشيء فغشي بصرك، وهو حيران تائه»[48].
- حين جارتها (أي: هلاكها) «الحين: الهلاك، وكل شيء لم يوفق للرشاد»[49].

لقد سلك القاضي نهجه المعروف والمتمثل في شرح الرواية الأصل ثم بدائلها بعدها، ليهتدي في الأخير إلى عدم التعارض قائلا: «وإنها لتمام حسنها وتشابه خلقها في الكمال، وخلقها غيظ جارتها أي ضرتها، أو مجاورتها، وأن ما تراه من ذلك يغيظها وتغار له، وتحار منه، وتعتبر حتى لا تهتدي لأمرها، ولا تستقيم لسبيلها، ويكاد بصرها يعشى إذا نظرت إلى جمالها وكمالها، إذ ليست كذلك، ويعقرها ويبكيها حسدا لها، وغيرة بها، فيكون معنى يعقرها: إما يهلكها جسدا ..أو يجرح لذلك قلبها، ويبكيه على ما تقدم من تفسير عقر»[50] ثم يختم بقوله : وسيكون معنى هذه الألفاظ متشابها إن شاء الله[51].

والذي نراه أن القاضي رحمه الله تعالى اجتهد في جمع دلالات البدائل موردا معانيه من مضانها، وليس يخفى ما بينها من الفروق، لذلك إن صح التعقيب قلنا : ومعنى هذه الألفاظ متكامل وليس متشابها، وهذا ما يعطي للبدائل طاقة إضافية ويعطي لجهد القاضي قيمته العلمية.

غريب قولها في جارية أبي زرع: (لاتبث حديثنا تبثيثا، ولا تنقث مريتنا تنقيثا ولا تغث طعامنا تغثيثا، ولا تملأ بيتنا تعشيشا).

1 – تبث= تنث

لا تبث أي لا تنشر ولا تنث بمعنى لا تظهر، قال ابن حبيب البث والنث بمعنى. وقد مضى القول في الفرق بينهما مع غريب قول الزوجة الأولى.

2 – تنقث= تنقل= تفسد= تهلك

تنقيثا= تقشيشا

«نقث خلط شيء بشيء ونقله، ونقث ما في منزلي أجمع: نقله كله، ونقثوا حديثهم خلطوه، كما ينقث الطعام، وخرج ينقث، يسرع في نقل قوائمه، ونقثت العظم أنقثه، استخرجت ما فيه من المخ»[52].

وجاء في البغية: «التنقيث الإسراع في السير، أي لا تذهب به وتخون فيه، كما قال أبوعبيد وهو بمعنى لا تنقل، قال النيسابوري: التنقيث إخراج ما في منزل أهلها إلى غيرهم[53] وهما متقاربان. وقد أورد رواية أخرى، هي ولا تنقث ميرتنا تقشيشا بدل تقثيثا.

3 - تغث= تغش

تغثيثا= تغشيشا

قال القاضي أيضا يصح معنى «تغث» أي تأكل أكل فساد كما تفعل السوسة، ثم يرجح قولها في رواية الزبير (تفسد ميرتنا تقشيشا) بقوله «فمعناه عندي قريب من الأول»[54] أي لا تفسد ميرتنا بالنقل والخيانة والاحتجان والإسراف في أكلها، وهو بهذا يجمع دلالات البدائل كلها ليصل إلى معنى قولها من غير اطراح لواحدة من البدائل الواردة في الروايات الأخرى مؤكدا ذلك بقوله «فمعاني هذه الألفاظ وإن اختلفت متقاربة» وهو غير قوله في الذي مضي من غريب قولها في بنت أبي زرع «ويكون معنى هذه الألفاظ متشابها إن شاء الله».

وتبقى هذه الرواية (لاتبث حديثنا تبثيثا، ولا تنقث مريتنا تنقيثا ولا تغث طعامنا تغثيثا) الرواية الأسلم، «فإن التزام الثاء في تبث وتنقث وتغث تصريع لمقاطع أسجاع هذه الفقر»[56] وهذا ضرب من البديع لا يخفى جماله.

4 - أما قولها «لا تملأ بيتنا تعشيشا» فيقول فيه القاضي عياض رحمه الله «فمن رواه بالعين المهملة فمعناه أنها مصلحة للبيت، مهتبلة بتنظيفه، وإلقاء كناسته، وإبعاد هامته...وقال ابن أبي أويس عن أبيه أرادت أنها تقم بيتنا ولا تدع القمامة والقشب، فكأنه عش طائر في قذره وقشبه. وقال الهروي: لا تفسد ميرتنا تعشيشا معناه أنها لا تخوننا في طعامنا فتخبئ في هذه الزاوية شيئا، وفي هذه شيئا كالطيور... وقال

الخطابي هو مأخوذ من قولهم عشش الخبز إذا فسد، يريد أنها تحسن مراعاة الطعام وتتعاهده بأن تطعم منه أولا فأولا طريا.

ومن قال تغشيشا بالغين المعجمة فهو من الغش[57].

من غريب قولها في ما تبقى من الحديث.

(والأوطاب تمخض)

في معنى الأوطاب:

الأوطاب تختص بأسقية اللبن، ذكر أبو سعيد النيسابوري أن جمع وطب على أوطاب في هذا الحديث منكر في العربية لأن فعلا لا يجمع على أفعال.

قال القاضي، رحمه الله، «لم يقل أبو سعيد شيئا، أما إنكاره أن يجمع وطب على أوطاب في العربية، فهذه عربية صحيحة منقولة عن أفصح العرب، وبأصح الطرق، فحكاها النبي، صلى الله عليه وسلم، أو حكتها عائشة بحضرته، ورواه فصحاء التابعين، ولا يحكون لحنا... وليتنا وجدنا مثل هذه الطرق في أكثر اللغة، ولا يقال في مثل هذا منكر ولا خطأ، ولكنه يقال نادر، وكيف وأئمة هذا الشأن يخالفونه؟ قال الخليل جمع الوطب وطاب وأوطاب وحكى مثله ابن دريد في الجمهرة»[58].

لم يسلم أبو سعيد النيسابوري من نقد القاضي عياض في جل ما أورده حكاية عنه، وقد رد عليه رأيه بخصوص جمع وطب، وساق حشدا من الأدلة على ذلك، منها:

- أن هذا الجمع عربي فصيح،
- إنه منقول عن أفصح العرب وبأصح الطرق،
- رواه فصحاء التابعين الذين لا يحكون لحنا،
- الطريق الذي وصلنا منه هذا اللفظ حصين،

- تصويبه له اللفظ الأنسب في الحكم على الجمع فاستبدل بنادر لفظ منكر وخطأ،
- استدلاله بأئمة اللغة في إثبات صحة الجمع،

على سبيل الختم:

إن الكلام عما أورده القاضي عياض من نفائس يستلزم التنزه في علوم اللغة العربية كلها نحوا وبلاغة ولغة، فضلا عن علمي الحديث والفقه.

وإننا ونحن نقرأ هذا الكتاب وجدناه من نفائس الكتب النقدية الدقيقة منهجا ومصطلحا، لذلك تجدد فينا العزم على خوض غمار المعارف المتزاحمة فيه، وذلك يرجع لسببين:

الأول: يكمن في قيمة المتن المدروس، فهو نص في غريب الحديث جمع غريب اللغة فأعطى للباحث منحة بحث ثرية وغنية وفريدة، «فأنت إذا تأملت كلام أم زرع وجدته مع كثرة فصوله وقلة فضوله مختار الكلمات، واضح السمات، بين القسمات، قد قدرت ألفاظه قيس معانيه، وقررت قواعده وشيدت مبانيه»[59].

الثاني: يكمن في خصوصية العالم الجليل القاضي عياض رحمه الله تعالى، فعلمه الغزير وجمعه بين العلوم الشرعية والعلوم اللغوية جعل بحثه فريدا، بل أخرج كتابه إخراجا نقديا غبر مسبوق إليه.

لهذين السببين كان اختيارنا للموضوع المدروس، رغبة منا في الكشف عن جهود الرجل اللغوية، وإظهار تدفق الدلالات في اللفظة النبوية انطلاقا من تعدد الروايات التي وردت بها أقوال النسوة، فكان ذاك التعدد موردا أثرى معنى الحديث، وأغناه لغويا ومن ثمة دلاليا، ما يجعلنا نقر حقيقية بغنى لغة الحديث الشريف، ولا غرو فهي لغة القرآن الكريم.

الهوامش

(1) القاضي عياض، بغية الرائد ص 2.

(2) القاضي عياض، بغية الرائد ص 2.

(3) القاضي عياض، بغية الرائد ص 6.

(4) علال الغازي، صورة النقد الأدبي في البغية ص 91.

(5) ابتسام مرهون الصفار،منهج البحث الأدبي عند القاضي عياض ص 269-270.

(6) علال الغازي، صورة النقد الأدبي في البغية ص 88.

(7) عبدالله الطيب، القاضي عياض الناقد ، مجلة المناهل ع 19 س 1980 ص 199.

(8) علال الغازي، صورة النقد الأدبي في البغية ص 88.

(9) القاضي عياض، بغية الرائد ص 215.

(10) القاضي عياض، بغية الرائد ص 45.

(11) القاضي عياض، بغية الرائد ص 47-48.

(12) القاضي عياض، بغية الرائد ص 47-48.

(13) القاضي عياض، بغية الرائد ص 59.

(14) نفسه ص 59-60.

(15) القاضي عياض، بغية الرائد ص 59-60.

(16) نفسه.

(17) القاضي عياض، بغية الرائد ص 80.

(18) نفسه.

(19) القاضي عياض، بغية الرائد ص 80.

(20) نفسه ص 88.

(21) القاضي عياض، بغية الرائد ص 88.

(22) نفسه ص 100.

(23) القاضي عياض، بغية الرائد ص 100.

(24) نفسه ص 109.

(25) نفسه ص 111.

(26) القاضي عياض، بغية الرائد ص 112.

(27) القاضي عياض، بغية الرائد ص 40-41.

(28) عبدالله الطيب، القاضي عياض الناقد ، مجلة المناهل ص 212.

(29) القاضي عياض، بغية الرائد ص 112.

(30) القاضي عياض، بغية الرائد ص 118-119.

(31) القاضي عياض، بغية الرائد ص 119.

(32) نفسه ص 127.

(33) ابن دريد، الجمهرة ج 1 ، ص 260.

(34) الجوهري، الصحاح ج 1، ص 379.

(35) القاضي عياض، بغية الرائد ص 128.

(36) القاضي عياض، بغية الرائد ص 130.

(37) القاضي عياض، بغية الرائد ص 130.

(38) القاضي عياض، بغية الرائد ص 128-129.

(39) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، باب الراء،ج 2 ص 110.

(40) ينظر القاضي عياض، بغية الرائد ص 132.

(41) نفسه.

(42) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، باب الهمزة ج 1 ص 88.

(43) القاضي عياض، بغية الرائد ص 132.

(44) القاضي عياض، بغية الرائد ص 133.

(45) الجوهري، الصحاح ج 1 ص 361.

(46) القاضي عياض، بغية الرائد ص 147.

(47) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، باب الحاء، ج 1 ص 278.

(48) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، باب الحاء، ج 1 ص 377.

(49) نفسه باب الحاء ص 379.

(50) القاضي عياض، بغية الرائد ص 145.

(51) نفسه .

(52) ابن فارس، المقاييس ج 2 ص 577.

(53) القاضي عياض، بغية الرائد ص 145.

(54) القاضي عياض، بغية الرائد ص 150.

(55) القاضي عياض، بغية الرائد ص 151.

(56) محمد بن تاويت، عياض النقاد البلاغي، مجلة المناهل ع 19.

(57) القاضي عياض، بغية الرائد ص 151.

(58) القاضي عياض، بغية الرائد ص 154.

(59) القاضي عياض، بغية الرائد ص 186-187.

المروي له ودوره في البنية الحكائية في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور (280هـ)

صلوح مصلح السريحي الحربي(*)

مقدمــة:

تتشكل البنية السّرديّة من خلال ثلاثة أقطاب رئيسة تتمثل في الرّاويّ ، المادة المرويّة، المرويّ له أو ما يطلق عليه السّارد، والمسرود، والمسرود له.

وتُعد المادة المرويّة بتوسطها بين الـرّاوي والـمرويّ له مصدر خصوبة لكليهما، فالأول – الرّاوي – مُصِّدر وباثّ لها ، والثاني – المرويّ له – متلقٍ لها، لذلك فإنّ العلاقة بين الـرّاوي والمرويّ له أي: الباثّ والمتلقي علاقة لازبة لازمة لكليهما، وتخضع مباشرة لعملية الإرسال والاستقبال، وترتبط بثنائيّة النّطق والاستماع، لذا فإنّ حضور أحدهما يعدّ علامة مباشرة لحضور الآخر «فما إنّ نتعرف على سارد الكتاب بالمعنى الواسع لكلمة سارد حتّى يحتم علينا أن نقرّ بوجود مرافقه أي الذي يوجه إليه الخطاب الملفوظ، وهو الذي نسميه اليوم المسرود له»(1).

وقد كان الرّاوي هو محور الرّواية، وصوتها، تُسند له مهام السّرد والقصّ على الرّغم من أنّه «شخصية متخيلة، أو كائن من ورق شأنه

(*) أستاذ الأدب العربي المشارك - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز بجدة..

في ذلك شأن باقي الشخصيات الرّوائية الأخرى، يتوسل بها المؤلف وهو يؤسس عالمه الحكائيّ لتنوب عنه في سرد الحكي وتمرير خطابه الأيدلوجيّ، وأيضًا ممارسة لعبة الإيهام بواقعية ما يروي»(2).

يُكسب الرّاوي المرويّ له قيمة بمخاطبته له، وبفضل خطاب لاتتحقق فاعليته إلا باستقباله له «فأنا الرّاوي تستحضر أنت المرويّ له الحاضر في نسيج النّصّ كلّه، فهو الذي يتلقّى جميع الخطابات من مصادرها الإرسالية المختلفة وبذلك يكون المرويّ له هو الشّخص الذي يسرد له والمتموضع أو المتطبع (Inscribed) في السّرد، وهناك على الأقل (واحدٌ أو أكثر يجري إبرازه لم تطبع ظاهريّا) مسرودٌ له لكلّ سرد يقع في مستوى الحكي للسّارد نفسه الذي يوجه الكلام له أو لها»(3). لذا فإنّ المرويّ له قابع داخل مظلّة الحكي برمتها سواء أكانت المحكيّات شفهيّة أم نصيّة كتابيّة.

وعلى الرّغم من أهمية المرويّ له ودوره في بناء النّصّ واستكمال حلقة الخطاب به ، إلا إنّه عانى من تجاهل النّقاد والدّارسين في الوقت الذي حظي فيه قرينه الرّاوي بالبحث والدّراسة، كما حظيت المادة المرويّة المتوسطة بينهما بذلك أيضا، وظلّ المرويّ له جانبا مسكوتا عنه حتّى ظهر للمرة الأولى بصورة خاصة في كتابات رولان بارت، خلال ستينيات القرن الماضيّ، ثم نظر إليه بعد ذلك جيرار جينيت في فرنسا، وجيرالد برنس في العالم الإنّكلوساكوني، كان الهدف من تغير هذا المصطلح – المرويّ له – إزالة اللّبس الذي لحق به بعد أنّ خلط بعض الدّارسين بينه وبين مصطلحيّ القارئ الحقيقيّ والقارئ الضّمنيّ. ساعد على زيادة اللّبس والخلط بين المفاهيم تباين تسمياته عند النّقاد العرب «فبعضهم يتوكأ على العامة له «القارئ» و«المتلقيّ» و«المرسل» و«المتحدث إليه» و«المستقبل» وبعضهم يطلق عليه تسميات خاصّة نابعة من ثقافته وذوقه ورؤيته للمصطلح فيسميه بـ «المرويّ له»(4). وهو المصطلح الذي ستقف عليه الدّراسة.

تحرير مصطلح المرويّ له:

التبس مصطلح المرويّ له بكل من القارئ الحقيقيّ والقارئ الضّمنيّ . ولعل التباسه بمفهوم القارئ الحقيقيّ يعود إلى مابينهما من تجنس ظاهري حتّى إنّ بعض الدّارسين أطلقوا على هذين المفهومين: (المرويّ له والقارئ الحقيقيّ) صيغة قراء ، دون الالتفات إلى مابينهما من اختلافات واضحة تجعل المرويّ له كائنا افتراضيّا قابعا داخل النّصّ الذي يحدد صيغ وجوده بشكل نهائي، وتختزل حضوره مؤشرات تتبع من النّصّ، ويعدّ الفضاء النّصّي بملابساته الزمنية والمكانية، وعلاقاته المتشعبة هي عالمه، أمَّا الآخر القارئ الحقيقيّ فهو كائن حقيقي قابع خارج النّصّ، يتعددّ ويختلف بتعددّ القرّاء واختلاف شخصياتهم وثقافتهم وذاكرتهم وتجاربهم وأزمنتهم ، لذلك فإنّ صفاته غير متوقعة، ومتغيرة، وقائمتهم مفتوحة. وقع في هذا اللّبس رولان بارت، حين وضع القارئ في مستوى السّارد بدلا من المرويّ له فقال: «لايمكن أن يوجد سرد بدون سارد، وبدون مستمع أو قارئ... فعلامات السّارد تبدو لأول وهلة أكثر قابليّة للرؤية، وأكثر عددا من علامات القارئ... كما أن علامات القارئ في الواقع هي أكثر مخادعة من علامات السّارد»(5). وبذلك فإنّ «المرويّ له شأن داخلي فهو الذي يتلقى خطاب الرّاويّ، ويتوازى مع زمن الخطاب ، وهو زمن الكتابة والنّصّ، وهو آني داخليّ يتمتع بالترهين السّرديّ»(6) لذلك لا يمكن رؤية المرويّ له عبر زمن القصّ لأنّه زمن قبليّ خارجيّ، كما لا يمكن تحديده مع زمن النّصّ؛ لأنّه زمن القراءة وهو زمن بعدي خارجي ومتعلق بالقارئ الحقيقيّ لا بالمرويّ له، لأنّه زمن تلقّي النّصّ وهو زمن مفتوح؛ لأنّ النّصّ يتلقى في أزمنة عديدة ومختلفة تتعلق بالتّلقي المفتوح. يوضح ذلك تودروف، فيقول: «ليس المسرود له هو القارئ الفعليّ... علينا ألا نخلط بين الدور، وبين الممثل الذي يؤديه ، وهذا الظهور المتزامن لا يعدو أنّ يكون جزءا

من القانون الدّلاليّ العام الذي يكون بمقتضاه الأنا و الأنت، أو بالأحرى مرسل ملفوظ ما ومتلقيه دوما مرتبطين أشدّ ارتباط»[7].

لذا يرى بعض النّقاد ومنهم (جيرالد برانس) أنّ المرويّ له «بناء سرديّ محض يجب ألا يخلط مع المتلقيّ أو القارئ الحقيقيّ، يمكن أن يقرأ العديد من السّرديّات (كل منه يحتوي على مسرود له مختلف) أو السّرد نفسه (الذي يحتوي دائما على المجموعة نفسها من المسرود لهم) والذي يمكن أن تقرأه مجموعة مختلفة من القرّاء الحقيقيّين»[8] ولكن على الرّغم من الفصل التنظيري بين المرويّ له والمتلقيّ الخارجيّ (القارئ الحقيقيّ) ؛ إلا أنّ الطبيعة البنائيّة للنّص تفرض حيزًا تواصليًا بينهما، فيتماهى الأول مع الثاني «فبما أنّ الضمير المخاطب يشير إلى الشخص الذي نتحدث عليه، فإنّ القارئ مُتلقي الرسالة المجبر يجد نفسه هنا مشارا إليه بصفة صريحة»[9].

ومثلما اختلف المرويّ له عن القارئ الحقيقيّ نلحظ إنّه يختلف أيضا عن القارئ الضّمنيّ Implied reader الكائن المتخيل الذي يولد لحظة قراءة النّصّ السّرديّ «فالقارئ الضّمنيّ على الرّغم من أنّه يلتقي مع المرويّ له في وجودهما داخل البنية السّرديّة بوصفهما معطىً نصيًا، إلا أنّه يتميز عنه بأنّه من الممكن أنّ يتجسد حضوره فعليًا على مسرح الأحداث من خلال تماهيه في إحدى شخصيّات العمل القصصيّ تماهيًا يجعل الفصل بينهما أمرًا صعبًا»[10]. ولإزالة اللّبس بين متلقي النّصّ والمروي له قدم «لينتنفلت» مخططًا توضيحيًا لمستويات النّصّ السّرديّ يوضح الفرق بينهما[11].



يوضح مخطط لينتفلت العلاقة المباشرة بين الـرّاوي بوصفه شخصية متخيلة والمرويّ له فضلًا عن توازيهما ووقوعهما في المستوى نفسه ، إلى جانب ذلك توازي المؤلف مع القارئ الحقيقيّ.

نلحظ مما سبق إنّ «المرويّ له هو أحد عناصر الوضع السّرديّ، يقع في مستوى الرّاوي، ولا يلتبس قلبيًا بالقارئ حتّى ولو كان هو القارئ الضّمنيّ أكثر مما يلتبس السّارد بالمؤلف»[12] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ لكل منهما جمهوره - المرويّ له والقارئ الضّمنيّ - فالمرويّ له هو جمهور الرّاويّ ، أمّا القارئ الضّمنيّ فهو جمهور المؤلف الضّمنيّ[13].

وكما أنّ المرويّ له لم يلتبس بالقارئ الضّمنيّ، فإنّه لا يلتبس كذلك بالقارئ الحقيقيّ «لأنّ القارئ الحقيقيّ لا ينتمي إلى عالم المرويّ له الوهميّ، بل إلى العالم الحقيقيّ، وهو يقرأ الكتاب بينما المرويّ له يسمع الحكاية»[14].

المرويّ لـه:

تعددّت تعريفات المرويّ له تعددّ تكامل وتوافق لا تعددّ اختلاف وتناقض، ولعل ذلك التعددّ يعود إلى تعددّ زوايا رؤيـة النّقاد لهذا

المفهوم، لذا لابدّ من رصدها ليكتمل من خلال هذا الرصد تعريفه بوضوح ؛ وبذلك يمكن القول: إنّ المرويّ له هو:

- السامع أو القارئ الذي توجه إليه القصّة ، وهو ليس مجرد فرد تقصّ عليه القصّة إذ ينبغي أن يتضمن النّصّ مايشير إلى أنّ القصّة موجهة فعلًا إلى جمهور أو قارئ معين مما يعني تضمين النّصّ مايوحي بذلك[15].

- هو الشخص الذي يُروى له في النّصّ ، ويوجد على الأقل مروي له واحد (يتم تقديمه على نحو صريح نسبيًا) لكل سرد يتموقع على المستوى الحكائيّ نفسه (diegetic level) الذي يوجد فيه الرّاوي الذي يخاطبه ويمكن أنّ يوجد بالطبع أكثر من مرويّ له يتم مخاطبة كلّ منهم بواسطة الرّاويّ نفسه أو بواسطة راوٍ آخر[16].

- هو المقابل الخيالي للرّاوي، أي من يتوجه الرّاوي صراحةً أو ضمنًا بالقصّة إليه وتكمن أهمية المرويّ له في أنّه يساعد على تحليل بنية النّصّ بما أنّ النّصّ موجه إليه كسلسلة من الإشارات الدّالة[17].

- الرّاوي والمرويّ له صوتان سرديان يُقدّمانِ لنا من خلال الخطاب السّرديّ[18].

- هو الذي يتلقى ما يرسله الرّاوي، سواء أكان اسمًا متيمنا ضمن البنية السّرديّة أم كائنًا مجهولا[19].

المرويّ له في المعاجم العربيّة والغربيّة:

ورد المرويّ له في معجم مصطلحات السّرد لـ: بوعلي كحالة باعتباره مصطلحًا سرديًا يستعمل «للدلالة على القارئ المفترض للنّص السّرديّ والمسرود له هو الشخصيّة المقابلة للسّارد»[20].

أمَّا معاجم السّرد الغربيّة فقد كشفت عن مدونة هامة للنّاقد جيرالد برنس، معرفًا إياه وفق التّحديد الآتي: «الشّخص الذي يسرد له أو المتموضع أو المنطبع (Inscribed) في السّرد وهناك على الأقل (واحد أو أكثر يجري إبرازه لم تطبع ظاهريًا)، مسرود له لكل سرد يقع في مستوى الحكيّ للسّارد نفسه الذي يوجه الكلام له أو لها»(21).

نخلص مما سبق إلى أنّ المرويّ له مكون رئيسيّ من مكونات البناء السّرديّ «يقع بالضرورة على المستوى القصصيّ نفسه الذي يقع فيه السّارد، ويتمتع المرويّ له بأهمية كبيرة فهو من يحدد قبليًا في بعض الحالات والظّروف نوعية ما يريد أن يسرد عليه»(22) «ويختلف شكل المرويّ له وظهوره في السّرد من نصٍ إلى آخر فقد يكون المرويّ له واحدًا أو متعددًا يخاطبهم راوٍ واحد داخل البنية السّرديّة مما يفترض احتمال قراءات متعدّدة ومنْ ثم إنّتاج دلالات متعدّدة من قبل قرّاء متعدّدين يتلقون مايسرد لهم»(23).

أنماط حضور المرويّ له داخل العالم الحكائيّ:

يتخلق المرويّ له داخل النّصّ السّرديّ ، ويختلف نمط حضوره باختلاف علاقته بالحكاية ، ويقع في مستوى الرّاوي حضورًا وغيابًا كما يرى سيمور جاتمن(24)؛ فإذا كان الرّاويّ غائبًا عن الحكي فإنّ المرويّ له يكون غائبًا عن الحكي غير متعين، أما إذا حضر الرّاوي بوصفه شخصية من شخصيات الحكي فإنّ المرويّ له يصبح متعينًا ظاهرًا في إحدى الشخصيات «فالرّاويّ الذي يروي بما أنّه أحد كائنات الورق فهو يفترض بالتبعية وجود المرويّ له انطلاقاً من أنّ أي خطاب لابد له من مُخاطَب، فالخطاب الحقيقيّ لابد له من مخاطب حقيقي، والخطاب المتخيل (السّارد/ الرّاوي) لابدّ له من (مسرود له/ أو مرويّ له)؛ لأنّ مجرد ظهور الصّوت، وتمكنّه من فرصة الحكي بضمير المتكلم، فإذا بالآخر

(المرويّ له) أمامه في مدى تخيله وتخيلنا الذي سمح لنا بتصور الصّوت / الرّاويّ نفسه»[25]. تبعًا لهذا المفهوم حدد الناقدان جيرارجينيت، وجيرالد برانس[26]، نمطين للمروي له يتمثلان في التّالي:

النّمط الأول: المرويّ له الضّمنيّ غير الممسرح، وهو مروي له غائب عن عالم السّرد، وليس له وجود في النّصّ الحكائيّ.

النمط الثّاني: المرويّ له الصّريح الممسرح ويظهر من خلال إحدى شخصيّات النّصّ الحكائيّ.

يتخلّق كل من النّمطين داخل حدود النّصّ السّرديّ ويرتبط هذا التنويع الثنائي بعلاقة المرويّ له بالحكاية ومدى حضوره أو غيابه عنها. وتستقطب بعض البنى السّرديّة النمطين معًا.

- المرويّ له الضّمنيّ غير الممسرح والمرويّ له الصريح الممسرح- في حين يكتفي بعضها الآخر بالنمط الأول الذي لا يمكن انتفاء حضوره في كافة الأحوال، وإلا انتفى دور الرّاوي في البناء الحكائيّ يقول سعيد يقطين: «إنّ الرّاويّ والمرويّ له صوتان سرديان يُقدَّمان لنا من خلال الخطاب السّرديّ حتّى وإن لم يكونا محددين بشكل تشخيصيّ (صفات معينة أسماء)»[27]. بالإضافة إلى تقسيم المرويّ له إلى ممسرح وغير ممسرح ، هناك تقسيم آخر يتم بحسب ردة فعله إزاء الأحداث المرويّة إيجابًا أو سلبًا ، فالإيجابي هو الذي يشارك في السّرد برأي أو مناقشة أو ملحوظة أو ردة فعل معينة، أمَّا السلبي فهو عكس ذلك يتلقى السّرد دون أي مشاركة وبذلك يكون التقسيم كالتّاليّ:

1. المرويّ له الظاهري الإيجابيّ أو السّلبيّ.
2. المرويّ له الخفي الإيجابي أو السّلبيّ[28].

وستقف الدّراسة على المرويّ له في كتاب (بلاغات النّساء) لابن طيفور، وأنماط حضوره وأشكاله ودوره في النّصّ الحكائيّ وتشكيله واضعين في الاعتبار تعددّ المرويّ لهم واختلاف أدوراهم داخل البناء الحكائيّ.

المرويّ له في كتاب: (بلاغات النّساء) لابن طيفور:

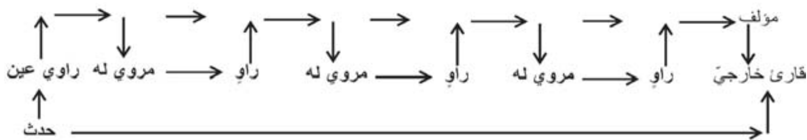
تتخذ الدّراسة من كتاب: (بلاغات النّساء) لابن طيفور، مادة لها ذاك أنّه كتاب يعتمد على السّرد القائم على المشافهة والحكي - شأنه في هذا شأن السّرديّات العربيّة القديمة - لذا كان حضور الرّاوي والمرويّ له أمر لازبًا ليستمر الحكي الذي يعتمد على أفعال التواصل: قال، حدّث، أخبر... حيث تنقل النّصّ بواسطة هذه الأفعال التّواصليّة بين الرّاوي والمرويّ لهما، وتلبس كل منهما بالآخر ليشكلا معًا سلسلة لا متناهية لنقل النّصّ المحكي. لذا يتخذ المرويّ له دور الرّاوي ليستمر السّرد القائم على الحكي، وإذا ما استثنينا الرّاوي العين الذي رأى المشهد السّرديّ ووقف عليه سواء أشارك في خلق النّصّ أولم يشارك فإنّنا نقف على سلسلة من المتحوّلين من مروي لهم إلى رواة يقبعون خارج عالم السّرد فلا تربطهم علاقة مباشرة بأيّ من مقتضياته فهم وسطاء تحملّوا أمانة نقل الثّقافة وإعلانها وينتهي دورهم بتسليم النّصّ السّرديّ إلى صوت من داخله ولكن على الرّغم من كونهم مجرد وسطاء إلا أنّ نقلهم النّصّ يعدّ إعلانًا له وموافقة على ما جاء فيه بل إنّ المرويّ له يساعد في طرح منظور الرّاويّ بما يشمله هذا المنظور من قيم وأحكام.

مؤلف كتاب: بلاغات النّساء (ابن طيفور) ودوره في التلقي والسّرد:

يضطلع ابن طيفور في كتاب: (بلاغات النّساء) بوظيفتي التلقي والسّرد في وقت واحد، ويظهر ذلك من خلال توجيه مروياته إلى القارئ الخارجيّ بعد أن انتهت إليه على يد رواة آخرين أخذ عنهم مروياته ثم

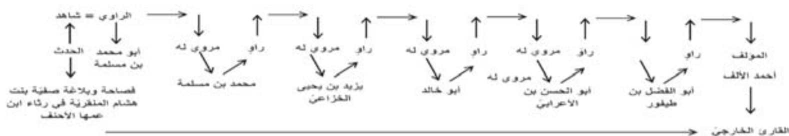
أعاد روايتها وبذلك يكون قد قام بدور التلقي أولًا معتمدًا على أسلوب السّند الذي وشّح به مروياته، ثم يقوم بدور الرّاوي ثانيًا حين يسرد هذه الأخبار والقصص والخطب والأقوال لمتلقي النّصّ الخارجيّ أي القارئ الحقيقيّ، وبذلك يضطلع بوظيفتي المرويّ له والرّاوي أي التلقي والسّرد كما قام بدور الوسيط بين الرّاوي والقارئ الخارجيّ ثم يفتح الباب على سلسلة من الرّواة والمرويّ لهم.

يمثل التّرسيم التّالي نموذجًا لتناقل النّصّ وتبادل الأدوار بين الرّاوي والمرويّ له:



يمكن تطبيق الترسيم السابق على نموذج من: (كتاب بلاغات النّساء) على النّحو التّالي:

حدّثني أبو الحسن بن الأعرابيّ الكوفيّ قال: حدّثني أبو خالد يزيد بن يحيى الخزاعيّ، عن محمد بن مسلمة، عن أبيه قال: توفي الأحنف في دار عبدالله بن أبي العصيفير بالكوفة وكان مصعب بن الزبير إذا ذاك أميرا على الكوفة، من قبل أخيه عبدالله بن الزبير... فلما دفن أقبلت صفيّة بنت هشام المنقرية على نجيب لها متخصرة، وكانت بنت عم الأحنف حتّى وقفت على قبره فقالت : لله درك من مجن في جنن...»[29].



بهذا نلحظ حضور سلسلة من الرّواة والمرويّ لهم تقع هذه السّلسلة بين الحدث والقارئ الخارجيّ، تداخلت أدوارهم وأسقط كل منهم

ذاته وثقافته ورؤيته وذاكرته على النّصّ المرويّ فكل منهم - الرّاوي والمرويّ له - أقرّ بفصاحة صفيّة بنت هشام المنقريّة، بل إنّ كلاً منهم يعدّ شاهدًا على هذه الفصاحة والبلاغة وإلا لما شارك في نقل الحكي وماتحمّل إذاعته دون اعتراض؛ بل إنّ نقلهم للحدث يتضمّن موافقة على الحكم المطلق (قال: فتعجب النّاس من كلامهم، وقال فصحائهم: «تاللّه ما رأينا كاليوم قطّ ولا سمعنا أفصح ولا أبلغ من هذه »[30]. لذلك لا يعدّ الـرّاوي والمرويّ له عنصرين محايدين أو بريئين من التّدخل في صنع النّصّ وتوجيهه. كما تعدّ العلاقة بينهما علاقة وثيقة، فإذا كان الأول هو مرسل النّصّ فإنّ الثاني هو مستقبله والدافع والمحفز على إنّتاجه لذلك لابد أن يرتبطا - الرّاويّ والمرويّ له - بواقع ماديّ تاريخيّ اجتماعيّ... مشترك يسمح للمرويّ له بتلقي الحكي والمشاركة فيه بوعي لذا هو شخصيّة لها تأثيرها في عملية السّرد، وهي كيان له مرجعياته الاجتماعيّة والثّقافيّة والسّياسيّة التي يخاطبها الرّاويّ للتّأثير فيها وإيصال رسالته إليها.

أنماط المرويّ له في كتاب: (بلاغات النّساء):

يحضر المرويّ له في كتاب بلاغات النّساء من خلال نمطيه الضّمنيّ غير الممسرح والصريح الممسرح تبعًا لغيابه أو حضوره عن عالم السّرد لذا يمكن تفصيلها كالتّاليّ :

النمط الأول: المرويّ له الضّمنيّ غير الممسرح هو نمط غائب عن عالم السّرد، قابع خارجه، غير ظاهر وليس له وجود ملموس إلا من خلال إشارات الرّاويّ إليه ؛ لذا فهو غامض لا توجد أيّ إشارة نصّية لصفاته وأهميته[31]، حيث لم تتم شخصيّته داخل بنية العالم الحكائيّ لأنّه لا يعدّ «شخصيّة من شخصّيات الحكاية التّي تُروى له، وغيابه عن أحداثها مطلق لا اسم له ولا جنس ولا أصل ولا انتماء»[32]. لذلك يعدّ

حضوره في البناء الحكائيّ حضورًا ضمنيًا غير مباشر لأنّه شخصّية خياليّة قابعة في ذهن الرّاوي يخاطبها بين الحين والآخر وتتمظهر من خلال الرّوايّة بضمير المتكلم.

الرّواية بضمير المتكلم:

يرتكز الخطاب السّرديّ في بعض مواقفه على ضمائر تكشف عن خطابها للمروي له، كأنّه حاضر يتلقى السّرد على الرّغم من غيابه عن العالم الحكائيّ، وعلى الرّغم من أنّ الرّاوي يتلفظ بالنّصّ دون أن يكشف عن ماهيّة المرويّ له إلا أنّ مجرد حضور «الأنا المعبر عنها بإسناد الأفعال لذات الرّاوي، ومتعلقاتها اللغويّة كضمير المتكلم المفرد، وضمير الملكيّة العائد على المفرد المتكلم، يستلزم حضورًا متزامنًا للأنت التي تقف لتلقي خطاب الأنا السّاردة، فالصّوت السّارد هنا يعتمد في الحكي على الأنـا، وحديث الأنـا في عمقه الـرّوائـيّ هو خطاب الأنت»(33). يمكن التّمثيل لهذا النّمط بالبنية السّرديّة التّاليّة:

> قال الـرّاويّ: «بينما أنـا ذات يوم بالباديّة، فخرجت في بعض ليالي الظلم ، فإذا أنا بجاريّة كأنّها علم، فأردتها عن نفسها، فقالت: ويحك أمالك زاجر من عقل؟ إذا لم يكن ناه من دين؟ قلت لها: واللّه لا يرانا شيء إلا الكواكب. قالت: ويحك فأين مكوكبها؟»(34).

يتمثل في البنية السّرديّة السّابقة خطاب الرّاوي الذي هو خطاب الأنا – بينما أنا ، خرجت أنا ، فإذا أنا بجارية.... فأردتها أنا – يتجلى خطاب الأنا من خلال السّرد الموضوعي وخطاب الأنا يدل على حضور المرويّ لـه... الأنـت على «اعتبار أنّ توالي الأصـوات للحكي بضمير المتكلم أوجد بالتبعيّة وجودًا متخيلًا للمروي له»(35). لذلك تولت إحدى الشخصيات دور الـرّاوي ونقلت الحدث من الزّمن الماضي – زمن وقوعه إلى زمن الحكي ليسرده إلى مروي له محدد لكنه متخيل ليس له

وجود داخل البنية السّرديّة إلا أنّ خطاب الرّاوي الذي هو خطاب الأنا مثل علامة كبرى على حضوره. لذلك يحاول الرّاوي تأمين تواصل جيد معه من خلال تقديم معطيات تقرّب عالم الحدث الغائب عنه ؛ لذا عمد إلى تحديد الفضاء المكانيّ «البادية» والفضاء الزماني «ليالي الظلم» والشخصيات المشاركة في صنع الحدث «الجارية، وهيئته الشّخصيّة» «كأنه علم»، هيأ الرّاوي بهذه المعطيّات - المكانية وما يفترض فيها من الخلو والقفر، والزمانية وما تطرحه من عتمة وظلمة والشّخصيّة وجمالها - ذهن المرويّ له لتلقي الحدث المترتب على هذه المعطيّات كما تخلق عنده الرغبة لمعرفة المزيد حتّى وإن لم يُظهر المرويّ له هذه الرّغبة إلا أنّ سلبيته وصمته كانت تدفع الرّاوي إلى الاسترسال في رواية بقية الحدث لينقل ما تم بينه وبين الجارية من حوار كانت فيه الغلبة للجاريّة لما امتازت به من قوّة حجاجيّة استطاعت بها إيقاظ غفلة الرجل.

وهكذا نقل الرّاوي للمروي له أحداث البنية السّرديّة كاملة وعلى غرار البنية السّرديّة السّابقة البنى التّاليّة:

قال أبّان بن تغلب: «خرجت في طلب الكلأ، فانتهيت إلى مياه كلب، وإذا أعرابيّ على ذلك الماء ومعه كتاب منشور يقرؤه...»(36).

قال أعرابيّ: «رأيت بطريق مكة أعرابيّة تبيع الحرض لم أرَ قط أجمل منها ...»(37).

تتمثل في البنى السّابقة سردًا موضوعيًا يتولى الرّاويّ فيه زمام الحكي مستندًا على ضمير المتكلم - خرجت، انتهيت، رأيت - يتوجه بحكيه إلى مروي له غائب عن النّصّ لذلك لا يوجه له الخطاب بصورة مباشرة، ولكنه يوجه إلى مروي له خياليّ موجود في ذهن الراوي لا توجد له ملامح أو صفات محددة كما هو معتاد، بل يغفل الرّاويّ هذا

الجانب ليكون المرويّ له خفيًا غير ممسرح كما إنّه مروي له سلبيّ غير مشارك في الأحداث وقد ارتبطت هذه السّلبيّة «بالسّرد الموضوعيّ يغيب المرويّ له ولا يشارك في السّرد»(38). ولكن على الرّغم من هذا الغياب الظّاهر إلا إنّ حضوره التّخييليّ يعدّ لازبًا؛ لأنّ النّصّ المتلفظ به من قبل الرّاوي يفقد معناه وقيمته إذا لم يتوجه إلى مروي له معين، أي مستقبل يمنح الرّاوي/ المرسل دافعًا لاستمرار عملية الإرسال المنوط به تأديتها، كما تكمن وظيفة المرويّ له في تلقي السّرد من الرّاوي لذا «يتجه نحو القاص ويصغي إليه تارة، وتارة أخرى يلتفت إلى القصّة نفسها ويأخذ بمراقبتها»(39).

النمط الثّاني: المرويّ له الصريح الممسرح.

يتجلى المرويّ له الممسرح في أحد شخصيّات العمل الحكائيّ إذ يتماهى معها تماهيًا كليًا ويقف مقابلًا للرّاويّ يتلقى عنه؛ لذا تتم تسميته داخل النّصّ السّرديّ، ويثبت الرّاويّ حضوره من خلال شخصيّة حكائيّة معينة يتم توجيه الخطاب إليها «فالمسرود له يمكن أنّ يمثل واحدًا من الشخصيات، ويلعب دورًا أقلّ أو أكثر في الوقائع المرويّة»(40) وتعيين هذا النّمط وتحديده سهل ميسور لا يثير أي لبس لوضوح علاماته داخل النّصّ الحكائيّ.

ويمكن أنّ نقف على المرويّ له الممسرح في كتاب: (بلاغات النّساء) من خلال تشكلاته المتعددّة في الخطاب السّرديّ متذرعًا بوسائل عدة للظهور منها .

- صيغة المخاطب المباشرة.
- صيغة النّداء.
- صيغة النّصح المتركبة من فعلي الأمر والنّهي .
- الجمل الدّعائية.

صيغة المخاطب المباشرة:

يرتبط توظيف ضمير المخاطب في السّرد بميشال بوتور عبر روايته الشهيرة (التّحرير) أو (العدول) أو (التّحولات). وتوهم هذه الصّيغة السّرديّة بتبادل الأدوار ، وبالتّطابق بين المؤلف والبطل والقارئ من جهة والرّاويّ والمرويّ له من جهة ثانية، وغالبًا ما تحوّل زمن السّرد إلى المضارع أو المستقبل وهي صيغة لها وظيفتها التّعبيريّة والجماليّة ودلالتها الفنيّة والسّيكولوجيّة وليست مجرد تنويع شكليّ[41].

من ذلك الأبنية السّرديّة التّاليّة:

- إنّك ما عملت لضيق الفناء، صغير الإناء ، قبيح الثناء. أنت والله ماعلمت إن كنت لواهية العقد ، قليلة الرفد، مجانبة للرشد... وأنت والله إن كنت لصارع السيف في البلاء، ضائع الضيف في الكلاء منتهجًا للؤم في الملأ... وأنت والله لطويلة اللّسان، مؤذية للجيران ، عارية المكان...[42].
- رأيتك إذا جلست تهدمت، وإذا قمت عجنت، وإذا مشيت هدجت[43].

توجه خطاب الرّاوي إلى مرويّ له موجود داخل النّصّ ، متمثلًا في أحد شخوصه مما يدل على اهتمامه به، مركزًا في هذا الخطاب على اللّحظة الزّمنيّة الحاضرة التي تنفتح على المستقبل وما بعده.

صيغة النداء:

النّداء عامة هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب أنادي المنقول من الخبر إلى الإنشاء[44]. لذلك هو وسيلة لعقد صلة بين المرسل والمتلقيّ أي الرّاوي والمرويّ له.

وفي كتاب: (بلاغات النّساء) تتنوع أدوات النداء، كما تتنوع صور المرويّ له المنادى ويمكن التّمثيل لذلك بالبنى السّرديّة التّاليّة:

- «يا هذا لا يطمعك والله برك في تزويقي الباطل، ولايؤنسك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق»[45].
- «يا صاحب الحلة إنّ الكرم واللؤم ليسا في بردتك هذه؛ ولكنها تحتها فليحسن فعلك، يحسن لباسك ولو لبست طمرًا ماشنأك»[46].
- «يا أمير المؤمنين إنّي قد آليت على نفسي أن لا أسال أميرًا أعنت عليه»[47].
- «يا أيّها الناس إنّ المصباح لا يضئ في الشمس»[48].

شكّل النّداء في الأبنية السّرديّة السّابقة عقد صلة بين الرّاوي والمرويّ له، ووسيلة لتقليص المسافة الفاصلة بينهما إلى حدود السّماع، ووسيلة لجذب انتباهه وإشراكه في النّصّ بالإضافة إلى إشعار المتلقي الخارجيّ بوجوده في النّصّ شخصيّة ماثلة حيّة تعي الخطاب الموجه إليها وقد تنوع المنادى فجاء مفردًا محددًا: يا هذا، ومجهولًا: ياصاحب الحلة، أو جمعًا عامًا: أيها الناس.

صيغة النّصّح المُتراكبة من فعلي الأمر أو النّهي:

يعتبر أسلوب النّهي هو الوجه السّلبيّ لأسلوب الأمر فإذا كان الأمر طلبًا لفعل أمر معين؛ فإنّ النّهي طلب الامتناع عن فعل معين. فالمعنى الأصلي للنّهي هو «طلب الكف عن الفعل و الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام ، وله صيغة واحدة هي المضارع المقترن بلا الناهية»[49].

وفي كتاب: (بلاغات النّساء) نلحظ حضور صيغتي الأمر والنّهي على هيئة النّصح فلا تعدّ أمرًا بالكف والامتناع عن فعل من راوٍ إلى مروي له بقدر ما تحمل من مدلولات وقيم و أفكار تلامس المجتمع من ذلك نصيحة امرأة لابنتها ليلة زواجها مستخدمة صيغتي الأمر والنّهي معًا وفي أكثر من تركيب فقالت:

«عطري جلدك، وأطيعي زوجك، واجعلي الماء آخر طيبك... لا تجلسي بالفناء، ولاتكثري من المراء... لاتطاوعي زوجك فتمليه، ولا تعصيه فتشكيه... أدني سترك»[50].

ومن ذلك أيضًا قول جمانة بنت قيس بن زهير العبسيّ لجدّها زهير في أمر لأبيها رغبة في رأب الصدع بينهما، فقالت: «ليس قيس ممن يخوّف بالوعيد، ولا يردعه التّهديد، فلا تركن منابذته، فالحزم في مشاركته»[51].

ولعل التعليل الذي سبق في الأمثلة السّابقة:

لا تطاوعي زوجك فتمليه.

لا تعصيه فتشتكيه.

لا تركن منابذته فالحزم في مشاركته. قد أخرج هذه الصّيغ من الأمر والنّهي إلى صيغة النّصح كما أنّها دلت على حضور المرويّ له.

الجمل الدّعائيّة:

تتطلب البنى الدعائية مرسلاً ومستقبلاً حاضراً ماثلاً يتلقى الخطاب ويعيه، وإذا ما كان الـرّاويّ هو المرسل؛ فإنّ المستقبل هو المرويّ له لذلك يحمل الدّعاء إشارة دالة على وجوده ماثلًا أمام الرّاوي كما يحمل رغبة الرّاويّ في التّأثير النّفسيّ عليه تأثيراً يحمله على الاطمئنان له والثّقة به .

وفي كتاب: (بلاغات النّساء) تبرز البنى الدعائية الموجهة إلى مروي له ماثل في النّصّ من ذلك:

- دعاء امرأة لمن لام زوجها على ضربها فقالت: «أصلحك الله إنّ له عذرًا فدعه»[52].
- دعاء امرأة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه «أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك»[53].

– دعاء امرأة مثنية على زوجها فقالت: «جزيت من صاحب ومصحوب خيرًا»(54).

توجّه الخطاب في البنى الدّعائيّة السّابقة إلى مروي له حاضر ماثل في النّصّ الحكائيّ يعي مضمون الدّعاء ويتأثر به، وقد وردت هذه البنى في صيغة الماضي خلافًا لأصل الدّعاء المقترن بالمستقبل ليتمخض هذا الانزياح الزّمنيّ عن دلالة مهمة تحمل الدّعاء من زمن الاستقبال إلى الزّمن الماضي لمنح المرويّ له إحساسًا بالاطمئنان الذي يحياه نتيجة تحقق مضمون الدعاء وبذلك يمارس الرّاويّ نوعًا من الاستدراج للمروي له فيمنحه الثّقة به والإنّصات إليه، ولكن كثرة ورود هذه البنى الدّعائيّة بصيغة الماضي في كتاب: (بلاغات النّساء) لا يعني وقوفها على صيغة الماضي فحسب إنّما ترد في صيغة الزمن الآني – المضارع من ذلك قول رجل لأبي جعفر عند ما كان يضع على جسده ثوبًا مبلولاً ليخفف حرارة الحمى: «يرحمك اللّه إنّ من قبلنا من الأطباء يزعمون إنّ هذا يهيج الحمى»(55). ولعل صيغة المضارع – يرحمك اللّه – الواردة في بنية الدّعاء تتناسب مع حال المدعو له – المرويّ له – لأنّ ما به من الحمى أمر آني مؤقت فدعا له رغبة في زوال ما به. فقال: يرحمك اللّه. وهكذا يتضح حضور المرويّ له الصّريح في البنية الحكائيّة.

أشكال حضور المرويّ له الممسرح / الصريح:

تتنوع أشكال حضور المرويّ له الممسرح داخل البناء الحكائيّ وتتوزع بين الحضور الفرديّ والجمعيّ والثّابت والمتحول ويمكن التّمثيل لهذه الأشكال كالتّاليّ:

1. **الفرديّ الثّابت**: وهو المرويّ له الواحد الذي يمثل إحدى الشخصيات الحكائيّة داخل النّصّ ، ويظل على مدار النّصّ متحفظًا بدوره في استقبال حديث الرّاويّ دون أن يطرأ عليه أي تغيير يوازي أو يماثل

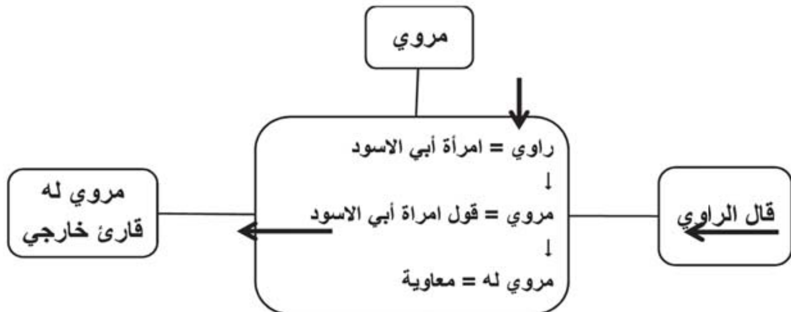
مع ما يطرأ على النّصّ وأحداثه من تطور وتنامٍ ويمثل الترسيم التّالي نموذجًا له .



ويمكن تمثيل هذا الترسيم في البنية السّرديّة التّاليّة:

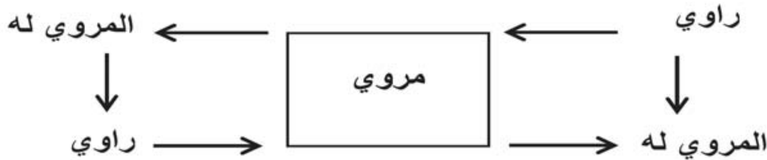
قال الرّاوي: «أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤليّ حتّى حاذت معاوية وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته، إنّ اللّه جعلك خليفة في البلاد، ورقيبًا على العباد، يُستسقى بك المطر، وينبت بك الشجر، وتؤلف بك الأهواء، ويأمن بك الخائف، ويردع بك الجانف، فأنت الخليفة المصطفى، والإمام المرتضى، فاسأل اللّه لك النعمة في غير تغيير، والعافية من غير تعذير...»(56) .

يظهر في البنية السّرديّة السّابقة راويان يقبع أحدهما خارج النّصّ المرويّ له كذلك – القارئ الخارجيّ – على حين يقع الآخر داخل النّصّ والمرويّ له كذلك – معاوية – يمكن ترسيم هذا على النّحو التّاليّ:



اتّخذ المرويّ له الدّاخليّ – معاوية – دور المتلقيّ فقط دون أن يطرأ عليه أي تغيير فكان صامتًا؛ ولكن صمته أتاح فرصة للحكي والتّوضيح لتقريب صورة المحكي إلى مخيلة المرويّ له الذي يبدو مقتنعًا بصدق ما يحكى.

2. **الفرديّ المتحوّل**: وهو المرويّ له الواحد الذي يمثل إحدى الشخصيات الحكائيّة داخل البنية السّرديّة، ولكنّه يتمتع بشيء من الحرية تمكنه من الخروج من نمط دور المرويّ له في الاستقبال وتبادل الأدوار مع الرّاويّ فيصبح المرويّ له راويًا، والرّاويّ مرويًا له.



ولعل أوضح أشكال التّحول الفرديّ تتم من خلال توجيه الرّاويّ سؤالاً استعلامياً للمروي له فعند إجابته على السّؤال المطروح يتحول إلى راوٍ ويكون النّصّ مجالًا يفيض من خلاله على السؤال المطروح فيستلهمٍ النّصّ تقنية الحكي الشّفاهيّ التي تستحضر شخصين في سياق واحد إحداهما تسأل والأخرى تقوم بالإجابة ويمكن توضيح هذا التّحول من خلال البنية السّرديّة التّاليّة:

«قال الرّاويّ: استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانيّة على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، فلما دخلت عليه قال: هيه يا بنت الأسك ألست القائلة يوم صفين:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليًا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
إنّ الإمام أخو النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقه الحتوف وسر أمام لوائه ... قدمًا بأبيض صارم سنان

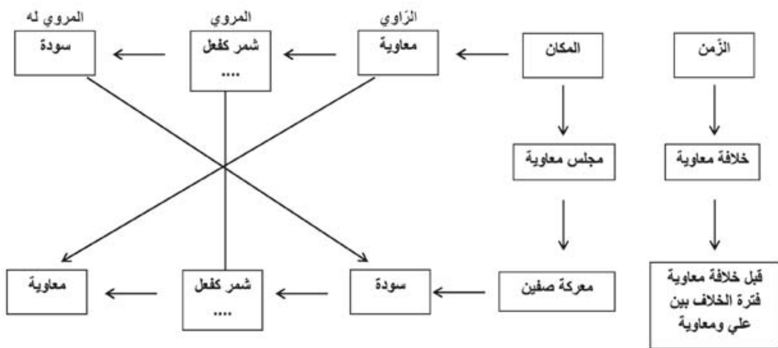
قالت: أي والله ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب قال لها: فما حملك على ذلك ؟

قالت: حب عليّ عليه السلام، واتّباع الحق...»[57].

تضعنا البنية السّرديّة السّابقة أمام علاقات تبادليّة لشخصين من شخصيات البنية الحكائيّة السّابقة ، تتمثل هذه العلاقة من خلال

تبادل الأدوار بين الرّاويّ والمرويّ له في زمنين مختلفين. اعتمدت البنية السّرديّة السّابقة على المفارقة الزمانيّة، وبذلك لم تتقيد بالتّتابع المنطقيّ للأحداث، فخرجت عن التّرتيب الطّبيعيّ للزّمن بعودة الأحداث للوراء(58). من خلال خاصيّة السّرد الاستذكاريّ. لذا اسُتدعيت أحداث ماضيّة للحظة الحاضر مرتبطة بلحظة شعوريّة استدعتها رؤية سودة بنت عمارة في مجلس معاوية وهي الكارهة له والمواليّة لعليّ، رضي الله عنه، وبهذا يتحقق قول غاستون باشلار: «لايمكن إحياء الماضي إلا بتقيده بموضوعه شعورية حاضره بالضرورة بكلام الآخر حتّى نشعر أننا عشنا زمنًا وهو شعور غامض دائما بشكل خاص»(59). إلا أنّ الاستذكار لم يتم في البنية السّرديّة السّابقة عن طريق الرّاوي نفسه وإنّما استدعاه المرويّ له عند روايته للرّاوي في موقف مختلف أدلوجيا عن موقفه السّابق وبذلك أخذ صفة الرّاوي واستسلم الرّاوي السّابق لدور المرويّ له وبذلك يدخل المتلقي في لعبة تبادل الأدوار فتذوب الحدود الفاصلة بين الرّاوي والمتلقي، ويتزامن ذلك مع ظهور ثقافة المتلقي وتمثله معارف عصره وهذا يجعل معرفة الرّاوي، ووعي المرويّ له في حقل معرفيّ ثقافيّ ينتهي بهما إلى ثقافة واحدة جمعتهما، وتمخضت عن ذلك النّصّ الذي يؤكد أنّ خصوصيّة القراءة والتّلقي تختلف من زمن إلى زمن آخر.

يجعل الترسيم التّاليّ توضيحًا للعلاقة التّبادليّة :



3. **المرويّ لهم الجمعيّ المتحوّل**: يمثل هذا النوع مجموعة من المتلقّين الذي يدخلون معًا لساحة صراع يعتلي قمتها بشكل مؤقت واحد منهم بوصفه راويًا ثم سرعان ما يتنازل عن اعتلاء القمّة لصالح غيره ويعود إلى صفوف المرويِّ لهم.

قال الرّاوي: دخلت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان بعد أن كبرت سنها، ودق عظمها، ومعها خادمان لها، وهي متكئة عليهما، وبيدها عكاز، فسلمت على معاوية بالخلافة، فأحسن عليها الرد، وأذن لها في الجلوس، وكان عنده مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص فابتدأ مروان فقال: أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن هي؟ قال: هي التي كانت تعين علينا يوم صفين؛ وهي القائلة:

يا زيد دونك فاستشر من دارنا سيفا حسامًا في التراب دفينا
قد كان مذخورًا لكل عظيمة فاليوم أبرزه الزّمان مصونا

فقال عمرو بن العاص : وهي القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكًا هيهات ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت عليًا أسعد وسعود

فقال سعيد: يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبًا
فالله أخر مدتي فتطاولت حتّى رأيت من الزّمان عجائبًا
في كل يوم لايزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائبًا

ثم سكت القوم. فقالت بكارة: نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين، واعتورتني فقصر محجتي، وكثر عجبي، وعشي بصري، وأنا والله قائلة ما قالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب فأمضي لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين. فقال معاوية: «إنّه لا يضعك شيء فاذكري حاجتك تقضى. فقضى حوائجها، وردها إلى بلدها»(60).

تقوم البنية السّرديّة السّابقة على عدة علاقات تبادليّة تشترك في بناء هذه العلاقات جميع الشّخصيّات الحكائيّة وقد رافق تبدل العلاقات مفارقة زمانيّة مكانيّة وتغيير الظروف السّياسيّة المحيطة بالشّخصيّات تظهر هذه المفارقات بعد أن ينتهي الرّاويّ الخارجيّ من تحديد الشّخصيّات الحكائيّة والمكان والزمان. ويتراجع فتنهض الشخصيات الحكائية بالمسؤوليّة في سرد الحكي وتبادل العلاقات بين شخوص البنية السّرديّة عبر المفارقات الزّمانية والمكانيّة، ففي الماضي زمن الحدث احتلت صفين ساحة المعركة الحربية بين عليّ ومعاوية رضي اللّٰه عنه ومعركة كلامية بين أنصار الفريقين فاستل كل منهم سلاحة من ذلك بكارة الهلاليّة ودفاعها المستميت عن عليّ رضي اللّٰه عنه فحكت وروت أشعارًا حددت بها موقفها ، وفي الصف الثّاني كان هناك مروي عليهم منهم مروان بن الحكم ، عمرو بن العاص وسعيد . في زمن القصّ اسُتعيدت هذه الأحداث والمرويّات ولكن لم يتم استرجاعها عن طريق الرّاويّ الرئيسي الصّانع للحدث وإنّما تم استرجاعها عن طريق المرويّ عليهم شهود الحدث، والذين تحولوا إلى رواة يروي كلّ منهم جزءاً من المرويّ الذي عبر سابقًا عن موقف راويه وأصبح دليل إدانة له.

وظائف المرويّ له ودوره في البنية السّرديّة:

يضطلع المرويّ له في كتاب: (بلاغات النّساء) بوظائف عدّة، تتحددّ هذه الوظائف من خلال علاقته بالرّاويّ، فهي التي تساعد في توجيه النّصّ وطرح أفكاره، وترتيب الوعيّ المنهجيّ الذي يسلكه المؤلف الحقيقيّ في الكشف عن مضامين نصه ودلالاته[61]. وعلى الرّغم من هذه الوظائف وأهميتها إلا أنّ التلقي يعدّ المهمة الأولى للمروي له فهو الذي يتلقى ما يرسله الرّاوي ويختلف دور المرويّ له في التّلقي إيجابًا وسلبًا تبعًا لعلاقته بالرّاويّ فقد يقف المرويّ له على دور التّلقي فقط

من غير معارضة أو إبداء رأي أو ردة فعل إزاء ما يعرض عليه من ذلك المرويّ له الوارد في البنية السّرديّة التّاليّة:

«قال الرّاويّ: كانت حميدة بنت النعمان بن بشير بن سعد، تحت رَوحْ بن زنباع فنظر إليها يومًا تنظر إلى قومه جذام وقد اجتمعوا عنده فلامها فقالت : وهل أرى إلا جذامًا فو اللّه ما أحب الحلال منهم فكيف بالحرام وقالت تهجوه:

بكى الخز من روح وأنكر جلده وعجَّت عجيجًا من جذام المطارف
وقال العباء: نحن كنَّا ثيابهم وأكسيه كدريَّة وقطائف(62)

تلقى المرويّ له الضّمنيّ القابع خارج البنية السّرديّة النّصّ المرويّ من خلال راوٍ استعلائي ينظر للأحداث بوجهة نظر شموليّة أحاطت بالشخوص وطبيعة العلاقة بينهم وقدم المرويّ له راوياً خارجيّاً اكتفى بدور سلبيّ فلم يستوضح، أو يسأل، أو يعقب على المرويّ واكتفى بدور التلقي فقط وقد يكون المرويّ له حاضراً داخل البنية السّرديّة ويظلّ سلبيًا واقفًا على دور التّلقي فقط من ذلك ما ورد في خطاب السّيدة فاطمة بنت محمد صلى اللّه عليه وسلم عندما علمت بإجماع أبي بكر رضي اللّه عنه على منعها فدك فقالت:

> «أيها الناس، أنا فاطمة، وأبي محمد صلى اللّه عليه وسلم أقولها عودًا على بدء، ولقد جاءكم رسول من أنفسكم.... معشر البقية وأعضاء الملة، وحصون الإسلام، ما هذه الغميرة في حقّيّ؟ والسّنة ظلامتيّ؟ أما قال رسول اللّه صلى ا للّه عليه وسلم: المرء يحفظ في ولده؟...»(63).

توجه الرّاوي إلى جمع من المرويّ لهم حاضرين في النّصّ، ماثلين من خلال النّداء حينًا «أيّها النّاس، معشر البقية..» وحينًا آخر من خلال الضّمائر المتصلة بالفعل «جاءكم» أو المتصلة بالاسم «أنفسكم»وعلى الرّغم من حضورهم إلا إنّهم ظلّوا صامتين سلبيين حتّى مع النّداء

الموجه إليهم والذي يعتبر وسيلة تحفيزية تواصليّة إلا أننا لا نلحظ منهم أي إجابة أو تعليق حول ما يروى عليهم .

وقد يتجاوز المرويّ له دور التّلقي السّلبيّ إلى الإيجابيّة فيكون عنصرًا مؤثرًا في بناء النّصّ، والتأثير على الرّاويّ من ذلك ما ورد في خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جمع من النّاس بينهم امرأة فكان كالتّاليّ :

«قال عمر بن الخطاب: أيّها النّاس ما هذه الصداقات التي مددتم إليها أيديكم، لا يبلغني أنّ أحدًا جاوز بصداقه صداق النبي صلى الله عليه وسلم... فقامت إليه امرأة برزة فقالت: ما جعل الله لك ذلك يا ابن الخطاب، وقد قال الله، عزّوجلّ: ﴿**وإنّ آتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا**﴾ فقال عمر: لا تعجبون أميرًا أخطأ، وامرأة أصابت. ناضل أميركم فنضل»(64) .

شكلّ صوت المرويّ له المرأة ركيزة أساسيّة في البنية السّرديّة فكان صوتها المحاور للراوي محفزًا لتغيير فكر الرّاويّ نفسه، وتغيير الغاية التي كان يهدف إليها، كما أظهرت المحاورة ثقافة المرويّ له وقدرته على الجدل والاستدلال، ولو ظلّت المرأة صامتة سلبيّة لأصبح رأي الـرّاويّ نافذًا، كما شكلّ حضور المرويّ له في منطقة الحكي، واقترابه من حدود التماس مع الواقع محفزًا منطقيًا ووسيلة تدفع السّارد للاستمرار في الحكي وتحدد اهتمامات المرويّ عليه، والعصر وأحداثه، وجهة السّرد.

ومن خلال وظيفة التّلقي يتخذ المرويّ له دور الوسيط بين الرّاوي والقارئ الخارجيّ. وبهذه الوساطة يساعد في طرح منظور الـرّاويّ على الملتقي الخارجيّ فيستغل الرّاويّ المرويّ له سواء أكان مروياً له ضمنيّاً أم مباشر ليدفعه إلى الإيجابيّة ويعمل على تفعيل دوره في اتجاه البناء الحكائيّ فيتجاوز المرويّ له دور التّلقي إلى سد فراغات النّصّ،

كما يعدّ المرويّ له أيضًا وسيطًا بين المرويّ والثّقافة التي يقدم إليها النّصّ، فإذا كان دور الرّاوي يتركز في الإعلان عن حضور النوع ؛ فإنّ الرّاويّ عليه خاصة يعدّ مندوب النّصّ الذي يتلقى إعلان الرّاوي ليؤديه إلى ثقافة[65] وبذلك تفرض الثّقافة المقدم إليها النّصّ نفسها على القارئ الخارجيّ حتّى يستحيل عليه بدونها فهم النّصّ دون أن يتعايش مع أحداث تلك الفترة.

وقد يتجاوز المرويّ له دور التّلقي والسّرد والتّحفيز ليصبح شريكًا في خلق البنية السّرديّة، ويظهر ذلك من خلال تبادل الأدوار بينه وبين الرّاوي، فيأخذ كلّ منهما دور الآخر، وتسقط المسافة بينهما، ويحمل كل منهما بعضًا من صفات الآخر ويشكل كل منهما محفزًا للآخر، فيسهمان معًا في خلق البنية السّرديّة، وتظهر هذه المهمة بوضوح من خلال تقنيتى السؤال والحوار الذي يستحضر فيهما شخصين في سياق واحد أحدهما يسأل والآخر تجيب، ومن ذلك سؤال معاوية بن أبي سفيان، جروة بنت مرة بن غالب، قال معاوية لجروة بنت مرة:

إنّي احتجمت، فأعقبني ذلك أرقًا، فأرسلت إليك تخبريني عن قومك؟

قالت : عن أي قومي تسألني ؟

قال : عن بني تميم .

قالت: يا أمير المؤمنين، هم أكثر الناس عددًا، وأوسعه بلدًا وأبعده أمدًا. هم الذّهب الأحمر، والحسب الأفخر.

قال: صدقتِ فنزليهم لي .

قالت: يا أمير المؤمنين، أمّا بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة، وتحاشد وشدة، لا يتخاذلون عند اللقاء ولا يطمع فيهم الأعداء، سلمهم فيهم، وسيفهم على عدوهم .

قال: صدقتِ، ونعم القوم لأنفسهم.

قالت وأمّا بنو سعد بن زيد بن مناه ، ففي العددّ الأكثرون ، وفي النسب الأطيبون ...»[66] .

يصدر النّصّ السابق بناءً على سؤال استعلامي من الرّاوي للمروي له ، شكلّ السؤال حافزًا لاستمرار عملية الحكي من خلال تبادل الأدوار بين الـرّاويّ والمرويّ له، وأكسب النّصّ الذي هو مـردوده مشروعيّة التّدفق الحكائيّ وفتح باب للحوار بينهما. تمخّض هذا السّؤال والحوار عن ولادة نص منهما معًا. كما أسهم السّؤال في الكشف عن أهمية المحكي الصادرة عن أهميّة الحاكي العارف الذي يتوجه إليه بالسّؤال الذي يملك إجابته، والتي تدفع السّرد نحو التطور حيث يترتب على كل سؤال إجابة وتعددّ الأسئلة ينتج عنها تعددّ الإجابات التي تشكلّ في مجموعها البنية السّرديّة. وبذلك يكتمل البناء السّرديّ من خلال الأسئلة وأجوبتها، وقد أسهم في خلقها كل من الرّاوي والمرويّ له إذ يتحول الرّاوي إلى مرويّ له بعد أن يتوجه له بالسّؤال المحفز له على الحكي ويصبح المرويّ له راويًا وهكذا. كما نلحظ في البنية السّرديّة السّابقة أنّ تقنية السّؤال فتحت بابًا لتقنية الحوار الذي عزز عملية التّحفيز على الحكي وكسر احتكار السّارد للسّرد، وشكلّ تنوعًا في مصادر الإرسال والاستقبال، ولا شك أنّ السؤال والحوار يجعلان النّصّ أكثر حيوية وتشويقًا وأكثر مصداقيّة وقبولاً، وبالتّاليّ يكون الحكي أكثر تدفقًا كما نلحظ وضوح التّكامل بين الأداء والموضوع، فكان الوصول إلى الغاية يتم من خلال جدلية المعاني وتدرجها في تشكيل قناعات وآراء عند المتلقيّ.

وهكذا نلحظ أنّ المرويّ له في كتاب: (بلاغات النّساء) قد تمثلت فيه الوظائف التي حددها جيرالد برانس «بأنّه يتوسط بين الـرّاويّ والقارئ ويسهم في تأسيس هيكل السّرد ويساعد على تحديد سمات الرّاويّ، ويجلو المغزى ويعمل على تنمية حبكة الأثر الأدبيّ»[67] .

خاتمــة:

انتهت هذه الدراسة - ولله الحمد والمنة - إلى تقديم قراءة لنموذج من التراث العربي من خلال دراسة المروي له في كتاب: (بلاغات النساء) لابن طيفور (ت 280هـ) بغية الكشف عن دوره في البناء الحكائي.

أوجبت الدراسة تحرير مفهوم المروي له مما علق به من خلط بينه وبين القارئ الحقيقي والقارئ الضمني بغية تحرير مفهومه، ثم الكشف عن أنماطه، وأشكال حضوره في البنية الحكائية، وتحديد وظائفه ،ودوره في البنية السردية.

توصلت الدراسة إلى تحقيق نتائج تتمثل فيما يلي:

- اعتبار المروي له بناء سردياً محضاً يفترق عن القارئ الخارجي والقارئ الضمني.
- توازي حضور المروي له مع الراوي.
- تمتع المروي له بأهمية كبيرة فهو الذي يحدد قبليا من قبل الراوي، كما أنه يحدد مايسرد عليه تبعا لثقافته وايدلوجيته.
- تعدد أنماط المروي له في البنية السردية الواحدة:
  مروي له ضمني غير ممسرح.
  مروي له مباشر ممسرح.
- تعدد أشكال حضور المروي له الممسرح:
  فردي ثابت.
  فردي متحول.
  جمعي متحول.
- ساعد تعدد أنماط وأشكال المروي له في البنية السردية الواحدة على انفتاح النص وتعدد قراءاته.

- وضوح الدور الايجابي للمروي له ومشاركته في صنع البنية السردية.
- تعدد وظائف المروي له ووضوح دوره في تشكيل البنية الحكائية لتشمل:
  - التلقي ويختلف دور المروي له في التلقي باختلاف درجة حضوره وغيابه عن النص.
  - السرد ويظهر من خلال تبادل الأدوار بين المروي له والراوي من خلال تقنيتي السؤال والحوار.
  - التوسط بين الراوي والثقافة التي يقدم إليها النص.
  - التحفيز على الحكي من خلال تقنيتي السؤال والحوار التي تكشف عن تكامل بين الأداء والموضوع، تتيح هذه التقنية الوصول إلى الغاية من خلال جدلية المعاني وتدرجها.
- يسهم المروي في بناء هيكل السرد لأنه جزء أساسي من هذا الهيكل.
- يسهم المروي له في تحديد سمات الراوي والزمان والمكان والشخصيات.

وبالوصول إلى هذه النتائج تمت الدراسة والله من وراء القصد .

الهوامش

(1) الرّاوي في السّرد العربيّ المعاصر – رواية الثمانينات بتونس – : محمد نجيب العمامّي، دار محمد علي الحامي، صفاقس، وكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، سوسة، تونس، ط(1) 2001م.ص: 141.

(2) مفهوم الرّاوية السّرديّة في الخطاب الروائي بين الائتلاف والاختلاف، مجلة فصول، م 11، ع 4، شتاء 1993م ص: 68.

(3) المصطلح السّرديّ: جيرالد برنس، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 1998م ص: 142.

(4) ثنائية (السّارد/ المسرود له) في كتاب: (في نظرية الرّواية) لـ: عبدالملك مرتاض – قراءة مصطلحية: مصطفى بوجملين، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب، الجزائري – جامعة بسكرة ، الجزائر العدد 10، 12014م ص 267.

(5) التحليل البنوي للسرد. ضمن طرائف تحليل السّرد الأدبي: رولانّ بارت. منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1992، ط 1، ص: 26.

(6) المرويّ له وسيلة حداثية في الرّاويّة التاريخية المعاصرة رضوى عاشور أنموذجًا: إنقاذ عطا اللّه العانّي، سلوى شكري النعيمي مجلة الإنّبار للغات والآداب العدد 14، السنة 2014م، ص: 2.

(7) الرّاوي في السّرد العربيّ المعاصر: ص 141.

(8) المصطلح السّرديّ: ص 143.

(9) الرّاوي في السّرد العربيّ المعاصر: ص 146.

(10) الصوت الآخر : الجوهر الحواري للخطاب الأدبي: فاضل تامر، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1992م، ص 129.

(11) مستويات النّصّ السّرديّ الأدبي: جانّ لينتفلت ، ترجمة رشيد بنمدو ، مجلة آفاق ، ع 8-9، 1988م، ص: 88.

(12) خطاب الحكاية. جيرار جينيت، ترجمة محمد معتصم المجلس الأعلى للثقافة، القاهره، ط 2 ،1997م، ص 268.

(13) المصطلح السّرديّ ص 143.

(14) معجم مصطلحات نقد الرّاويّة، لطيف زيتوني، مكتبة لبنانّ ناشرون دار النهار للنشر 2002، ص: 176.

(15) قاموس السّرديّات: جيرالد برنس، تر: السيد إمام، ميريث للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2003م، ص: 120-121.

(16) قاموس السّرديّات : ص 120

(17) دليل الناقد الأدبي : ميجانّ الرويلي وسعد البازعي المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ط 2، 2007م ، ص: 191-192.

(18) قال الرّاوي: سعيد يقطين، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، 1997م ، ص: 87.

(19) المصطلح السّرديّ في النقد الأدبي الحديث: أحمد رحيم كريم، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، 2003م، ص: 12.

(20) معجم مصطلحات السّرد، بو علي كمال، المكتبة العصرية، الروبية، الجزائر، ط1، 2002م ، ص 66.

(21) المصطلح السّرديّ: ص 142.

(22) السّرد العربيّ القديم ص 99.

(23) تحليل الخطاب الروائي - الزمن، السّرد، التبئير - سعيد يقطين (المركز الثقافي العربيّ)، بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1989م، ص: 371.

(24) المرويّ له في قصص جاسم عاصي ورواياته، أ. د: ناهضة ستار جواد، م. محمد حليم حسن (مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والإنّسإنّية/ جامعة بابل العدد 18، كإنّون الأول، 2014م ، ص: 177.

(25) وجهة النظر في رواية الأصوات العربيّة في مصر، محمد نجيب التلاوي، مطبعة إكسبرس، الميناء، ط 1، 11996م ، ص: 110.

(26) المرويّ له في الروايات العربيّة. علي عبيد، دار محمد علي للنشر وكلية الآداب بمنوبة، تونس، سنه 2012م، ص 173-195.

(27) تحليل الخطاب الروائي - الزمن، السّرد، التبئير - ص: 384.

(28) المرويّ له في قصص جاسم عاصي ورويياته: ص: 168-169.

(29) بلاغات النّساء: ابن طيفور: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، ت: 280هـ (دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت ، ط 1، ت 1987م) ص: 74،

(30) السابق ص: 30.

(31) السّرد في مقامات الهمدانّي: أيمن بكر، سلسلة دراسات أدبية العدد 102 (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 11998م، ص: 148.

(32) الرّاوي في السّرد العربيّ المعاصر، ص: 147.

(33) وجهة النظر - في رواية الأصوات العربيّة في مصر - ص: 113.

(34) بلاغات النّساء ص: 250.

(35) وجهة النظر - في رواية الأصوات العربيّة في مصر - ص: 115.

(36) بلاغات النّساء ص: 60.

(37) السابق ص: 155.

(38) المرويّ له في قصص جاسم عاصي ورواياته. ص: 182.

(39) صنعة الرّواية: بيرسيل وبول. ترجمة: عبدالستار جواد، دار الرشيد، سلسلة الكتب المترجمة، 1981م، ص: 108.

(40) المصطلح السّرديّ، ص: 143.

(41) في نظرية الرّواية . بحث في تقنيات السّرد. عبدالملك مرتاض. سلسلة عالم المعرفة، العدد 40، الكويت 1998م، ص 166-167.

(42) بلاغات النّساء: ص: 152.

(43) السابق: ص 95.

(44) جواهر البلاغة في المعانّي والبيانّ والبديع: أحمد الهاشمي (دار إحياء التّراث العربيّ ، بيروت) ص: 105.

(45) بلاغات النّساء ص: 53.

(46) السابق ص: 60.

(47) السابق ص: 49.

(48) السابق ص: 48.

(49) البلاغة العربيّة : علم المعانّي: محمود أحمد نخلة (دار المعرفة الجامعية ، مصر، 2002م، ص: 88.

(50) بلاغات النّساء ص: 131.

(51) السابق ص: 191.

(52) السابق ص: 197.

(53) السابق ص: 49.

(54) السابق ص: 127.

(55) السابق ص: 225.

(56) السابق ص : 70.

(57) السابق ص: 44.

(58) خطاب الحكاية . بحث في المنهج : جيرار جينيت ترجمة : محمد معتصم وعبدالجليل الأزدي وعمر حلمي (المجلس الأعلى الثقافي ، القاهرة ت 1997م) ص: 47.

(59) جدلية الزمن : غاستون باشلار ترجمة : خليل أحمد خليل (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط 2، ت 1982م) ص: 47.

(60) بلاغات النّساء ص: 50-51.

(61) قاموس السّرديّات ص: 123.

(62) بلاغات النّساء ص: 136.

المحسِّن البديعي وأثره الإقناعي في الخطاب الجاهلي
دراسة نصية

بدر بن علي العبدالقادر(*)

المقدمـــة:

تعدُّ المحسنات البديعية من الوسائل الضرورية التي يستدعيها الخطيب للتأثير في نفوس المُخَاطبين. فهي تقوم بوظيفة خطابية مهمة تنعكس في إظهار المشاعر والعواطف. وتوظيف المحسنات البديعية يكشف عن خفايا الكلمات ويدعم معناها. فهي حلية اللفظ وزينة المعنى إذا جاءت عفو الخاطر، ولم تكن متكلفة أو مصطنعة؛ حينئذ يظهر جمالها في الأسلوب، وتأثيرها في استمالة الأسماع، وتحقيق الإقناع. فهي ليست مجرد تلاعب لفظي، أو استعراض لغوي يُقصد منه إظهار البلاغة الأسلوبية، والقدرة اللغوية، وإلا أصبحت عكس الفصاحة، وضعفا في الأسلوب، وعجزا لدى المُخَاطِب ومن ثم عدم تأثير في أسماع المتلقين.

وعليه، يناقش هذا البحث موضوع استخدام المحسن البديعي بنوعية اللفظي والمعنوي في الخطاب الجاهلي من خلال تعريف المحسن البديعي وعرض نماذجه التطبيقية في الخطاب الجاهلي مع بيان الغرض من استخدامه وأثره الإقناعي، والخروج بنتائج عامة.

(*) أستاذ تحليل الخطاب المساعد في قسم علم اللغة التطبيقي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

المحسنات البديعية وأَثَرُها الإقنَاعي في الخِطَاب الجَاهلي:

البديع هو: «النّظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد»[1]، فمنه ما يكون لفظيًّا كالجناس، والسجع، ومنها ما يكون معنويًّا كالطباق والمقابلة. والمُحسن البديعي: «حلية يروق الأذن منها ما جاء في مكانه، وكان قليلاً لا يخفى به جلال المعنى، ولا يذهب بهدف الشاعر، بل يخدم هذا الهدف ويزيد جمال المعنى؛ وذلك حين يأتي به المعنى ويتطلبه إيضاح الفكرة»[2]، ونُدرتها في الكلام عيبٌ في الصّنعة، والإكثار منها قدح في الطّبع، وإيهام للمعنى الأصلي، وتحول من الهدف إلى الوسيلة، فتكون هي الشغل الشّاغل، فيُهمل المعنى، ولا يُعطى حقه، وهذا مُعيب للمُخاطِب وخطابه، ولأن المُحسن البديعي حلية لفظية يُحسَّن بها المعنى فقد ذكر أبو هلال العسكري: «إن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة»[3].

وقد كان للعرب عناية بالبديع في الشعر؛ ولذا ارتبط به ارتباط العرب بالشعر وإكثارهم منه، وتعلقهم به، وإفشاؤه في المواقف، وتمثله في القصائد، على أن عنايتهم بالبديع في النثر لم تقل عن عنايتهم به في الشعر، فقد كان البديع عندهم طبعا وسجيّة لا تكلف فيه، يتوقف على الحالة النفسية للمُخَاطِب، فحيث تختفي نبرة التحدي والمنافسة ينساب البديع، فيُنغِم الكلام، ويُنمّق الألفاظ، ويُوضّح المعاني، وحين تعلو نبرة التحدي والمنافسة والمفاخرة يكون البديع تكلفًا هدفه الرغبة في إبراز الموهبة، أو السيطرة على الموقف، وإرباك الخصم، وبذا يفقد البديع جانبًا من قيمته الفنية والمعنوية.

وتبيِّنُ دراسة الخطاب الجاهلي النثري نوع المحسنات البديعية وحجمها في خطابهم، نجملها في الآتي:

1 - الطباق والمقابلة:

الطِّباق: «في اللغة: الجمع بين الشيئين»[4]، ويعني: «الجمع بين الشيء وضده»[5]، من: طابَقَ الشيءَ على الشيءِ مُطَابقةً وطباقًا، أي: أطبَقَهُ عليه، وهذا الإِطباق يقتضي في الغالب التعاكس[6]، وبعبارة أوضح: «الجمع بين لفظتين متقابلتين في المعنى، أي: متضادتين»[7]. وفي الاصطلاح: «المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدِّه في جزءٍ من أجزاء الرِّسالة أو الخطبة»[8]، وتكمنُ وظيفته الإقناعية في: «توضيح المعنى، حيث يدعم المعنى بقوة الوضوح، ويجعل الدلالة واضحة مُقنعة، والطباق، وسيلة حِجَاجِيَّة، يوضح...وقوع المعنى في ذهن السامع موقعًا يجعله يقتنع، ويتحقق هذا حين يجمع الطباق بين معنيين متقابلين، وهذا يبين موضع الطِّباق في الحِجَاج وقيمته الإقناعية»[9]، لأنَّ المطابقة تعني القدرة على: «الجمع بين المتضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة»[10].

أما المقابلة فهي في اللغة من: قابل غيره، أي: واجَهه، وقابل الشيء بالشيء: عارضه ليرى وجه التشابه أو الاختلاف بينهما، والمقابَلة: المواجهة والتقابُل مثله[11]، وفي الاصطلاح: «إيراد الكلام، ثم مقابلة مثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»[12]. وتُعرف بـ: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل»[13].

والإقنـاع: «بالمقابلة حِجاج يتمثل فيه معنى وما يقابله أو أكثر من ذلك، وما يرافق هذا الحِجَاج من تأثير وجمال وبديع، وما يجعل المتلقي على درجة كبيرة من الاقتناع؛ لأنَّ المقابلة تُقيم له ما يقابل

ذلك الكلام، وهذا مستوى حِجَاجي تُقيمه البلاغة في بديعها، وأن المقابلة وجه من وجوه البلاغة البرُهانية البديعية التي تدعم طاقة القول الحجَاجيَّة، وتزيد في قدرته الإقناعية، ومن هنا تُعدُّ المقابلة من أهم الوَسَائِل البلاغية للحجاج للاستمالة والتأثير، فهي تستميل وتؤثر بجمال استعمالها، وقوة علاقتها التقابلية على المتلقي»(14). وللمقابلة أثرها في إبراز المعنى وتوضيحه، وإكسابه قوة التأثير، مثلها في ذلك مثل الطباق؛ وتبرز قيمتها الإقناعية في اقتضاء المعنى لها دون تكلف، إذ تتطلب المقابلة إيراد المعاني ثم الإتيان بما يقابلها، وذلك يُسهم في إيضاح المعاني وتمييزها(15).

والطباق مع المقابلة من المحسنات المعنوية، وهما جزء من بلاغة الأسلوب، وصلتهما بالمعنى واضحة تمامًا، فإذا رأى المُخَاطِب أن معانيه واضحة ولكنها بحاجة إلى مزيد قوة ووضوح، أو إلى إبرازٍ صاغها في الألفاظ المتضادة؛ لتكون أقدر على تحقيق ما يريد، فاختيار المفردات التي تؤديهما يصبُّ في عناية الخطيب الجاهلي بمعانيه؛ لتكون أبلغ أثرًا في نفس المتلقي، فعن طريقهما وبتضادهما تظهر المفارقة بصورة جليَّة واضحة بين الأمرين اللّذين يعرضهما المُخَاطِب، وهنا تبرز مهارته اللغوية، ودقته في اختيار ألفاظه.

وللطباق والمقابلة شيوعهما في الخطاب الجاهلي، وعناية الجاهليين بهما دليل على عنايتهم بالجملة، ومن ثمَّ عنايتهم بالمعنى الذي يقوي مضامين أفكارهم، ويعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وآرائهم ومعتقداتهم، وقوي عواطفهم، ومن النادر أن تقرأ لهم نصًّا لاتبرُز فيها الألفاظ المتضادة، والجمل المتقابلة، التي أحسن سبكها في نسيج الجمل دون تكلف أو تعمد، مما يزيد المعنى وضوحًا، ومن نماذج ذلك خطاب أكثم بن صيفي(16) لبنيه: «أنْ أُصبحَ عند رَأسِ الأمْرِ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أصبحَ عِند ذَنَبِه... ويْلٌ لِعالمِ أمرٍ مِن جَاهِلِه... لا تَغضَبُوا مِن

اليَسِير فإنّه يَجنِي الكَثِير»[17]، فالمسافة شاسعة بين الرأس والذنب، فالرأس دليل عُلوّ، والذنب دليل دُنو، وكذلك ثمة بونٌ شاسع بين العالم والجاهل، وبراعة أكثم اللغوية جعلته ينقلهم من تضاد إلى تضاد، حين وضَعَ اليسير مقابل الكثير، وظهور المساحة واسعة بينهما، ليصل بهم في النهاية إلى الفكرة التي يريدها، حيث إنهم يغضبون من القليل مع أنه سيأتي لهم بالكثير، ومن ثمَّ حصول الاقتناع بما يرشد إليه، وقد اتخذ النهج نفسه في خطابات أخرى، كقوله: «وبألبَانِها يُتْحَفُ الكَبِير، ويُغْذَى الصَّغِير»[18]، وقوله: «والانْقبَاضُ من النَّاسِ مَكْسَبةٌ للعَدَاوَة، والتَّقرُّبُ مِن النَّاسِ مَجْلبةٌ لجَلِيس السُّوءِ»[19]، والقصد الذي أراده من استدعاء الطباق هو استجلاب أسماعهم لقبول فكرته، وتحقيق مراده، بوساطة الثنائيات المتضادة في النَّص مما يسهم في إثارة الذهن للتفكير في كلامه.

والمُخَاطِب الجاهلي حين يرغب في تقديم أفكاره بصورة واضحة، تجلو للسامع غموضه، يستدعي الطباق والمقابلة؛ ليُظهر التمايز بين الفكرتين، وليقدم للسامع فكرته بصورة توضيحية، يدرك كنهها كل ذي لب وعقل. كقول قُسّ بن سَاعِدة[20]: «عَاشَ وماتَ»[21]، وقول ذي الإصبع[22]: «فَنِي وَهَو حَيٌّ... صِغَارهم وكِبَارَهُم»[23]، وقول أسيد بن أوس[24]: «إنّي رَأيتُ مُطَّلعًا تَزَايَلَتْ حِجَارته، وقد رأيته أمْلَسَ لَيَس فِيه صَدْعٌ»[25]، فقد جاء البديع عفويًا خادمًا لأفكار المُخَاطِب، موضحًا معانيه، موافقًا هوى قائله، مصادفًا شعورًا عند مستمعيه، فهذه الثنائيات جاءت على شكل المزاوجة بين الأضداد لتدعيم الطرح، ويمكن أن تُعدَّ كل ثنائية بمثابة وسيلة إقناعية، تُنتج قِيمًا صوتية دالة، توجه انتباه المتلقي نحو التَّضاد الوارد في مساحات قصيرة من النص.

والمقابلة لا تكون بين لفظتين مختلفتين في المعنى، وإنما بين جملتين تقابل كل كلمة في الجملة الأولى نظيرتها في الجملة الثانية، وتعني: «الإتيان بلفظين متوافقين أو أكثر ثم الإتيان بما يقابلهما، أي يناقضهما بالترتيب نفسه»[26]. ولذا كان الخلاف بين البلاغيين، فقد مال بعضهم إلى اعتبار المقابلة لونًا من ألوان التّضاد، غير أن المقابلة أعم، ورجّح بعضهم أنّ تكون المقابلة لونًا مستقلا من ألوان المحسنات البديعية[27]، و: «وهذا هو الأصح؛ لأنّ المقابلة أعمُّ من البديع»[28]، والمقابلة مثل الطباق لها أثرها في إبراز المعنى وتوضيحه، وإكسابه قوة التأثير، مثلها في ذلك مثل الطباق؛ ومن هنا شاعت في خطاب الجاهليين مع الطّباق، ففي قول أكثم: «غَمِّ عَلَى الحَسُود أمْـرَكَ، واكتُمهُ سرَّك، ولا تَسْتَشره فيُفْسدَ عَليك ويَغُشَّك، فإنّه يُظهر لَكَ خَيرًا، ويُضمِرُ لَكَ شَرًّا، ويَلقَاكَ بالمُكَاشَرَة، ويَخلُفكَ بالغِيْبَة»[29]، نجده يتخذ موقفًا حازمًا من الحسود، بسبب مظاهره الخداعة، مستخدمًا الطباق والمقابلة؛ ليقدم المعنى جليًّا واضحًا لبنيه، وقول الحارث ابن كعب[30]: «فإنّ مَوتًا فِي عِزٍّ خَيرٌ مِن حَيَاة فِي ذُلٍّ»[31]، فالطباق بين الحياة المجردة، والموت المجرد، بحيث يكون الموت أفضل من الحياة أمرًا غير مقبول، ولا يؤدي المعنى الذي أراده الحارث، ولكن حين تكتمل الصورة، وتحلّ المقابلة محل الطباق، فيكون الموت في عزٍّ مقابلاً للحياة في ذُلٍّ وخضوع ومهانة، تظهر المفارقة فالحياة ذليلة أقسى من الموت، وحينما يتعرض الإنسان إلى الذلة والمهانة، وتُجرح كبرياؤه، وتُطعن كرامته، فلا شك أن الموت راحة له بدلاً من حياة الذل.

ومن أمثلة المقابلة في خطاباتهم قول قس: «مِـهَادٌ مَوْضُوعٌ، وسَقْفٌ مَـرْفُوعٌ... إنّ في السَّمَاء لخَبَرا، وإنّ في الأَرْض لعِبَرَا»[32]، وقول ذي الإصبع: «وأكْرم صغَارَهم يُكرمكَ كبَارُهُم»[33]، وقول عمرو بن كلثوم[34]: «وإنْ حقًّا فحقًّا، وإنْ كَانَ بَاطِلاً فبَاطِلاً... وإذا حُدّثتم

فَعُوا، وإذا حَدّثتم فَأوجِزوا... ومِن النَّاسِ مَن لا يُرجَى خَيرُه، ولا يُخَافُ شَرَّه»[35]، ولا شك أن لهذه المقابلات أثرها البالغ في توضيح الفكرة، وبسط المعنى، ومن ثمَّ ملامستها للشعور، وتأثيرها في المتلقي، فاختلاف المعاني بين المتضادات والمقابلة بينها له أثره في إيضاح المعنى، وإيصال الفكرة، ومن ثمَّ معرفة أيهما أقدر على التأثير في الآخر إذا تعلق الأمر باحتياج أحدهما الآخر مستخدمين في سبيل غرضهم المقابلة التي تبرز المعنى، وتمكنه في الذهن.

2 - **الجنـاس:**

الجناس من الحلى اللفظية والألوان البديعية التي لها تأثير بليغ في الأسلوب، وأثر في جذب السامع واستمالته، ويُعرف في اللغة من التجانس: «ومنه المُجَانَسَةُ والتَجْنِيسُ، ويقال: هذا يُجانِسُ هذا أَي: يشاكله»[36]، ويماثله، والجناس بين اللفظين: «تشابههما في اللفظ، والتام منه أن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها»[37]، بمعنى أن: «تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستُها لها أن تشبهها في تأليف حروفها»[38]، و:«حقيقة التجنيس في مصطلح علماء البيان هو أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما[39]. والجناس عظيم الموقع في البلاغة، جليل القدر في الفصاحة[40]، وتكمن وظيفته الإقناعية في: «أَنْ يَتَشَابَهَ اللفظانِ في النُّطق وَيَخْتَلفَا في الْمَعْنى»[41]، وفي ارتباطه: «بأصوات الحروف، وبتباينها قلة أو كثرة في الدلالة على المعاني المطلوبة أو اتساقها وتطابقها في الألفاظ مع تباين الدلالة واختلافها»[42]، إضافة إلى كون الجِناس يحدث: «جرسًا لذيذًا وإيقاعًا لطيفًا، يجعل فيه من الموسيقى والنغم ما يحمل الأذان على الإصغاء والارتياح»[43]، وعليه يمكن: «اعتبار الموسيقى رافدًا من روافد (الإقناع) من جهة استيلاء ما وقع على النفوس، وامتلاك الأنغام

للأسماع، وما كان أملك للسمع كان أفعل باللُّب وبالنفس»[44]، ولذلك كثر مجيئه في الخطاب الجاهلي لما له من أثر في جمال الأسلوب وتضَافر وسائل الإقناع الذي يوجه السامع إلى قبول الفكرة.

وانطلاقًا من حرص الجاهليين على جذب الانتباه، واجتلاب الأسماع، وإثارة النفوس، وإمتاع العقول كان للجناس حضوره في خطاباتهم، ومنه جناس الاشتقاق، وهو: «أن تجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة»[45]، ومثل ذلك قول قُسّ بن سَاعدة: «ومنْ ظَلمَك وجَدَ من يَظْلمه، ومتى عَدلتَ على نَفسك عدَلَ عليكَ مَن فَوقَك، وإذا نَهيت عنْ شَيء فَانْه عنْه نَفْسَك»[46]. وهناك نوع آخر من الجناس، تختلف فيه اللفظتان في عدد الحروف، أو نوعها وشكلها وترتيبها، ويسمى الجناس الناقص[47]، مثل قول عمرو بن كلثوم: «وامنَعُوا ضَيمَ الغَريبِ من القَريبَ، فإنَّك تَذلُّ على قَريبك، ولا يجْملُ بكَ ذُلُّ غَريبك... وإذا حَدَّثْتُم فأوْجِزُوا، فإنَّ مَع الإكْثَار يَكُونُ الإهْذَار»[48]، وقول قُسّ بن سَاعِدة: «اجْتَمعوا، واسْمَعُوا وَعُوا... مَنْ عَاشَ مَاتْ، ومَنْ مَاتَ فَاْتَ»[49].

وقيمة الجناس في النصوص تكمن في الجرس الذي تحدثه الألفاظ المتجانسة من إثارة للخيال لاستجلاء المعنى[50]؛ ليكون أمكن في النفوس، وأوضح للمراد، عن طريق استدراج السامع بوساطة الجرس الموسيقي الذي يثير الذهن، ويستميل السمع إلى فكرته، وعليه فالجناس في خطاباتهم كان لتعضيد أفكارهم، ليصلوا بالسامعين إلى أفكارهم التي يدعون إليها، فيقفون عندها، لعلها تُحدث في نفوسهم ميلاً إلى الإصغاء والمتابعة، فتجد الامتثال والقبول. واستدعاء الخطباء الجاهليين هذا المحسن، ليس لغرض زخْرفة قوليَّة وتنمِيق، بل من أجل بلوغ غاياتهم الإقناعية، فلقد دعمهم هذا الطرح بتوظيف

مجموعة من الوسائل الإقناعية المسوقة على شكل جناس؛ ليبرزوا حُجَجهم ويقنعوا متلقيهم، فـ: «الجناس رافدٌ حِجاجيٌّ (إقناعي) نتيجة للموسيقى المنتجة من استعماله، حيث تكون هذه الموسيقى مؤثرة بإيقاعها وجرسها على نفسية المتلقي، إذ يضطلع الجناس بدور حِجاجيٍّ (إقناعي) لما يحدثه في لُبِّ المتلقي من ارتياح للمعنى المصاحب له»(51).

3 - السجع:

السجع في اللغة من: «سَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا استوى واستقام وأَشبه بعضه بعضًا»(52)، وفي الاصطلاح: «تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد»(53)، وللسجع أثره الإقناعي المتمثل في الإيقاع الصوتي - لما يحدثه من جرس موسيقي، وقرع للأذهان، وإثارة للانتباه - في خطاب الجاهليين. فالعسكري يرى فضل التسجيع: «على شرط البراءة من التكلف، والخلو من التعسف»(54). وإذا كان السجع منسجمًا مع الكلام خاليًا من التكلف، بعيدًا عن التعسف، متماشيًا مع الطبع والذوق السّليم كان جميلاً في موضعه، مُحققًا لهدفه وغايته، يقول ابن الأثير: «وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تهيأ الكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد مَلَك رقاب الكلم، يستعبد كرائمها، ويستولد عقائمها»(55).

ووظيفة السجع، مثل الجناس، تكون جمالية إيقاعية تزيد من جرس الألفاظ، وحسن تقسيم التراكيب، فيسهل النطق على المتكلم، ويحدث توزيعًا في الكلام، و: «يكاد الباحثون يجمعون على أن نزوع الفطرة إلى هذا الإيقاع قد برز في النثر قبل الشعر، وهو صورة نغمية يراد بها جعل الكلام بصورة متوافقة»(56).

فالسجع من أبرز المصطلحات في البلاغة العربية، التي تدل على تقسيم العبارة إلى أجزاء بينها وزن كامل أو ناقص، وله: «حضور حتَّى في النثر، فهو يحقق أغراضًا جمالية وتأثيرية، بحكم أنَّه بِنية إيقاعيَّة جوهرية في الشعر، وكذلك في النثر...فليحقِّق الغاية ينبغي تجنب التَّكلف بكثرة الجناس والسجع، وغيرها من المحسنات اللفظية بطريقة معوِّقة للإقناع»[57]. إنّ لإيقاع السجع أثرًا في علوق النثر في الأسماع، ورسوخه في الأذهان[58]، لما فيه من التناغم الذي تطرب له الأذن، ويلذُّ له السماع، ويحفظه المتلقي ليردِّده[59]، وذلك لا يعني الإكثار منه بلا سبب؛ لأن ذلك نوعٌ من الهذر، والبهرجة الشكلية التي لا طائل منها، ولذا فقد اشترط بعض النقاد الإيجاز، أو التوسط في استخدامه؛ ليؤدي دوره الجمالي.

فأبو هلال يرى فضل التسجيع: «على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف»، بل يرى أن السجع: «إذا سلم من التكلف، وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه»[60]. وابن سنان يرى أن السجع إذا كان طبعًا، وطلبه المقال، وأحسن توظيفه في الكلام، كان جميلا في نفسه، وزينة للكلام، يقول بعد أن يشير إلى اختلاف الناس في السجع كمراجعة واستحسانا: «والمذهب الصحيح أن السجع محمودٌ إذا وقع سهلاً متيسرًا بلا كلفة، ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدقُ معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما تُمُحِّل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه»[61]. والجمل المسجوعة حين تكون إلى القِصر أقرب فإن أثر الإيقاع يكون أوضح، وهو ما أشار إليه ابن الأثير في قوله: «وكلما قلّت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع»[62]؛ إذ بـ: «التوسُّط تقرب صياغته من الأوزان الشعرية، وتستعير تأثيرها»[63].

ومثال ذلك في الخِطاب الجاهلي قول أكثم بن صيفي: «تَنَاءوا في الدِّيَار، وتَوَاصَلُوا فِي المَزَار»[64]، وقول سعد العشيرة[65]: «ودَعُوا قفْوَ المحُصَنات تَسلَم لكُم الأُمهات... ودَعُوا المرَاء والخصَام تَسْلم لَكُم المُروءَة والأحْلام، تحَبّبُوا إلى العَشَائِر تهبُكُم العَمَائِر، وجُودُوا بالنَّوال تَنمُ لَكُم الأموَالَ»[66]، وتوالي الجمل المسجوعة بحروف منتقاة في سلاسة، دون تكرار أو تكلف يُبرز حكمة الخطيب الجاهلي وحنكته في حُسن الاختيار، وبراعة التوظيف، ولذا تلاءم مع غرض الخطاب، وأسهم في تحقيق وظيفة الإقناع.

ومما يُلحظ في سجع الجاهليين أن الجمل المسجوعة تتردد بين الجملتين والثلاث، لحرصهم على تنويع الإيقاع الصوتي وتجدده؛ لتتجدّد معه الإثارة والانفعالية لدى المتلقي، وهو ما يميل إليه ابن سنان الخفاجي إذ يرى: «أن لا تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد؛ لأن في ذلك تعرضًا للتكرار، وميلاً إلى التكلف»[67]، ولذا كثُر السجع في الخطاب الجاهلي، ومالت إليه الأسماع، ووشّوا به كلامهم، وزيّنوا به مقالهم، وقد غلب عليهم السجع المتوازي، و: «هو ما اتفقت فيه أعجاز الفواصل في الحرف مع اتفاق الوزن»[68]، ومثال ذلك قول أوس بن حارثة[69]: «وذَهَابُ البَصَر خَيرٌ مِن كَثِير من النَّظَر، ومِن كَرَم الكَرِيم الدِّفَاعُ عَن الحَرِيم، ومَن قَلَّ ذَلَّ، ومَن أَمِرَ فَلَّ، وخَيرُ الغِنَى القَنَاعَة، وشَرُّ الفَقْرِ الضَّرَاعَةَ»[70]، وقول دويد بن نهد[71]: «أُوصيكُم بالنَّاس شَرًّا، لاتَرحَمُوا لَهُم عَبْرةً، ولا تُقيلُوهُم عَثرَة، قَصِّرُوا الأعِنَّة، وطَوِّلوا الأسنَّة، واطْعنُوا شَزْرًا، واضْرِبوا هَبْرًا، وإذا أَرَدْتُم المُحَاجَزَة فَقبْلَ المُنَاجَزَة»[72]. وقول مالك بن المنذر[73]: «وإيَّاكُم ومَعصِيته، لايَحُلُّ بِكُم الدَّمَارَ، وتُوحِشُ مِنكُم الدِّيَار»[74]، وتتكشف القيمة الفنية هنا في

توخي الجاهليين الدقة في اختيار ألفاظهم، من خلال لجوئهم إلى السجع، وهو تعبير جمع الإيجاز والدقة معًا، وساعد في تساوق وسائل الإقناع في الخطاب نفسه.

والجملة المسجوعة تحوي غالبًا ثلاث كلمات فأكثر، وربما جاءت من كلمتين، وهذا قليل، ومنه قول مالك بن المنذر: «احتمَالُ الحقد يَمنَعُ الرِّفدَ، لُـزُومُ الخَطِيَّة يُعْقِبُ البَلِيَّة، سُوءُ الرِّعة يَقطَعُ أسبَابَ المَنفَعةِ»[75]. وهو أحسن السجع لدى ابن الأثير[76]. وأفضل السجع ما تساوت فِقره، وكان رصين التركيب، سليمًا من التكلف، بعيدًا عن التكرار إلا لفائدة، وهو ما عده ابن الأثير: «أشرف السجع منزلة للاعتدال الذي فيه»[77]، كما سبق. وقد تأتي الفقرة الثانية أطول من الأولى بزيادة يسيرة، وهو أمر مقبول إذ يرى ابن الأثير أن الزيادة حين تمثل: «طولا يخرج به عن الاعتدال خروجًا كثيرًا فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيبا»[78]، ونادرًا ما تأتي الفقرة الثانية أقصر من الأولى، وهو ما يعده ابن الأثير عيبًا فاحشًا، و: «سبب ذلك أنّ السجع يكون قد استوفى أمده من الفعل الأول بحكم طوله، ثم يجيء الفعل الثاني قصيرًا عن الفعل الأول، فيكون كالشيء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها»[79]، وقد اجتمع النوعان الأخيران في قول مالك بن المنذر: «وزَوِّجُوا النِّسَاءَ الأكْفَاءَ، وليَستَعْملنَ في طيبهنَّ المَاءَ، وتَجنَّبُوا الحَمْقَاءَ... سُوءُ الرِّعَة يَقطَعُ أسبَابَ المَنْفَعَة»[80]. وأقلها مجيئًا هو السجع: «المطرّف، وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان، أو الفواصل وزنًا، واتفقت رويًا»[81]، كقول ذي الإصبع العدواني: «واسْمَح بِمَالك، واحْم حَرِيمَك، وأعْزز جَارَكَ، وأعِنْ مَن اسْتَعَان بِكَ، وأكرِمْ ضَيْفَكَ»[82]، ولاشك أن ميل الجاهليين إلى السّجع جاء رغبة منهم في إحداث إيقاع موسيقي في النص، يجدد النشاط، ويبعث الهمة،

ويجلو الفكرة، ويقرب المعنى ويوضحه، فضلاً عن رغبتهم في أنْ يُقتنع بخطابهم ثم يُحفظَ كلامهم ويُعّقل.

كما أن للجناس أثره الواضح في الإيقاع عن طريق تكرار الحروف بناء على نوع السجع، وقد أشار ابن الأثير الحلبي إلى الإسهام الجمالي الصوتي للتجنيس فقال: «إن تشابه ألفاظ التجنيس تُحدث بالسمع ميلاً إليه، فإن النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما اللفظ، فصار للتجنيس وقعٌ في النفوس وفائدة»[83]، وقد يتعانق الجناس مع السجع أحيانًا، ويأتي منفصلا عنه أحيانًا أخرى، وفي الحالين يؤدي الجناس دوره الإيقاعي بصورة مُوَجّهة للنظر، تأمل قول عمرو بن كلثوم: «واعْلَمُوا أنَّ أشجَعَ القَومِ العَطُوفُ، كَمَا أنَّ أكرَمَ الحتُوف قَتلٌ بالسِّيوفِ»[84]، تجد أن تتابع الكلِمات (العطوف، الحتوف، السيوف) بإيقاعها البديع، الذي تآزر فيه الوزن والسجع ذو قيمة إيقاعية تؤثر في ذهن السامع، بتوازن الألفاظ، وتردد النغمة الموسيقية.

واستغلال الجناس لا يعني أنه فقَدَ قيمته الفنية، بل ظل محتفظًا بقدرته على التأثير عن طريق إسهامه في الإيقاع عن طريق تكرار الحروف، يُصدّق ذلك قول أوس بن حارثة: «ومِن كَرم الكَريم الدِّفاعُ عن الحَرِيم»[85]. والكلمتان المتجانستان المتواليتان تُحدثانَ إيقاعًا موسيقيًّا؛ لتوالي النغمات الإيقاعية عن طريق تكرار الحروف، كقول عمرو بن كلثوم: «ومَن سَبَّ يُسبَّ؛ فكُفوا عَن السّبِّ»، وقوله: «فَفي ذَلك دَاءٌ مِن الأدْوَاء... وإذَا تَنَازَعتُم فِي الدِّمَاء فَلا يَكُونَنّ حَقَّكُم اللقَاء»[86]، وقول أوس بن حارثة: «المنيَّةَ ولا الدَّنيةَ، والعِتابَ قبل العقاب، والتَّجلد لا التَّبلُّدُ»[87]. وربما جاءت الكلمتان المتجانستان متباعدتين نسبيًا.

ويكون لخبرة الجاهلي وفصاحته أثرٌ في إكساب الصوت الحرية في الانطلاق والارتفاع، والتحكم في النبرة بطريق المدود، والذي يُعبر من جانب آخر عن فلسفة خفيّة للمُخَاطِب؛ لأن المد يعبر عن المدى الذي يأمل المُخَاطِب أن تبلغ إليه كلماته في نفوس سامعيه، ويبرز أثره حين يشعر المتأمل بأن الخطيب كان يقف عند نهاية كل جملة، وهو ما يعطي المدود أثرا واضحًا، ولو أردت مواصلة القراءة، ومتابعة الجملة، لظهر اضطراب النغمة، ولم يعد أثر السجع ظاهِرًا، يُؤكد هذا قول سعد العشيرة: «ودَعُوا قَفْوَ المُحصَنَات تَسلَمْ لَكُم الأُمهَات... ودَعُوا المراء والخصَام تَسْلم لَكُم المُروءَة والأحْلام، تَحَبَّبُوا إلى العَشَائر تهبْكُم العَمَائِر، وجُودُوا بالنَّوال تَنْمُ لكم الأموال»[88]، ولعلك تلحظ أنك لا تستطيع تحريك الحروف في أواخر الجمل؛ لأن حركة الإيقاع ستتغير بصورة كبيرة، وسيتغير تبعًا لذلك النغمات المُكونة لجو النص لتصبح غير متآلفة، فما أن تستريح الأذن إلى التاء المكسورة حتى تفاجئها التاء المفتوحة، وهكذا في بقية الجمل، مما يفقد المدود قيمتها الجمالية للإيقاع في النص[89].

وربما لجأ الجاهليون إلى السجع مسايرةً لما كان يغلب في عصرهم من سجع الكهان الذين كانوا يسحرون الناس بكلامهم، ويملكون عليهم أفئدتهم بموسيقا السجع، وانظر إلى خطبة قُسّ بن سَاعِدة، تجد السّجع مشتملاً على النص جميعه[90]، ولو نظرت إلى نصوص فئة الكُهان من خطباء الجاهلية لوجدت السجع شائعًا فيها إلى جانب غريب اللغة لاعتمادهم عليه للتعمية، وهذا ما جعل لهم سلطانا سحريًا على الدّهماء من الناس[91].

4 - الازدواج:

الازْدوَاجَ لغة: من ازدوجَ يَـزدوِج ازدواجًـا، فهو مُـزدوج، أي: متشابه[92]، وفي الاصطلاح: «ازْدوج الكلامُ وتَزَاوَجَ: أَشبَهَ بَعْضُهُ بَعْضًا

في السَّجْعِ أَوِ الـوَزْنِ، أَو كان لإِحْدَى القَضِيَّتين تَعَلُّقٌ بالأُخْرَى»[93]، و:«الازدواج هو في البديع تَناسُب المتجاورين»[94]، و«هو أنْ يُزاوج بين الكلمات والجمل كلامٌ عذبٌ، وألفاظٌ عذبةٌ حلوةٌ»[95]، ومن الباحثين من يرى أنَّه: «بِنْية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات سمعية من طولٍ، ووزنةٍ، وفاصلةٍ، وتعكس فكرًا مُرتبًا مُتَّزنًا مُقنعًا»[96].

وقد حظي الازْدِوَاجَ بعناية العلماء القدماء، فأبو هلال العسكري يرى أنَّـه: «لا يحسُنُ منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج»[97]، كما عُدَّ من أجمل وجوه العناية بالشكلً؛ لجعله المعنى أكثر انضباطًا، وإعطائه الخطاب جرسًا موسيقيًّا، وتنوعًا خاصًّا، وثـراءً معنويًّا، مما يُكسب الكلام الرونق والقبول، وعلى الكاتب كما يرى القلقشندي: «أنْ يراعي الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها، مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزنًا، ويسمى التَّوازن وهو أحسنها وأعلاها»[98].

ويلجأ الجاهليون في خطابهم إلى استخدام الازدواج لمخاطبة شعور المتلقين ووجدانهم، لما: «يُحدثه الازدِواج داخل النص من إيقاعات ونغمات وبخاصة في أواخر الجمل المتتابعة، ويكون وقعه على نفسِيَّة المتلقي، وأثره بارزًا في توجيهه إلى جمل مقصودة دون أخرى داخل هذا النص، وهو ما يعكس قصد المحاجِج إليه في تلك الجمل، وقد يكون الازدواج طبعًا وسِمَة عند المُحَاجج، وبخاصة إذا ما عُرفت عنه، ووجدت في معظم نصوصه»[99]، ولذا تكون إقناعية الازدواج: «كامِنة في الأثـر والتَّأثير السَّمعي على نفسية وشعور المتلقي هذا من جهة، كما تشير هذه الوسيلة لقدرة المُحَاجِج اللُّغَوية في تحقيق قصده، وهذا حِجَاج سمعي، الهدف منه التأثير النفسي»[100]، وتبرز قيمته الإقناعية في مجيئه عفو الخاطر، وعدم تكلفه ولا تصنعه، وفي

عدم الالتزام به في كل الكلام، وكون الألفاظ تابعة للمعاني لها خادمة، تُساعد في توكيد الفكرة، وتدعيم القضية لغاية إقناعية، مما يمنح الكلام جرسًا موسيقيًّا وإيقاعًا يجذب أذن السامع، ويزيد التعبير قوة وتأثيرًا ووضوحًا.

ويرى الخفاجي أنَّ السجع والازدواج مترادفان يقول: «ومن المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ السجع والازدواج...وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج»(101)، ويرى أن السجع إذا كان طبعًا، وطلبه المقال، وأحسن توظيفه في الكلام، كان جميلاً في نفسه، وزينة للكلام، يقول: «والمذهب الصحيح أن السجع محمودٌ إذا وقع سهلاً متيسرًا بلا كلفة، ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدقُ معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما تُمُحِّل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه»(102).

وإذا كان للسجع إسهامه في الإيقاع حين ينصب على الحروف في نهايات الجمل، فإن الازدواج له علاقة بتوازن الجمل نفسها، ولذلك قال ابن الأثير عن الازدواج: «أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن»(103). وأبو هلال العسكري يقول مشيدًا بالازدواج: «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجدُ لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن»(104).

الازدواج من خصوصيات النثر القديم، ولا أدلّ على هذه الخصوصية من ملازمة القرآن الكريم والحديث الشريف له، فهو مقياس التميز والتفرد، وهو: «الميزة الغالبة على الأساليب الرفيعة، سواء في ذلك القرآن والحديث النبوي، والخطبة البليغة، والرسائل الجيدة»(105)، ومرد ذلك في المقام الأول إلى ما يحدثه الازدواج من

نغم موسيقي، يتغير بتغير الفواصل، وهو ما يعني التجدد المستمر في الألحان، والإمتاع الدائم للآذان، والإثارة المتجددة للأذهان، و«وجه الامتياز والروعة في الأسلوب المزدوج أن له حظًّا غير قليل من موسيقا الشعر دون تشابه النغم فيه ورتابته»[106].

وقد جاء الازدواج في خطاب الجاهليين مؤديًا دورًا إيقاعيًا ينعكس مع تردد الصوت في الألفاظ، ويساعد في تحقيق الوظيفة الإقناعية، ومثاله قول أكثم: «الهوى يَقْظَان، والعَقْلُ رَاكِدٌ، والشَّهواتُ مُطلقَةٌ، والحزمُ مَعقُولٌ، والنَّفسُ مُهْمَلَةٌ، والرَّويةُ مُقيدةٌ... ولنْ يُعدَمَ الحَسُود أنْ يُزعِج قلْبه، ويُشغِل فِكره، ويُورِث غَيْظَه»[107]، وقول عمرو بن يزيد[108]: «وبرّ الرِّحِم، والحِفظ للعِيال، والإحْرَاز للحُرَم»[109]. وقد يجتمع الازدواج مع السجع، فيكون للإيقاع مدى أكبر يتجاوز توازن المفردات، وتوافقها في أواخر الجمل، كقول عمرو بن كلثوم: «ومِن النَّاس مَن لايُرجَى خَيرُه، ولايُخاف شَرَّه، فبُكُؤُه[110] خيرٌ من دَرِّه، وعُقُوقه خَيرٌ من برِّه»[111]، وقول مالك بن المنذر: «عُقُوقُ الوَالِدين يُعقِّب النَّكَد، ويَمْحقُ العَددَ، ويُخَرِّب البَلَد»[112].

ومزية الازدواج والجناس والسجع تبرز في خلق جوٍّ بديعيّ من الإيقاع يجعل وقع الكلمات والجمل مُستلذًا في الأذن، ويأخذ طريقه إلى العقل، ويرتضيه الفؤاد، وتستودعه الصدور. فالحروف تمثل مصدرًا مهمًا من مصادر الإيقاع في النصوص، وقد ذكرت لذلك أمثلة سابقة في السجع والتقائه مع الجناس، غير أنها تأتي أحيانًا في كلمتين أو كلمات متتالية فيظهر لك جليًّا جمال الإيقاع مع تكرار نغمة الصوت، يُحقّق هذا قول أوس بن حارثة: «وشَرَّ شَارِب المُشْتَفُّ»[113]، وقول مالك بن المنذر: «وقَطِعة الرّحم تُورثُ إلمَام الهمَّ»[114]، وقول عمرو ابن كلثوم: «ولا خيرَ فيمن لا يَغَارُ لِغَيْرِه كما يَغَارُ لنفسه»[115]، وربما جاء

تكرار الحروف من تكرار الكلمة كقول عمرو بن كلثوم: «إن حقًّا فحقًّا، وإنْ كان باطلاً فباطلاً»(116).

والحقيقة قد استطاع الجاهليون من خلال اللغة أن يحدثوا نوعًا من التناغم والجرس الموسيقي في خطاباتهم؛ لبراعتهم في الموازنة بين ألفاظهم وجملهم، مما أكسب النصوص قبولاً وتأثيرًا، فالنثر الفني: «لا يخلو من نوعٍ من الوزن والإيقاع، ولكن وجود هذه الظاهرة الصوتية فيه يختلف عن وجودها في الشعر، كيفًا وكمًّا ومصدرًا، فإذا كان مبعثها في الشعر توالي التفعيلات... فإنّ مبعثها في النثر المناسبة والموازنة بين الألفاظ، في الجمل والعبارات، أو بين الجمل والعبارات أنفسها»(117)، فارتباط الإيقاع الموسيقي في النثر بصفة خاصة بالمهارة في استخدام المحسنات البديعية، وبخاصة السجع والازدواج، لأنهما في النثر بمنزلة الوزن والقافية في الشعر، يقول الخفاجي: «فأما القوافي في الشعر فإنها تجري مجرى السجع»(118)، ويقول: «فالفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال، وبالتقفية إن لم يكن المنثور مسجوعًا، على طريقة القوافي الشعرية»(119)، ويقول: «وكما أن الشعر يَحسُن بتساوي قوافيه، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله»(120)، ويقول ابن الأثير: «واعلم أنّ التّصريع في الشعر بمنزلة السّجع في الفعلين من الكلام المنثور»(121).

ولذا برز في الخطاب الجاهلي حُسن التقسيم كاستيفاء جميع أقسام المعنى، وذكرُ أحوال الشيء مضافًا إلى كل حالة ما يلائمها(122)، وفيه ظهرت بلاغتهم في القدرة على استيفاء جميع متعلقات المعنى الواحد قبل الانطلاق إلى معنى آخر، ومن أمثلته في الخطاب الجاهلي قول ذي الإصبع العدواني: «أَلِنْ جَانبكَ لقومِكَ يُحبُّوك، وتَواضَع لهم يَرْفعوك، وابُسطِ لهم وجَهْك يُطِيعوك، ولا تَستأثر علَيهم بِشيء يُسوِّدوك، وأَكرم

صِغَارهم كَما تُكرمُ كِبَارهم، يُكرِمك كِبارُهُم، ويَكْبر عَلَى مودَّتك صِغَارُهم، واسْمَح بمالك، واحْم حَرِيمك، وأَعْزز جَارَكَ، وأَعنْ من اسْتَعان بِك، وأكْرِمْ ضَيْفَك، وأسْرِع النَّهضَة في الصَّرِيخ»(123)، فحين أراد ذو الإصبع مراتب الكمال لابنه، ذكر مُتطلبات ذلك مبتدئًا بالمُهم إلى الأهم، في تقسيم حسن يسهل معه فَهْم المراد، وعَقْل المطلوب، فحصول الجواب مُرتبط بتنفيذ الأمر، وهذا لن يتأتى إلاّ لمن بصُر بالأمور، وأدركها على وجهها الصحيح، وقول أكثم بن صيفي: «لاتَتَكلَّمنَّ فِيما جَهلتَ، ولا تُعَجَل في الكَلام بِمَا عَلمت، فَتذلَّ نَفسَكَ، فإنَّ مِن إكرَام المَرءِ نَفسَه ألا يَتَكلَمَ إلا بِما أَحَاطَ بِه عِلْمُه»(124). أراد رسم صورةَ متلازمة لإيثار الصمت، فجاء بالتقسيم خادمًا لمراده، وموضحًا لمعناه، فالخوض في ما لايحيط به العقل نقصٌ ومَذمةٌ، كما أن العجلة في الكلام تستوجب النهاية المؤسفة، وقَصْر الكلام على حدود المعرفة من كمال الرجولة، فوظيفة حُسن التقسيم الإقناعية تبعث في النفس رغبة ورهبة في نفس المتلقي لامتثال الأمر وتطبيقه؟.

الخاتمـة:

تناول البحث موضوع استخدام المحسن البديعي في الخطاب الجاهلي وأثره الإقناعي، من خلال عرض نماذج للمحسنات اللفظية كالجناس، والسجع، والمحسنات المعنوية كالطباق والمقابلة، بدءا بتعريف المحسن البديعي وعرض نماذجه التطبيقية وغرض استخدامه في الخطاب، ثم بيان أثره الإقناعي. ومن نتائج البحث في توظيف المحسنات البديعية في الخطاب الجاهلي ما يأتي:

- لجوء المخاطب للإكثار من المحسنات البديعية وتوظيفها يحقق مقاصده، ويحصل على مراده، مما يؤكد على التَّأثير الضِّمني لها.
- استثمار المخَاطِب للمحسن البديعي في الإقناع بغرض توجيه الانتباه.

- توظيف الجاهليين للمحسنات البديعية دون تكلف أو تعمد، جعلهم يستعملونها في سياقات سهلة ممتعة، تجد لها ضرورة، حين يحتاج الخطاب إلى اللفظ، أو تطلبه العبارة، أو يفرضه الأسلوب.
- أسهمت المحسنات البديعية في تقديم أفكار الملقي بوضوح، مما يؤكد حرص الجاهليين على التأثير في أسماع المتلقين، ليتلَّقفوها باهتمامٍ وتَدبرٍ.

الهوامش

(1) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار القلم، بيروت، ط الخامسة، 1984م: 551/1.

(2) أسس النقد الأدبي عند العرب، د.أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط الأولى، 1996م: ص 476.

(3) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، 1406هـ - 1986م: ص 267.

(4) كتاب الصناعتين: ص 93.

(5) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، ت. محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، 1995م: 264/2.

(6) نظر: لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط الثالثة، 1414هـ: 209/10. مادة (طبق).

(7) البلاغة والتحليل الأدبي، د.أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، بيروت، ط الأولى، 1988م: ص 185.

(8) كتاب الصناعتين: ص 93.

(9) خطاب الحِجَاج والتَّداوُليَّة - دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، د. عباس حشاني، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط الأولى، 2014م: ص 297.

(10) الإيضاح في علوم البلاغة-المعاني والبيان والبديع، جلال الدين الخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط الأولى، 2002م: ص 255.

(11) انظر: لسان العرب: 534/11. مادة (قبل).

(12) كتاب الصناعتين: ص 102.

(13) الإيضاح في علوم البلاغة - المعاني والبيان والبديع : ص 259.

(14) خطاب الحِجَاج والتَّداوُليَّة - دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي : ص 300.

(15) انظر: خطاب الحِجَاج والتَّداوُليَّة - دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي : ص 299.

(16) أدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم. يُكنى بأبي حَبْدَة أو بأبي حفاد. وللاستزادة من أخباره انظر: المعمَّرون، أبو حَاتِم سهل بن محمد السجستاني، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع، القاهرة، ط الأول، 1413هـ: ص 14-25، والأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت. علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط الأولى، 1407هـ - 1987م: 73/15، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ت. عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1415هـ - 1994م: 350/1 رقم الترجمة 485.

(17) المُعمَّرون: ص 14.

(18) مجمع الأمثال، أحمد بن محمد النيسابوري، ت. محمد محيي الدين، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى، د.ت: 182/2.

(19) المعمَّرون: ص 23.

(20) من بني إياد، أحد حكماء العرب، كان أسقف نجران، قيل: إنه عاش ستمئة سنة، وقيل: ثلاثمئة وثمانين سنة. وللاستزادة من أخباره انظر: المعمَّرون: ص 87، والأغاني: 236/15، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، ت. عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط الرابعة، 1418هـ - 1997م: 78/2.

(21) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، ت. حمدي السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط الثانية، 1404هـ - 1993م: 88/12. ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط الأولى، 1407هـ: 418/9، 419.

(22) هو حرثان بن الحارث، شاعر حكيم، شجاع جاهلي، له حروب ووقائع وأخبار، شعره مليء بالحكمة والعظة والفخر. وللاستزادة من أخباره انظر: المعمَّرون: ص 58،

والشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، ت.أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط الأولى، 1423هـ - 2003م: ص 297، والأغاني: 89/3.

(23) الأغاني: 95/3.

(24) من بني تميم، جاهلي معمَّر، قاد قومه في حجة الغدر عام قاتلوا ابن زيد بن حسان بن تبع. وللاستزادة من أخباره انظر: المعمَّرون : ص 74.

(25) المعمَّرون: ص 15.

(26) البلاغة والتحليل الأدبي: ص 186.

(27) انظر: علم البديع ، د.عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط الأولى، 1404هـ: ص 76.

(28) علم البديع: ص 76.

(29) جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، ت. سهيل زكار، د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ط الأولى، 1417هـ: 75/13.

(30) هو بن عمرو بن أود المذحجي، من كهلان جَدٌّ جاهلي من نسله بنو الدَّيان، رؤساء نجران. وللاستزادة من أخباره انظر: أمالي المرتضى، الشريف المرتضى، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، 1425هـ - 2004م: 237/1، والإصابة: 167/2، رقم الترجمة: 2053.

(31) الوصايا، أبو حاتم السجستاني، ت. عبدالمنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د. ط، 1961م: ص 124.

(32) المعجم الكبير: 88/12، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 418/9.

(34) الأغاني: 95/3.

(34) شاعر جاهلي، ولد في شمالي الجزيرة العربية في بلاد ربيعة، كان من أعز الناس فتكًا وهو من الفتاك الشجعان، وعُمِّر طويلاً.وللاستزادة من أخباره انظر: الشعر والشعراء: ص 228، والأغاني: 55/11، وخزانة الأدب: 400/7، 401، 405.

(35) نثر الدر في المحاضرات، أبو سعيد الآبي، ت.خالد عبدالغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1424هـ - 2004م : 259/6.

(36) لسان العرب: 43/6. مادة (جنس).

(37) الإيضاح في علوم البلاغة - المعاني والبيان والبديع : ص 288.

(38) البديع، عبدالله ابن المعتز، اعتنى به.إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط الثانية، 1402هـ - 1982م: ص 25.

(39) معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانه، دار المنارة، جدة، ودار الرفاعي، الرياض، ط الثالثة، 1408هـ، 1988م: ص 138.

(40) انظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مراجعة جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1402هـ - 1982م : 355/2.

(41) البلاغة الواضحة، علي الجارم، مصطفى أمين، دار المعارف، مصر، ط الثانية، 1990م: ص 265.

(42) البلاغة العربية - المفهوم والتطبيق، حميد آدم ثويني، دار المناهج، الأردن، الطبعة الأولى، 2007م : ص 349.

(43) البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، محمد بركات حمدي، دار البشير، الأردن، ط الأولى، 1992م: ص 69.

(44) الحجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة - بنيته وأسَاليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط الأولى، 2008م: ص 127.

(45) حسن الترسل، شهاب الدين الحلبي، ت. ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، ط الأولى، 1980هـ: ص 193.

(46) الأوائل ، أبو هلال العسكري، اعتنى به. عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1417هـ - 1997م: ص 45.

(47) انظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 259/2 - 260.

(48) نثر الدر : 259/6.

(49) المعجم الكبير: 88/12، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 418/9.

(50) انظر: جرس الأصوات ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي، د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد، بغداد، د.ط، 1980م: ص 273.

(51) خطاب الحِجَاج والتَّداوُليَّة- دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي : ص 304.

(52) لسان العرب: 150/8. مادة (سجع).

(53) الإيضاح في علوم البلاغة-المعاني والبيان والبديع : ص 269.

(54) كتاب الصناعتين: ص 261.

(55) المثل السائر: 198/1.

(56) أدب الصحراء - دراسة في مقطعات الأعراب النثرية، د. عبدالله الرشيد، المؤلف، الرياض، ط الأولى، 1427هـ - 2006م: ص 78.

(57) تجليات الحِجَاج في الخِطَاب النبوي، دراسة في وسائل الإقْنَاع - الأربعون النووية نموذجًا، هَشام فروم، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة إلى قسم اللُّغَة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2008م: ص 173، 174.

(58) انظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي: ص 226.

(59) انظر: أدب الصحراء: ص 87.

(60) كتاب الصناعتين: ص 261.

(61) سر الفصاحة: ص 171.

(62) المثل السائر: 1/235.

(63) فن النقد الأدبي عند العرب: ص 240.

(64) التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن ابن حمدون، ت. إحسان عباس، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط الأولى، 1996م: 1/361.

(65) سعد بن مذحج بن أدد بن زيد من أهل العصر الجاهلي، وعرف بـ «سعد العشيرة»، لأنه طال عمره حتى بلغ أبناؤه وأحفاده ثلثمائة رجل، فكان إذا ركب فيهم سئل عنهم، فيقول: «هم عشيرتي» مخافة الحسد.. وللاستزادة من أخباره انظر: المعمرون: ص37، ونثر الدر: 6/247-254.

(66) الوصايا: ص 122.

(67) سر الفصاحة: ص 179.

(68) معجم البلاغة العربية: ص 273.

(69) من بني مزيقاء، من الأزد، من كهلان جد قبيلة الأوس عاش في يثرب. وللاستزادة من أخباره انظر : المعمَّرون: ص 45، 46، والأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط الثانية عشرة، 1997م: 2/31.

(70) الأمالي في لغة العرب، أبو علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ – 1978م: 1/102.

(71) هو دُوَيْد بن نَهْد بن زيد بن حوتكة بن أسلم القضاعي، من مشاهير الخطباء، عُمِّر أربعمئة وستًا وخمسين سنة. وللاستزادة من أخباره انظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، ت. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط الأولى، 1394هـ – 1972م: 1/331، والمعمَّرون: ص 26.

(72) أمالي المرتضى: 1/240.

(73) لم أقف له على ترجمة.

(74) الوصايا: ص 124.

(75) الوصايا: ص 124.

(76) انظر: المثل السائر: 1/134.

(77) المثل السائر: 234/1.

(78) المثل السائر: ص 234.

(79) المثل السائر: 235/1.

(80) الوصايا: ص 124.

(81) علم البديع: ص 208.

(82) الأغاني: 95/3.

(83) جوهر الكنز، نجم الدين ابن الأثير الحلبي، ت. د. محمد زغلول نجار، منشأة المعارف، مصر، ط الأولى، 1980هـ: ص 91.

(84) نثر الدر : 259/6.

(85) الأمالي في لغة العرب: 102/1.

(86) نثر الدر : 259/6.

(87) الأمالي في لغة العرب: 102/1.

(88) الوصايا: ص 122.

(89) انظر: وصايا الآباء للأولاد في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، عبد العزيز المقبل، رسالة دكتوراة (غير منشورة) مقدمة إلى قسم الأدب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1425هـ: 456/450/2.

(90) انظرها في: المعجم الكبير: 88/12، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 418/9، 419.

(91) انظر بعض نماذجهم في: الكامل في التاريخ، علي بن محمد ابن الأثير، ت د. عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثانية، 1420هـ، 1999م: 77، 112/2-383/114، والبداية والنهاية، إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت.د. عبد الله التركي، دار هجر، مصر، ط الأولى، 1417هـ – 1997م: 3/117-121.

(92) انظر: لسان العرب: 291/2. مادة (زوج).

(93) لسان العرب: 291/2. مادة (زوج).

(94) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغَوية، أبو البقاء أيوب الكفومي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ – 1998م: ص 104.

(95) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق: د.أحمد بدوي، ود.حامد عبد المجيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الأولى، 1960م : ص 111.

(96) النص الحِجَاجي العربي – دراسة في وسائل الإقْنَاع، د. محمد العبد،ضمن كتاب: الحِجَاج مَفهومه ومجالاته – دراسات نظرية وتطبيقية في البَلاغة الجديدة، إشراف د. حافظ إسماعيلي علوي، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط الأولى، 2010م: 59/2.

(97) كتاب الصناعتين: ص 97.

(98) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1987م: 305/2.

(99) إستراتيجية الحِجَاج التعليمي عند الشيخ البشير الإبراهيمي – مقال: (الطلاق) أنموذجًا (الجزء الثاني)، حمدي منصور جودي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، الجزائر، العدد (10، 11)، السنة 2012م: ص 332.

(100) خطاب الحِجَاج والتَّداوُليَّة – دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي : ص 227.

(101) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العملية، لبنان، ط الأولى، 1402هـ: ص 13.

(102) سر الفصاحة: ص 171.

(103) المثل السائر: 272/1.

(104) الصناعتين: ص 260.

(105) حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، البشير مجذوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط الأولى، 1982م: ص 110.

(106) حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى: ص 111، 112.

(107) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، بيروت، ط الأولى، 1418هـ: 256/2.

(108) لم أقف له على ترجمة.

(109) الوصايا: ص 128.

(110) بكأت الناقة : قل لبنها، والبئر قل ماؤه. والمعنى :إمساكه خير من إنفاقه. انظر: لسان العرب،: 34/1. مادة (بكأ) .

(111) نثر الدر : 259/6.

(112) الوصايا: ص 124.

(113) الأمالي في لغة العرب: 102/1.

(114) الوصايا: ص 124.

(115) نثر الدر: 259/6.

(116) نثر الدر: 259/6.

(117) في نظرية الأدب – من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، د. عثمان موافي، دار المعرفة، مصر، ط الأولى، 1996م: 103/1.

(118) سر الفصاحة: ص 197.

(119) سر الفصاحة: ص 287.

(120) سر الفصاحة: ص 171.

(121) المثل السائر: 237/1.

(122) انظر: علم البديع: ص 126-131.

(123) الأغاني: 95/3.

(124) جمل من أنساب الأشراف: 77/13.

التحليل الوظيفي في الدراسات اللسانية المفهوم والإجراء

صلاح الدين ملاوي(*)

توطئـــة:

اقتحم اللسانيون الغربيون معترك التحليل الوظيفي لعقود خلت، تمالؤوا خلالها على صياغة تصوراتهم حول هذا النمط التحليلي، فحملتْ كتاباتُهم رصيدا معرفيا قيّما عن هذا المصطلح، واستوت مبادئه، وشُخِّصَتْ أبعادُه الإجرائية شيئا فشيئا، فتمثّل منهجا دراسيا بيّنا، يقارب اللغة الطبيعية، ويجلّي غوامض التركيب فيها. وقد تعاقب على بناء هذا الجهاز النحويّ الواصف زُمَرٌ من الباحثين الغربيين، تقاسموا بعض المبادئ، وافترقت بهم السُّبُلُ في سياق التمثيل، فأغنوا الدرس اللساني، بما أجمعوا عليه وبما اختلفوا فيه، بمنوال نحويّ متميّز، يحاول هذا البحث أن يحيط بجوانب منه من خلال العناصر التالية:

1. المفهوم:

إنّ مصطلح (التحليل الوظيفي) المشار إليه آنفا ينهض طرفا مكافئا للمصطلح الأجنبي (Functional Analysis/Analyse fonctionnelle) الذي يحيل إلى مسائل نظرية أو عمليات إجرائية تصبّ في حقل معرفي لغوي أعمّ يدعى الوظيفية (FONCTIONNALISME)، وهي «نظرية في اللغة تعطي معظم عنايتها لوظائف المكونات لا الشكل داخل الجملة»[1]،

(*) قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات جامعة خيضر/ بسكرة، الجزائر.

تقع على طرف نقيض من النظرية الشكلانية (FORMALISME) التي تصرف عنايتها إلى الأشكال اللغوية في المقام الأول.

فالناظر إلى التحليل الوظيفي يجد معناه في الأشيع الأعرف يتضمّن «أنّ الأقوال اللغوية تُحلَّلُ بالعودة إلى الطريقة التي تؤدي بواسطتها إلى سيرورة التواصل»[2]. فالباحث، انطلاقا من اللحظة التي يحدد فيها أنّ الملاءمة الوظيفية هي التي تهديه وتوجهه في اختياراته وتصنيفاته، يكون – ولا ريب – واقعا في حيّز المشغل الوظيفي؛ لأنّ الملاءمة الوظيفية هي التي تتيح له، حقّا، فهم طبيعة دينامية اللغة بشكل أفضل[3].

وبناءً عليه، تُتصوّر اللغة، في المنزلة الأولى، أداةً تنقل من خلالها التجربة بوساطة تجلٍّ مُدرَك قابل للتحليل إلى وحدات توافق كلّ وحدة منها عنصرا من التجربة موضوع النقل[4]. فالذي ينطلق منه الوظيفي في مساق التحليل إنما هو السلوك اللغوي المدرك المتمثل في الكلام، أمّا الانزلاق إلى الثنائية السوسيرية «اللسان/ الكلام»، فمردود من هذه الوجهة ؛ فليس ثمّة اللسان والكلام على الإطلاق، وإنّما هنالك الكلام وحده لا شريك له (فقط)[5]. والمقاربة الوظيفية لا تلقي بالاً إلى اللسان ما لم يكن في خدمة الكلام. إنها لا تُعنى بالقدرة عندما لا تخبر هذه القدرة عن الأداء. إنها ترفض التفريق بين المصطلحين، يقول سيمون ديك: «أنا لا أعتقد بوجوده [التمييز بين القدرة والأداء] فالتمييز الأساسي يجب أن يكون في الحقيقة بين ما يفعله المتكلمون والمستمعون في حالات معينة من التواصل (الأداء)...فليست ثمة وجهة، على أية حال، في طلاق القدرة من الأداء، ودراستهما بمعزل عن بعضهما»[6].

ومما تجب الإشارة إليه – أيضا – أنّ المعتبر في التحليل الوظيفي هو المدلول وليس الدالّ. فالغاية التي يجري إليها التحليل هي المدلول ؛ أمّا الدّال، فوسيلته تَمْثُلُ لتجليته لا غير. فهنالك تفاضل في المنزلة بين

الوجهين، وليس من داعٍ إلى وضعهما على صعيد واحد كما هو الحال عند أولئك الذين يتصورون وحدات الكلام رموزاً[7].

فالأسلم قيلا أنّ الأغراض هي التي ترهق المحلّل من أمره صعودا، فما ينفكّ يلهث وراءها، وما الألفاظ، في بابها، إلاّ أثواب تلبسها المعاني، فهي أوعية لها تَسِمُها على مستوى البنية التعجيمية. «والمعنى هو عماد اللفظ، واللفظ هو زينة المعنى، والمعاني بمنزلة الأرواح والألفاظ بمنزلة الأجساد»[8].

وغنيٌّ عن البيان – على حد تعبير يحيى بن حمزة العلوي – «أنّ منزلة المعنى من اللفظ هي بمنزلة الروح من الجسد»[9]، فكيف يستويان مثلا؟! فمدار الأمر على إصابة المعاني لأنها «تحلّ من الكلام محلّ الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكُسْوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة»[10]. ألم ترَ أنّ الألفاظ لا تُؤَمُّ لذواتها، وإنّما يُستدلُّ بها على مراد المتكلم ومقصوده؟!»[11]. والتحقيق أنّ المراد والمقصود ليسا سوى المعنى المحصّل الذي هو مناط العملية التواصلية، يقول الشاطبي (ت 790هـ) في هذا الصدد: «فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد والمعنى هو المقصود»[12]، ومن شأن ذلك أن يدفع إلى ربط الدراسة اللغوية بالمعاني التي يسيّرها قصدُ المتكلم من وراء كلِّ مُنجز لفظي. فالوظيفية، إذن، منهجٌ يُتَوَسَّلُ به إلى دراسة المعنى من حيث هو قِيَّمٌ دلالية تستوجب تنظيما خاصّا في المبنى.

وهكذا، فإنّ الوسم بالوظيفي أو الوظيفية لا يخرج، على الأقل، عن المعاني الثلاثة التالية[13]:

1. أخذ وجهة نظر وظيفية بالنسبة إلى طبيعة اللغات.
2. صرف العناية الأساسية إلى العلاقات الدلالية في مستويات النحو المختلفة.

3. السعي نحو تحقيق الإجراءات العملية لتحليل السمات المتنوعة للغة واستعمالها.

2. **المبادئ المنهجية:** نجليها في النقاط السبع الآتية:

1. **اللغة، في المنوال الوظيفي**، متصوّرة في المقام الأول كآلة للتفاعل الاجتماعي، يستعملها الكائن البشري لتحقيق مآربه والظفر بأغراضه(14). وبناء على هذا التصوّر الآلي والأداتي للغة، يصير لزاما أن توصف الخصائص البنيوية للُّغة على أساس دورها في التفاعل الاجتماعي الإنساني ؛ أي: من حيث المتطلبات الواقعية للتواصل(15).

وانطلاقا من هذا المنظور، يتعيّن على الدراسات اللسانية أن تتعامل مع نوعين من الأنظمة القواعدية، كلاهما ذو طبيعة اجتماعية(16):

* **قواعد تداولية**: تحكم التفاعل الشفوي كشكل من أشكال الأنشطة التعاونية.

* **قواعد دلالية وتركيبية وصواتية**: تحكم بنية التعابير اللغوية المستعملة كآلات في هذا النشاط الاجتماعي.

2. **التعابير اللغوية تتحدَّدُ بالمحدِّداتِ التداولية**، حيث لا يمكن وصف خصائص العبارات اللغوية في معزل عن الطبقات السياقية التي يمكن أن تستعمل فيها؛ ذلك أنّ بناء الآلة يتحدد - جزئيا وعلى الأقل - من حيث الشروط والأغراض الموضوعة للاستعمال. فالوظيفيون يضعون نصب أعينهم محاولة فهم لمَ اللغات منظمة على النحو الذي هي عليه في ضوء دواعي التداول ومتطلباته(17)، وعليه يصير المنوال النحوي الوظيفي متخيّلا «كجزء من نظرية تداولية أوسع من اللغة، مجال موضوعها التفاعل الشفوي»(18). بل إنّ النظام اللغوي نفسه ليس بسائغ أن يعتبر مستقلا ذاتيا عن التعلّق

بالنظرية التداولية التي تعدّ جوهره[19]. فمن الخطأ الجسيم أن تنفصل الدراسة اللغوية عن استصحاب السياق الذي يعدّ قرينة فارقة ذات أهمية بارزة في تعيين القصد ورفع الاحتمال ودفع الإلباس عن دلالة المنطوق. وقد انتبه العرب، قديما، إلى فضل ذلك في تحقيق هذه الغايات الشريفة، فعاب ابن القيّم من يقصر النظر في تحليل النصوص على الدلالة المعجمية دونما اكتراث إلى ما يوجبه السياق من تخصيص وتقييد وغير ذلك ممّا يُتوسَّل به إلى تحقيق الدلالة، يقول: «السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم. فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[20] كيف تجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير»[21].

3. **التركيب لا يعتبر في المنوال الوظيفي** مستقلا عن التعلق بعلم الدلالة[22]؛ ذلك أنّ الغرض الرئيس من النشاط اللغوي هو إبلاغ المعنى. وطبقا لهذا الغرض تُجَمَّع وسائل اللغة على قاعدة دلالية، حيث يتيسّر البدء بالمعنى في اتجاه اللفظ؛ أي: انطلاقا من البنية الوظيفية نحو الوسم اللفظي، أو بعبارة أخرى: من الوظائف إلى الوسائل. وهذا الإجراء التحليلي يكاد، لشدة التعلق به، يصير إمكانية أساسية في المقاربات الوظيفية المعاصرة ؛ إذ نجدها مطبَّقةً في قطاعات بحثية منها باعتبار هذه الإمكانية تميِّزُها بوضوح عن المقاربات الشكلية المنطلقِ فيها من الوسائل تلقاء الوظائف. غير أنّ هذه الخاصّة، مع أهميتها، ليست إجبارية لامندوحة للتحليل عنها، حيث يمكن المضيُّ في الوصف النحوي

من الشكل إلى المعنى (من الوسائل إلى الوظائف) دون أن يفتقر الوصف إلى السمة الوظيفية، لكن شريطة أن يستهدف الوصف فحصَ قوانين اشتغال الوحدات النحوية في الخطاب(23).

فالحريُّ بالبيان - وفاقا لما مضى - أنّ التحليل من الوظائف إلى الوسائل يطابق وجهة نظر المتكلم، بما يجعل ميدانه التكوّن الدلالي، بينما سوق التحليل من الوسائل إلى الوظائف - وفق الإمكانية الثانية - يطابق وجهة نظر المستمع، ومن شأن ذلك أن يسلكه في التأويل الدلالي. ولا شكّ أنّ كلا الإجراءين مستندٌ إلى قاعدة دلالية صلبة(24).

4. **ينطلق الوظيفيون في مناويلهم من فرضية** قوامها أنّ «نظام اللغة تطور (ويتطور بشكل ثابت) لخدمة الوظائف التي نحتاجها. لذا، فإنّ ملكة التفاعل [التواصل] بغرض قول الأشياء إلى الآخرين جزء متأصّل من استعمال اللغة»(25).

5. **تعدّ الوظائف في الأنحاء الوظيفية مفاهيم أولى غير مشتقة من بنية مركبية**، فهي تنتمي إلى الأبجدية النظرية للنحو، على خلاف المدروج عليه في النماذج التوليدية التحويلية الكلاسيكية من عدّ الوظائف ثانية مشتقة من ترتيب المقولات (الاسم والفعل) داخل شجرة التركيب(26).

6. **إنّ القدرة، في المنظور الوظيفي، قدرة أداء في مقامات تواصلية** ؛ أي: إنها قدرة تواصلية تنشأ عن مجموع القدرات التي تتشكّل معا في أماكن معينة مع التعلق الشديد بتحديد المخاطبين تبعا لطبقات مقامية مخصوصة على ضوء الأهداف المحددة والأغراض المستودعة في ضمير المتكلمين(27). فهي، بعبارة المتوكل، «معرفة المتكلم للقواعد التي تمكنه من تحقيق أغراض تواصلية معينة بواسطة اللغة»(28).

7. **يكتسب الطفل لغته، في نظر الوظيفيين، باكتشاف النسق الثاوي خلف اللغة واستعمالها** ؛ أي: إنّه يكتشف العلاقات التي تنهض بين الأغراض التواصلية والوسائل اللغوية[29].

لا شكّ أنّ صرف النظر إلى المبادئ السالفِ ذكرُها موجبٌ القولَ: إنّ التحليل الوظيفي يقع ضدا للتحليل الشكلي، ومن شأن ذلك القول أن يؤسِّسَ لمنوالين لسانيين متمايزين: منوال نحوي وظيفي، ومنوال نحوي شكلي صوري. وفي الجدول الموالي[30] مَجلى الفروق التي تتراءى بين المنوالين، وفي ذلك تدقيق لماهية التحليل الوظيفي قيد البحث.

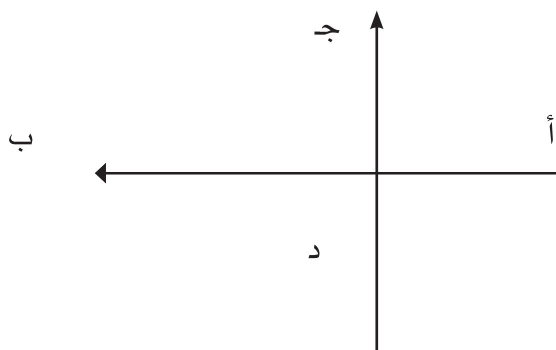
	المنوال الشكلي	**المنوال الوظيفي**
أ. كيف تعرّف اللغة؟	اللغة مجموعة من الجمل.	اللغة آلة للتفاعل الاجتماعي.
ب. الوظيفة الأساسية للغة.	الوظيفة الأساسية هي التعبير عن الأفكار.	الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل.
ج. التعالق السيكولوجي.	التعالق السيكولوجي للغة هو القدرة: القدرة على الإنتاج، والتأويل، والحكم على الجمل.	التعالق السيكولوجي للغة هو القدرة التواصلية: القدرة على مواصلة التفاعل الاجتماعي بوساطة اللغة.
د. النظام واستعماله.	دراسة القدرة لها منطقيا وميثودولوجيا أولوية على دراسة الأداء.	دراسة نظام اللغة يجب من البداية أن تحدث ضمن إطار نظام استعمال اللغة.
هـ. اللغة والمقام.	جمل اللغة يجب أن توصف بشكل	وصف التعابير اللغوية يجب أن يزوّد نقاط

	المنوال الشكلي	المنوال الوظيفي
	مستقل عن المقام (السياق والحال) فيما تستعمل.	التواصل، لوصف اشتغاليتها في مقامات معينة.
و. اكتساب اللغة.	الطفل يبني نحو اللغة باستعمال ملكاته الفطرية على أساس ضيق جدا وغير منظم من المعطيات اللغوية.	الطفل يكتشف النظام الكامن في اللغة واستخدامها، بمساعدة شاملة ومنظمة جدا من المعطيات اللغوية الممثلة للمقامات الطبيعية.
كلّية اللغة.	كلية اللغة تعتبر ملكة فطرية في الكائن الحيّ الإنساني.	كلية اللغة تتضح من خلال القيود المتأصلة في: أهداف التواصل. المكون الحيوي والنفسي لمستعملي اللغة. المقامات التي تستعمل فيها اللغة.
العلاقة بين علم التركيب وعلم الدلالة والتداولية.	علم التركيب مستقل ذاتيا عن علم الدلالة: علم التركيب وعلم الدلالة مستقلان	التداولية هي الإطار المهيمن على أيّة دراسة دلالية أو تركيبية. فالأولوية للتداولية مرورا بعلم

	المنوال الشكلي	المنوال الوظيفي
	استقلالا ذاتيا عن التداولية. الأولوية لعلم التركيب مرورا بعلم الدلالة وصولا إلى التداولية.	الدلالة وصولا إلى علم التركيب.

3. **موقع الوظيفية من التيارات اللسانية:**

لقد ساد في أوساط الباحثين اللسانيين، ردحا من الزمن، التمييز بين منهجين في دراسة اللغة: منهج وصفي يتناول جميع المظاهر الموصولة بأوضاع النُظُم اللغوية في حالة ثبات وسكون، ومنهج تاريخي يتعقب أشكال التطور المختلفة وعوامله. ويعود الفضل في إرساء هذه الثنائية إلى دي سوسير[31] عندما ميّز، بوضوح، بين: محور آني يُعنى بالعكوف على رصد العلاقات القائمة بين العلامات اللغوية في حيّز زمني محدّد بصرف النظر عن حالة اللغة قبل وصولها أو بعد وصولها إلى تلك الحال، وهذا المحور هو الواصل بين (أ) و(ب) من التقاطع المحوري الموالي:



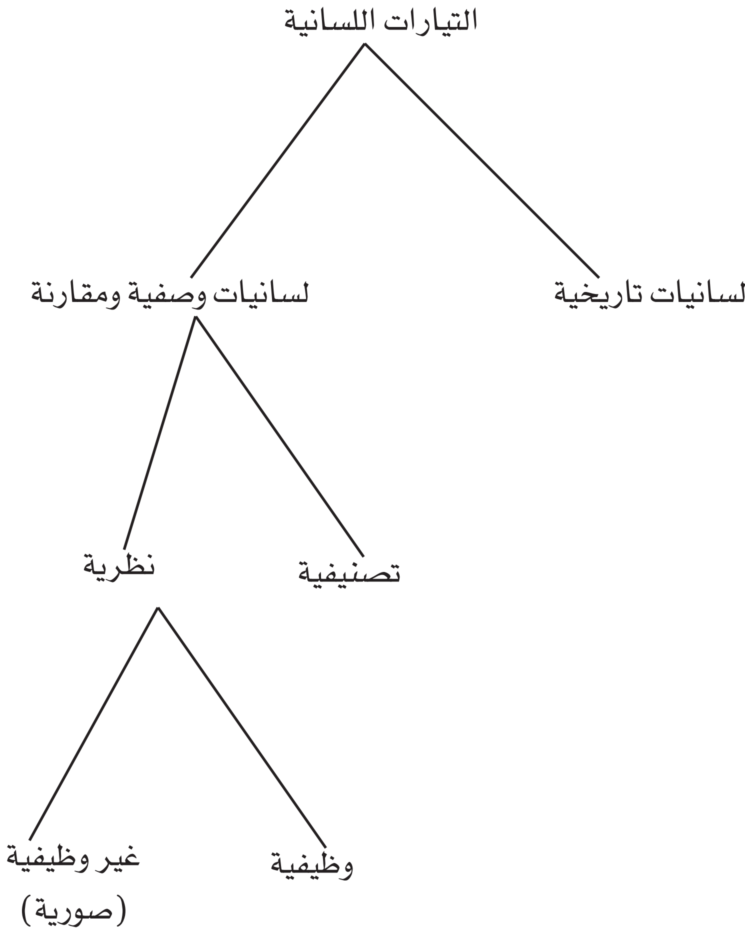
ومحور زماني يصل بين (ج) و (د) يرمز إلى الصيرورة الزمانية للظاهرة اللغوية موضوع الدراسة.

ثمّ مالبث - بعد أن انحسر دور الأبحاث اللسانية التاريخية والمقارنة- أن أخذ مؤرخو اللسانيات المعاصرة بالتفريق بين اتجاهين لسانيين بارزين: اتجاه تصنيفي استغراقي يُعنى أصحابُه بالوصف، ويَقنَعون به، ويَقصُرون النظرَ على آلياته باستقراء المادة اللغوية وتصنيفها وتحديد كيفياتها، واتجاه تنظيري يجاوز أربابه الوصف إلى التفسير ؛ إذ يتساءلون عن علّة وجود الظاهرة اللغوية، ولا يكتفون بتحديد كيفياتها، بل يتخطون الملاحظة إلى الافتراض.

والملاحظ في سياق التنظير أنّ المقاربات اللسانية للظواهر اللغوية اختُزلت في منوالين: منوال شكلي صوري يَعُدُّ أصحابُه اللُّغةَ نَسَقًا مُجرَّدا (مجموعة من الجمل المجردة) مستقلا عمّا يتّصل بطُرق الاستعمال، يَعمدون إلى تمييزه من جانب القواعد الشكلية للتركيب. ومنوال وظيفي حريص على النظر إلى اللغة كآلة للتواصل الاجتماعي(32).

غير أنّ من الباحثين من أوجب التفريق بين المنوالين السابقين لا على أساس الصورية والوظيفية، بل على أساس الوظيفية وغير الوظيفية ؛ فأما الأولى، فتصف صورة اللسان انطلاقا من وظيفته التواصلية. وأما الثانية، فتصفها في معزل عن هذه الوظيفة، حيث تُعدّ خصائص اللسان الصورية مقومات مستقلة عن التعلق بالدلالة والتداول. وداعية إلى إقامة البديل لما درج عليه الدارسون ألاّ مطعن في أن يجمع الأنموذج اللساني الواحد بين الوظيفية والصورية ؛ إذ جميع الأنحاء الوظيفية أنحاء صورية تستخدم عُدَّةً منطقية رياضية في التمثيل المجرد للظواهر اللغوية موضوع الوصف(33).

ويتكفل المخطط الموالي بتوضيح موقع الاتجاه الوظيفي من التيارات اللسانية الحديثة:



4. نماذج التحليل النحوي الوظيفي في الدراسات الغربية:

حريّ بالبيان أنّ من يتقصى الأنحاء الوظيفية الغربية المعاصرة يلفيها صنفين: صنفا منبعثا من رحم التيار الوظيفي ذاته ناشئا في رحاب ظلاله، وهو الأعظم قدرا والأكثر نفرا، وصنفا محاقلا لتيار صوري توليدي معارض، نشأ في أحضانه متجاوزا له بعض الشيء، يصوغ جهازَه الواصف لبنية النحو وتنظيم مكوناته بإدراج مكون يفي

بالتمثيل للجوانب التداولية داخله، لا يكون لاحقا بالمكون التركيبي بل نظيرا له، ويمثّل هذا الصنف في البحث نموذجان توليديان هما: التركيب الدلالي، والمعجمية الوظيفية. وهذا بيانه:

1.4. الأنحاء الوظيفية:

نشأت هذه الزمرة خالصة لتفحص الوظائف في الخطاب، وتحرّي سُبُل ذلك، ولها الفضل في تعميق الأنظار الوظيفية وتدقيق مسائلها، وهي الآتية:

1.1.4. المنظور الوظيفي للجملة (PERSPECTIVE FONCTIONNELLE DE LA PHRASE):

غنيٌّ عن البيان أنّ اللسانيات الوظيفية المعاصرة، على اختلاف نماذجها وتنوع إمداداتها، مدينةٌ بالفضل لحلقة براغ اللسانية (CERCLE LINGUISTIQUE DE PRAGUE)، التي اختطّت لنفسها منهجا وظيفيا، وكوّنت لها رصيدا معرفيا متميّزا. تعاون على تأسيسها سنة 1926م وتعميق أنظار البحث فيها جيل من الباحثين الذين أشربوا في قلوبهم حبّ الدراسات اللسانية، من أمثال: ر.جاكبسون، وس.كارسيفيسكي (S.KARCEVSKI)، ون. تروبتسكوي (N. TROBTSKOY)، وقد كان الثلاثة من الروس المهاجرين، ومن أمثال اللسانيين التشيكيين: ف. ماثيسيوس (V.MATHESIUS)، وب.ترنكا (B.TRINKA)، وب. هافرانيك (B.HAVRANEK)، وي. موكاروفسكي (Y.MOKAROVSKI)، وي. فاشيك (J.VACHEK)، وف.سكاليتشكا (V.SKALIĊKA)، وأ.ف.إيزاتشينكو[34] (A.V.ISAĊENKO).

وتقاسم هؤلاء مجموعة من المبادئ الأساسية تضمّنها البرنامج المنشور سنة 1929م في العدد الأول من المجلة التي أصدروها باسم «حلقة براغ اللسانية»، وتتمثّل (إجمالا وبتصرف) في[35]:

2. كون اللغة نظاما يتألف من وسائل تعبيرية تؤدي وظيفتها في تشجيع الفهم المتبادل. ولذلك يجب على اللساني أن يصرف نظره إلى أحداث النطق الملموسة بتحديد: ما يجري توصيله؟ وكيف؟ وإلى من؟ ومتى؟

3. عدّ اللغة حقيقة واقعية محكوما نمطُها بعوامل خارجية ترتدّ إلى الوسط الاجتماعي والمرسَل إليه وموضوع الرسالة. فيكون من الضروري بمكان التمييز بين أنماط اللغة في النظرية والتطبيق.

4. اشتمال اللغة على تجليات الشخصية الإنسانية الذهنية والعاطفية التي ينبغي أن يستقصيها البحث اللساني بملاحظة العلاقة بين أشكال اللغة التي يتمّ بها توصيل الأفكار والعواطف على التعاقب.

5. انعدام التطابق بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، ممّا يوجب فحص العلاقة بين اللغتين.

6. إيلاء العناية للبحث الآني لما له من تأثير على الواقع اللغوي الفعلي، دونما إهمال للبحث الزماني، ولاسيّما أنه يكتسب ملحظ القيمة إذا كان منظورا إليه على أنّه تطوّر مجمل للنظام.

انطلاقا من هذه الخارطة استقرى علماء حلقة براغ اللغة في جانبها الوظيفي باعتبارها نظاما يرمي إلى تمكين الكائن البشري من تحقيق غرض التواصل. لأجل ذلك آمنوا أنّ الدراسة اللسانية يجب أن تُصرف تلقاء المكونات التي تضطلع بدور في سياق تواصليٍ. فمشغل اللساني الأوكد هو فحص العناصر اللغوية التي تحمِل شحنةً إعلامية. أمَّا ما كان منها مفتقرا لهذه الصفة، فينبغي ألاّ يكون به اعتداد على وجه القطع[36].

تحقيقا لهذا الغرض، حلّل أصحاب هذا الأنموذج اللساني الوظيفي لغات معينة على نحو يستقطب الوظائف التي تناط بالمكونات البنيوية في حالات فعلية من الاستعمال[37].

واتضح ذلك المشغل فيما تضمنته مقالات ماثيسيوس من تحليل دُعي بالمنظور الوظيفي للجملة، يقوم على أساس من القيمة الاتصالية للغة، حيث ينطلق من فكرة مُفادها أنّ الوظيفة الأساسية لملفوظ ما هي، في واقع الأمر، تزويد المتلقي بمعلومة لا يعرفها من قبلُ. وهكذا تتميّز مكونات الملفوظ بالنظر إلى مدى إسهامه في التكفل بأداء هذه المهمة المنوطة به. فتنقسم الجملة، تبعا لذلك، إلى شقين: الأول يسمى الموضوع (THEME)، ويتعلّق بشيء يعرفه السامع غالبا. والثاني يسمى المحمول (RHEME)، وتُناط به مهمة حمل المعلومات الجديدة المسندة إلى الموضوع المطروح. والملاحظ أنه في غير الحالات الخاصة التي يكون فيها الضغط الإبلاغي أكبر، أي حالما يكون نسق الجملة محايدا، فإنّ الموضوع يقدّم في المرتبة على المحمول[38]؛ لأنّ «المشجب يتأسّس في عقل المستمع قبل أن يظهر الشيء الذي سيعلقه على هذا المشجب»[39].

وقد تلقّف فيرباس (J. FIRBAS) هذا المنظور عن زميله ماثيسيوس، متخذا إيّاه أساسا في التحليل، وقد أثراه بمفهوم جديد يدعى الدينامية الاتصالية أو الحركية التبليغية (DYNAMISME COMMUNICATIONNEL)، عادة ما يعبّر عنه في اللغة الإنجليزية بالرمز (CD)، وأساسه أنّ المكونات الحوامل للمعلومات الجديدة تتسم بأعلى درجات الحركية التبليغية ؛ فما يرد أوّلا يكون ذا حركية اتصالية أضعف ممّا يرد وسط الجملة، وهذا الأخير بدوره يكون أضعف مما يرد آخرها وفق سلمية محفوظة. ففي الجملة الفرنسية: (PAUL FRAPPE PIERRE)، يتصدّر المفعول أعلى درجات الحركية التبليغية، ثمّ يليه المحمول في المنزلة، بينما تضعف درجة الموضوع فتبلغ أدناها حيث يعكس ترتيب مكونات الجملة قدرتها على تحريك الحدث الكلامي، كما هو موضّح من التمثيل التالي للجملة:

PAUL	FRAPPE	PIERRE
الدرجة الثالثة من CD	الدرجة الثانية من CD	الدرجة الأولى من CD

وطبقا لمنظور الحركية التبليغية المشار إليه يتحدّد الموضوع، عند فيرباس، على أنه المكوّن الآخذ أضعف الدرجات، بينما يتحدد المحمول بكونه المكون أو سلسلة المكونات التي تأخذ أعلاها[40]. ولاشكّ أنّ مثل هذا التحديد يأخذ في الحسبان معطيات السياق، «فالسياق هو الذي يحدّد لنا ما إذا كان أحد عناصر الجملة شيئا معلوما أو شيئا جديدا»[41]، بحيث يجب في سبيل تحديد وحدات الجملة موضوع الدراسة مراعاة تضافر العوامل الثلاثة التالية[42]:

1. نسق الجملة.
2. السياق العام للحدث اللغوي.
3. السياق الدلالي الخاص للجملة.

فتحديد مكونات الجملة وظيفيا في المثل العربي السائر: على نفسها جَنَتْ بَراقِشُ، لا يستقيم أمره إلاّ باستحضار السياق الذي يصطحب الجملة، وهو الاستفهام عمّن وقعت عليه الجناية، طباقا لما يلي[43]:

السياق: على من جنت براقش؟

الجملة: على نفسها جنت براقش.

محمول موضوع

ويلاحظ في الإطار نفسه أنّ دانيش - كذلك - كان ممّن عكفوا على تعميق أفكار ماثيسيوس وتطويرها، فلم يألُ جهدا في هذا السياق المعرفي، داعيا إلى تحليل الجملة طبق مستوياتها الثلاثة: المستوى الدلالي، والمستوى النحوي، والمستوى الوظيفي. فأمّا المستوى الأوّل،

فيتضمن تحديد الحدث والمشاركين فيه كالمنفذ والهدف. وأما الثاني، فيحلّل الجملة من خلال تحديد الفعل والفاعل والمفعول. وأما المستوى الثالث ذو الدور الأساسي حيث مطابقة الجملة للسياق التواصلي، فيتكفل بتشقيق الجملة إلى مكونيها الأساسيين: الموضوع والمحمول ؛ يكون الأول موضوعا للحديث يصوّر المعلومة التي يتقاسمها المتخاطبان، فيجيء منبورا حاملا لأدنى درجات الحركية التبليغية. بينما الثاني هو الحديث الذي يراد إفادة المتلقي به، فيتصف لذلك بالجدة ووقوع النبر عليه وتحصيله للدرجة العليا في سلّم الحركية التبليغية، كما يظهره الجدول الموالي(44):

الموضـوع	المحمـول
1. موضوع الحديث.	1. موضوع الحديث.
2. معلومة متقاسمة.	2. معلومة جديدة.
3. غير منبور.	3. حامل لنبر الجملة.
4. أدنى درجات الحركية التبليغة.	4. أدنى درجات الحركية التبليغة.

وحريٌّ بالبيان أنّ المستويات الثلاثة تتآسر فيما بينها، فيضطلع كلٌّ منها بتحديد بنية الجملة على النحو الموصوف قبلُ وفاقا لما يوضحه الجدول الموالي:

الجملة	PIERRE	FRAPPE	PAUL
المستوى الدلالي	هدف	حدث	مُنَفِّذ
المستوى النحوي	مفعول	فعل	فاعل
المستوى الوظيفي	محمول		موضوع

2.1.4. النحو النسقي (SYSTEMIQUE GRAMMAIRE):

نشأ هذا الأنموذج النحوي بين أحضان المدرسة السياقية الأكسفوردية التي أولت عناية فائقة إلى مقام التخاطب (CONTEXTE DE SITUATION)، فرصدت اللغة من منظور علاقتها بالمتغيرات الخارجية باعتبارها جزءا من الحدث الاجتماعي[45]. وقد تأثرت هذه المدرسة بأفكار عالم الأجناس البولندي مالينوفسكي الذي أوضح أنّ معنى الجملة لا يتحدد إلاّ في نطاق السياق المعيّن الذي ترد فيه[46].

وقد تلقّف فيرث هذه الفكرة بشَرَه، فدقّقها أكثر فأكثر واضعا إياها في إطار النظرية اللغوية بعدما ًكانت واقعة في حيّز المشغل الأنثروبولوجي، ملحّا على ضرورة استحضار معطيات السياق إذا ما روم تحليل معنى الجملة ؛ لأنه حصيلة المواقف الحية التي تلابس الأحداث التي يمارسها الأشخاص في البيئة الاجتماعية. وبالتالي فلامندوحة للدارس عن مراقبة العناصر السياقية التالية[47]:

1. الحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي.
2. الأحداث اللغوية نفسها مع ما يلابسها من خصائص نطقية وغير نطقية.
3. الأشياء التي لها صلة بالحدث اللغوي.
4. الأثر الذي ينجم عن العبارات اللغوية.

وكذا تحليلِ اللغة من خلال التعامل مع مستوياتها الأربع: المستوى الصوتي، ومستوى المفردات، والمستوى النحوي، والمستوى الدلالي التي تتضافر من أجل الكشف عن خصائص محوري النظام والبنية المتعالقين على النحو الممثّل له بالترميز الفيرثي التالي[48]:

S

Y

S

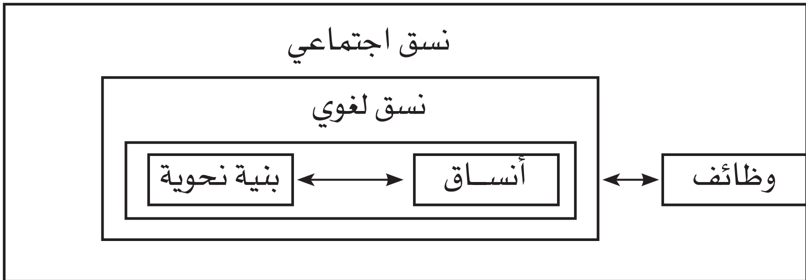
DTRUCTURE

E

M

E

والملاحظ أنّ هذه الأفكار غدت أشدَّ إحكاما وأكثر انسجاما على يد هاليداي «الذي كرّس الانتباه الكبير إلى العلاقة بين اللغة والسياق الاجتماعي، وإلى الاستعمال اللغوي الفعلي»[49]، فاستطاع أن يمنح أفكار أستاذه الوضوح والتماسك اللذين كانت تفتقدهما. بل خطت اللسانيات النسقية على يديه مرحلة أخرى، فتجاوز ما تَمَثَّلَه من أفكار أستاذه فيما ابتناه من جهاز واصف لمكونات الجملة، ولاسيما عقب صدور كتابه «مدخل إلى النحو الوظيفي» سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف المعدود، بحق، بعثا جديدا في حياة النحو االنسقي، وهو ما جعل بعض الباحثين لا يتردّد في تسمية هذه الحقبة الثانية بالنحو النسقي الوظيفي[50]. إذ صارت الوظيفة خاصية جوهرية للغة تتموضع داخل الجهاز النحوي الواصف لمكونات الجملة، يقول هاليداي: «سوف تفسّر اللغة لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفه خاصية جوهرية للغة نفسها، وشيئا أساسيا في تطور النظام الدلالي، فكأنما نقول إنّ تنظيم أية لغة طبيعية يفسّر في ضوء نظرية وظيفية»[51]. وانطلاقا من هذا التصور الوظيفي لبنية اللغة نسج هاليداي خيوط نظريته النحوية مركزا على ثلاثة مفاهيم أساسية هي: مفهوم الوظيفة، ومفهوم النسق، ومفهوم البنية كما تظهره الخطاطة التالية[52]:



حيث يُتصوّر النحو، على الرغم من احتفاظه باستقلاله، موصولا بنسق السلوك الاجتماعي المنعكس داخل البنية النحوية؛ من خلال أنساق ثلاثة، هي في الواقع انعكاس طبيعي للوظائف اللغوية التجريبية والتبادلية والنصية التي تتموضع خارج مجال النحو باعتبارها مجموعة من أشكال النشاط الاجتماعي(53) - وقد سبق إليها القول وأغنى عن تكرارها- والأنساق الثلاثة هي: التعدية، والصيغة، والموضوع. وهي تعبّر عن التعالق القائم بين النص والمقام من خلال عناصر المقام الثلاثة: مجال الخطاب، ونوع المشاركة فيه، وصيغته طبقا للجدول الموالي(54):

المقام سمات السياق	يتحقق ب	النص المكون الوظيفي
مجال الخطاب ما يدور حوله		المعاني التجريبية التعدية، التسمية... إلخ
نوع المشاركة في الخطاب من يشترك في الحديث		المعاني التبادلية الصيغة، الصيغية، الشخص... إلخ
صيغة الخطاب الدور المخصص للغة		المعاني النصية الموضوع - المعلومات - علاقات متماسكة

وتتضح أنساق البنية الثلاثة من منظور التعدد الوظيفي ؛ إذ إنّه «مفتاح التأويل الوظيفي للبنية النحوية»[55]، بل هو من المفاهيم الأساسية في نظرية النحو النظامي، ويراد به أنّ للمركّب، في أغلب الحالات، أكثر من وظيفة واحدة في آن واحد[56]. ونستطيع أن نتبيّن أبعاد هذا المبدأ الوظيفي الذي يشكّل نقطة انطلاق أساسية في التحليل النسقي من خلال مراقبة مصطلح الفاعل (SUBJECT-SUJET) ، مثلا، الذي يعدّ أحد المفاهيم الأساسية التي لها حضور قوي في التحليلات النحوية التقليدية. فمن الواضح أنه مفهوم استعمل طبق معان ثلاثة غير متطابقة: الفاعل النفسي، والفاعل النحوي، والفاعل المنطقي. فأمّا الأول، فيعني أنه محور الرسالة، فهو أوّل ما يبدأ به المتكلم في ذهنه عندما يشرع في إنتاج الجملة. وأمّا الثاني، فيعني ذلك العنصر المسنود به عنصر آخر، ودعي نحويا ؛ لأنّ بناءه كان من جهة تعالق نحوي شكلي محض قائم بين الرموز داخل المنظومة اللغوية. وأما الثالث، فهو الفاعل الحقيقي للحدث من منظور العلاقات بين الأشياء في المنظومة الاجتماعية. ويتكفل الجدولان الآتيان بإيضاح القصد وبيان المراد من خلال تقليب النظر في صور الجملة الإنجليزية التالية التي أوردها مايكل هاليداي في كتابه الذي فتح به آفاقا جديدة في النسقية الوظيفية[57].

الجملة[58]: (The duke gave my aunt this teapot).

الجدول 1:

gave my aunt this teapot	The duke
	فاعل نفسي وفاعل نحوي وفاعل منطقي

الجدول 2:

The duke	was given by	my aunt	This teapot
فاعل منطقي		فاعل نحوي	فاعل نفسي

وتجدر الإشارة في هذا السياق أنّ ما كان معروفا في المصطلحية القديمة بالفاعل النفسي يدعوه أصحاب الأنظار النسقية بالموضوع (THEME)، وما كان فاعلا نحويا يظلّ فاعلا (SUBJECT)، وما كان فاعلا منطقيا يصطلح على تسميته بالمنفذ (ACTOR) كما توضحه الجداول الثلاثة التالية(59):

(أ)

My aunt	Was given this teapot by	The duke
موضوع فاعل		منفذ

(ب)

this teapot	The duke	Gave to my aunt
موضوع	فاعل منفذ	

(ج)

by	The duke	My aunt	Was given this teapot
فاعل نفسي	منفذ موضوع	فاعل	

ويلاحظ أنّ «الدوق» ورد منفذا في جميع صور الجملة، بينما يتحدد الفاعل والموضوع طبقا لما يلي:

الموضوع = فاعل مع منفذ منفصل، أو منفذ مع فاعل منفصل كما في الجدولين: (أ) و(ج).

الفاعل = منفذ مع موضوع منفصل كما في الجدول (ب).

وبناء على ما تقدم، يصير ممكنا تحديد وظائف الموضوع في بنية الجملة باعتبارها رسالة، بأنه نقطة الانطلاق فيها. إنه «العنصر

الذي يختاره المتكلم لتنمية ما سيقوله»[60]. كما تحدد وظائف الفاعل في بنية الجملة بوصفها تبادلا بين المتكلم والمستمع، حيث الضامن لهذه الصفقة هو الفاعل، فهو العنصر المجعول مسؤولا عن صلاحية ما يقال. في حين تتحدد وظائف المنفذ في بنية الجملة كتمثيل أو بناء لحدث ما في إطار تجربة إنسانية متواصلة[61].

وهكذا، يلاحظ أنّ الجملة تحكمها أبعاد ثلاثة، كلّ واحد منها يسهم في تمييز المعنى الذي هو غاية الدراسة ومعقدها. فينبغي، في النحو النسقي، أن تحاط الجملة من جميع زواياها، وفي ضوء انعكاس وظائف الأنشطة الاجتماعية على مرآة البنية النحوية باعتبار اللغة أداة مطواعة للتواصل بين أفراد المجتمع.

3.1.4. **البنيوية الوظيفية الفرنسية:**

يمكن أن يوصف هذا الأنموذج الوظيفي بأنه امتداد طبيعي ومتطوّر لحلقة براغ اللسانية، ولاسيما للأسس التي اختطها تروبتسكوي؛ إذ استطاع أندري مارتني وأتباعُه أن يمنحوها التماسك المنهجي الأقوم، فاستوت على أيديهم نظرية تركيبية «وظيفية وكذلك هيكلية وواقعية»[62]. فمرتكزها تحليل الوسائل اللغوية المستعملة من لدن المتكلم في طبقات تواصلية ملموسة، والتوجه تلقاء السمات النحوية للخطاب على ضوء النظرية التبليغية[63]؛ أي: إنّ «الأقوال تحلّل بالعودة إلى الطريقة التي تؤدي بواسطتها إلى سيرورة التواصل»[64]، دونما تعسف في التجريد أو غلواء في التأويل. فهي - حسب توصيف الطيب البكوش - «نظرية وسط، قريبة من الواقع الملموس، بعيدة عن الشطط في الافتراض والتجريد»[65]، لا تنشغل بتحليل اللغة ما لم تكن نشاطا كلاميا ملموسا لا تتعذر مراقبته ومعاينته على أساس استنباطي تجريبي غير استبطاني ينفّذ بواسطة الاستبدال[66]. يعزّز مارتني هذه الفكرة

بقوله: «ليس ثمّة شيء نستطيع أن نشير إليه على أنه اللسان. إنّ اللسان غير موجود على الإطلاق... إنّ الموضوع الذي يجب علينا دراسته هو لسان ما»[67]، ويقول في موضع آخر: «لسان ما أنا أعرف، اللسان أنا لا أعرف أبدا»[68]. بل يقوده هذا التصور عن اللسان إلى الإقرار بالمسلك الواقعي الذي يُمتدح به وينكره عليه آخرون بقوله: «فأنا أتهم بالواقعية وأحمد عليها، ولكنني فعلا واقعي». وغني عن البيان أنّ هذا السمة الواقعية الملتصقة بهذا الأنموذج اللساني لا تحول دون انبنائه على أساس نظري محكم[69]، ينطلق في تحليل الجملة نحويا من موقع نظرته العامة إلى طبيعة اللغة باعتبارها أداة للاتصال تنحلّ إلى وحدات ذات مضمون دلالي وتعبير تصويتي[70]. وفي ضوء ذلك، أيضا، يتحدّد النحو بأنه «اختبار الطريقة التي بمقدورنا أن نعزّز بواسطتها التجربة موضوع الرسالة، في إجماليتها كما في تعدد أبعادها»، انطلاقا من العبور من خطية النص إلى شمولية المعنى[71].

فالمعنى مقياسٌ أساسيٌّ ومكوِّن ثابت لا محيص عنه في البنية النحوية لهذه المقاربة الوظيفية التي تروم تحليل الملفوظ لتصل به إلى وحداته الدنيا المدلالة المسمّاة مونيمات (أو لفاظم) (MONEMES)، حيث يستعاض مصطلح المورفيم بمصطلح المونيم للتذكير بوحدانيته الدلالية، ولا يفاد من ذلك تحييد الشكل جانبا أثناء التحليل؛ لأنّ قطب المعنى لا يتأتى دركه، ومن ثمّ تبليغه ما لم يصاحَب بأشكال تُطابقُه وتختلف باختلافه[72]؛ إذ «كلّ اختلاف في المعنى يطابقه بالضرورة اختلاف في المبنى في موضع ما من الخطاب»[73].

واستنادا إلى هذه المنطلقات النظرية يؤسس مارتني لمفهوم الجملة باعتبارها «القول الذي ترتبط فيه جميع العناصر بمخبر فريد أو بعدة مخبرات معطوفة»[74]، ولم يحفل هذا التعريف، على الرغم من

أساسه الدلالي الصلب، بالإشارة إلى اندراج العلامات النغمية داخل إطاره، لما لها من دور هامشي طبقا لمبدأ التقطيع المزدوج (DOUBLE ARTICULATION) الذي قال به مارتني. فالعلامات النغمية تكتسب هامشيتها من ملحظ تأبيها الخضوع لإجراءات هذا التقطيع المجعول قيدا لتمييز العلامة اللغوية عن جميع الأنساق العلامية الأخرى؛ فلا يكون القول لغويا إلاّ بقدر استجابته لهذا المبدأ(75). ويلاحظ جورج مونان أنّ الخاصة النوعية للغات الطبيعية البشرية ليست الإبلاغ ولا الاعتباطية ولا مفهوم النظام ولا خطية البلاغ ولا خاصة التفاصل في الدليل، وإنما التقطيع الثنائي لا غير(76). فهو من الكليات القليلة(77) التي تقرها النظرية الوظيفية، ويتجلى من خلال مستويين مختلفين(78):

التقطيع الأول: منطلقُه أنّ اللغة تحلل إلى وحدات دنيا ذات معنى تتطابق مع عناصر التجربة المراد إبلاغها، حيث إنّ التجربة لا يمكن تبليغها كوحدة، فلا مناص من تحليلها إلى متوالية من الوحدات، لكل منها صورة صوتية ومعنى. كل وحدة تأبى أن تحلل إلى وحدات مدلالة أخرى.

التقطيع الثاني: ناتج عن تحليل حصيلة التقطيع الأول من اللّفاظِم إلى وحدات غير دالة، أي إنّه ينجم عن تجزئة الصورة الصوتية للّفظم إلى متوالية من الوحدات التصويتية الدنيا العارية عن المعنى.

وحريٌّ بالبيان أنّ أندري مارتني ظل وفيا لمبادئه الوظيفية، فلم يتزحزح عنها لإيمانه بجدواها واتصافها بالموضوعية والعلمية، حتى في ظلّ انتشار أنظار لسانية مناوئة(79)، ولاسيَّما المدرسة التوليدية التحويلية التي استولت عقودا من القرن الماضي على عقول كثير من الباحثين في الحقل اللساني، إلاّ أنّ هذا الرجل ظلّ راسخا في ميدانه الوظيفي لا يرى اللسان نتاجا بل حدثا، كما لا يرى وجاهة التأسيس لمفهوم البنية العميقة؛ إذ ليس هنالك غير درجات من الملاءمة

اللغوية[80]. ولمّا كان الأمر كذلك وجب عدم إدراج المكوّن التحويلي في الصياغة المنهجية للنحو ؛ لأنه منهج يتخلّف حين استقصاء الظاهرة النحوية وامتحان قدرتها على تفسيرها، لاسيما إذا تجاوز النظر حدود المادة اللغوية موضوع الفحص إلى ما يكتنفها من ملابسات مقامية مختلفة[81].

4.1.4. **النحو الوظيفي** (GRAMMAIRE FONCTIONNELLE):

قوامه الجمع بين الأنظار الوظيفية والمنطق الصوري في صياغة نحوية واحدة تؤسس للانطلاق من البنية المنطقية الدلالية صوب البنية الصرفية التركيبية، فهو «يهدف إلى تزويد حساب بنية الجملة من التمثيل الدلالي التحتي إلى الشكل الصوتي السطحي»[82]. يرجع فضل تأسيسه إلى الباحث الهولندي سيمون ديك الذي أرسى دعائمه سنة 1978، وقد تمالأت – بعدُ – جهود الدارسين من جامعات مختلفة على تطويره وإثرائه بما يسلك به طريقا أكثر استجابة لأشراط التنظير ومقتضيات النَّمذجة[83]، ووفاء بمطالب البساطة والواقعية النفسية والنمطية[84]، تطمح إلى تحقيق الكفاية الوصفية من خلال صورها الثلاث التالية[85]:

الكفاية التداولية: تتمثل في السعي إلى الكشف عن التعابير اللسانية من حيث كيفيات استعمالها طبق مقامات تواصلية معينة. إنها لا تحصر موضوع النحو في خانة الجمل المعزولة، بل تمضي بها إلى توضيح كيفية تكاملها مع النصوص المتماسكة، وارتباط التعابير بمقامات غير لغوية.

الكفاية النفسية: يطمح النحو الوظيفي أن يكون مطابقا، وبقدر المستطاع، للنماذج النفسية سواء أكانت نماذج إنتاج أم نماذج فهم. وفي ظلّ هذا المطمح يدير ظهره للنماذج النحوية المشكوك في واقعيتها

النفسية[86] كالعمليات التحويلية، مثلا، التي لا يسمح بها جهاز النحو الوظيفي.

الكفاية النمطية: يطمح النحو الوظيفي إلى أن يكون قادرا على تزويد أنحاء اللغات المختلفة بالنمذجة التي تراعي أوجه التناظر والتخالف بين اللغات.

هذا، ويستطيع الباحث أن يميّز، داخل حركية النحو الوظيفي، بين منوالين نحويين، يعود ثانيهما إلى نهاية العقد الثامن من القرن الماضي (1989)، حيث أدخل ديك جملة من الإضافات والتعديلات على مكونات الجهاز الواصف لبنية النحو طبقا لما يلي:

المنوال الأول: أسّس هذا المنوال لأدبيات النحو الوظيفي الممثلة في النقاط التالية[87]:

1. الوظيفة الأساسية للغات هي وظيفة التواصل.
2. اللغة بنية تحدّدها خصائصها الوظيفية.
3. موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم – المخاطب.
4. النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظورا إليهما على ضوء التداول.
5. يسعى الوصف إلى تحقيق أنواع الكفاية المشار إليها قبل.
6. تحكم مكونات الجملة ثلاثة أنماط من العلاقات: علاقات تركيبية، وعلاقات دلالية، وعلاقات تداولية. يتسم النمطان الأخيران منها بالكلية، وتلتقي جميعها بجامع من مبدأ الأصالة والأولية؛ إذ إنها غير مشتقة من بنية شجرية.
7. يتحقق الربط بين البنيتين: الدلالية والتركيبية الصرفية عن طريق البنية الوظيفية.

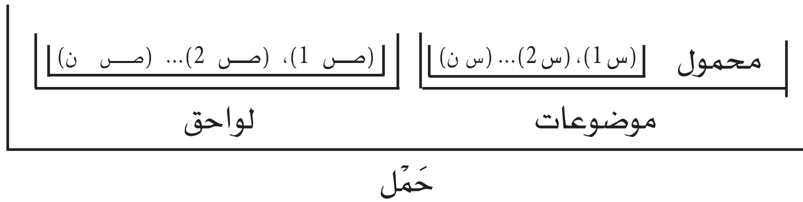
8. تشتقّ الجملة عن طريق نقل البنية الدلالية إلى بنية صرفية تركيبية عن طريق بنية وظيفية لا العكس.
9. تشتق الجملة بقواعد لا تسمح بإجراءات التحويل.
10. البنية مصدر الاشتقاق بنية غير مرتبة.
11. يتمّ ترتيب المكونات في مستوى البنية التركيبية الصرفية عن طريق نسق من القواعد الوظيفية.

انطلاقا من هذه المبادئ، تُصاغ بنية النحو بالتمثيل لاشتقاق الجملة عبر ثلاث بنيات هي: البنية الحملية والبنية الوظيفية والبنية المكونية، يتمُّ بناؤها جميعا بواسطة ثلاثة أنساق من القواعد هي: قواعد الأساس وقواعد إسناد الوظائف التركيبية والتداولية، وقواعد التعبير. وهذا بيانه(88):

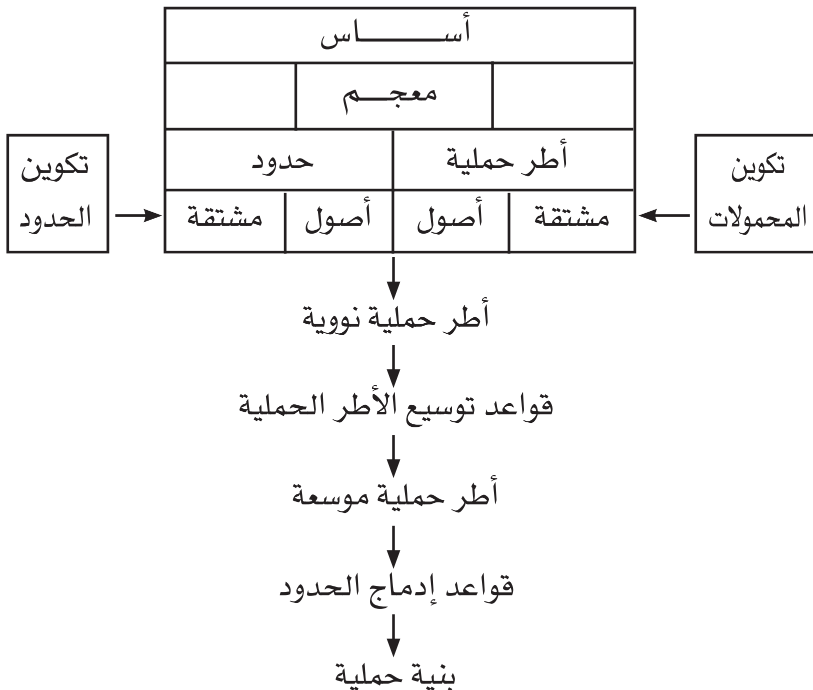
1. **الأساس**: يشمل زمرتين من القواعد تضطلعان معا ببناء البنية الحملية، هما: المعجم، وقواعد تكوين المحمولات والحدود. فأمّا الزمرة الأولى، فيراد بها القدرة المعجمية للمتكلم - السامع التي تتيح له معرفة مجموعة من المفردات الأصول المتعلمة الممثل لها في المعجم بشكل أطر حملية دالة على واقعة (أعمال-أحداث-أوضاع-حالات) يقوم كل حدّ من حدود المحمول بالنسبة إليها بدور معيّن. وأما الثانية، فتعني معرفة نسق من القواعد الاشتقاقية التي تضطلع باشتقاق الأطر الحملية والحدود غير الأصول. وتتكفل الخطاطة الموالية بإيضاح القصد:



2. **البنية الحملية:** تعدّ الأطر الحملية الناتجة عن المعجم وقواعد التكوين أطرا نووية تشمل الحدود - الموضوعات[89]، يتمّ توسيعها بإضافة محلات الحدود - اللواحق[90]، حيث تطبّق قواعد إدماج الحدود في المحلاّت طبقا لقيود الانتقاء بالنسبة للحدود - الموضوعات، فيكون حاصل هذه العمليات التوسيعية بناء البنية الحملية من عناصر ثلاثة: محمول دال على واقعة ما، وموضوعات، ولواحق يمثّل لها بالرسم التالي:



كما تساق مراحل تكوين البنية الحملية في المخطط الآتي:



3. **البنية الوظيفية**: تنقل البنية الحملية التامة إلى بنية وظيفية عن طريق قواعد إسناد الوظائف التركيبية والتداولية، وقواعد تحديد مخصص الحمل الذي يؤشر للقوة الإنجازية.

تسند الوظيفتان التركيبيتان الفاعل والمفعول طبق المسطرة التالية: يسند الفاعل إلى الحدّ ذي المنظور الرئيس للوجهة التي تُقَدَّمُ الواقعة انطلاقا منها، ويسند المفعول إلى الحدّ ذي المنظور الثانوي لها. وتسند الوظائف التداولية حسب الطاقة الإخبارية التي تحملها ؛ فإن كانت خارجية، أسندت إلى المكونات التي لا تنتمي إلى الحمل، وإن كانت داخلية، فإلى موضوعات الحمل أو لواحقه.

وتواكب الحمل قوة إنجازية تخصّصه يؤشر لها بالمُخَصِّص: «قو»، فإنْ كانت مزدوجة (حرفية ومستلزمة)، أُشِّر لها بمخصص مركَّب.

4. **البنية المكونية**: تنتج عن إجراء نسق من قواعد التعبير المتمثلة في:

1.4. قواعد صياغة الحدود: تتكفل بنقل البنية المنطقية للحدّ إلى بنية صرفية – تركيبية.

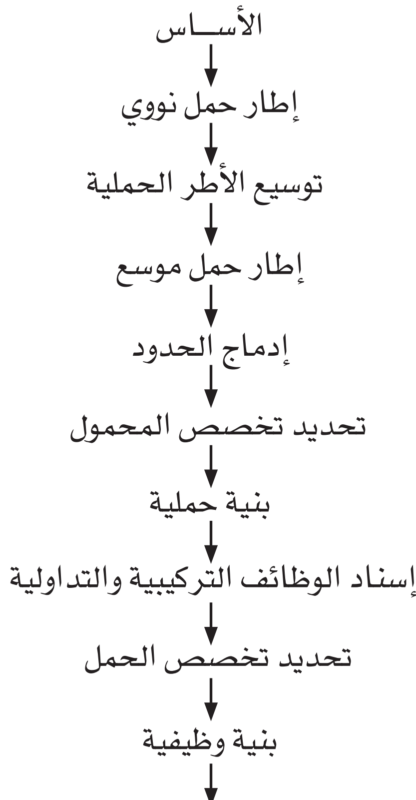
2.4. قواعد صياغة المحمول: تضطلع بنقل المحمول من شكله المجرد إلى صياغة صرفية دالة على الصيغة والجهة والزمن والمطابقة.

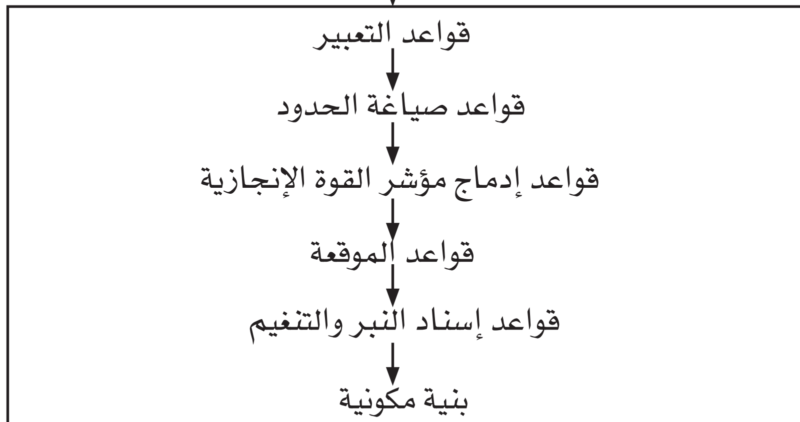
3.4. قواعد إدماج مؤشر القوة الإنجازية: تصير البنية، عقب إدماج مؤشر القوة الإنجازية، متضمنة لجميع مكوناتها.

4.4. قواعد الموقعة: تسهم في تحديد رتب المكونات انطلاقا من التفاعل القائم بين الوسائط التالية: الوظائف التركيبية، والوظائف التداولية، ودرجة التعقيد المقولي للمكونات.

5.4. قواعد إسناد النبر والتنغيم: حيث يسند النبر المركزي إلى المكون الحامل للوظيفة التداولية البؤرة، بينما يتحدد تنغيم الجملة طبقا لمخصص الحمل الذي يؤشر للقوة الإنجازية المواكبة له.

بتفاعل هذه الخطوات جميعا نصل إلى تحديد البنية العامة للجملة، من منظور النحو الوظيفي، وفق الشكل التالي:





المنوال الثاني: مُحصِّلَتُه إدخالُ ثلاثة تعديلات على بنية الجهاز الواصف، قوامُها[91]:

1. الانتقالُ إلى منوال متعدد القوالب، يعنى بجميع الملكات التي تشكل القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة الطبيعية، وهي:

1.1. الملكة اللغوية: تتمثل في قدرة مستعمل اللغة الطبيعية على الإنتاج والتأويل الصحيحين لعبارات لغوية متنوعة ومعقدة في شتى المواقف التواصلية.

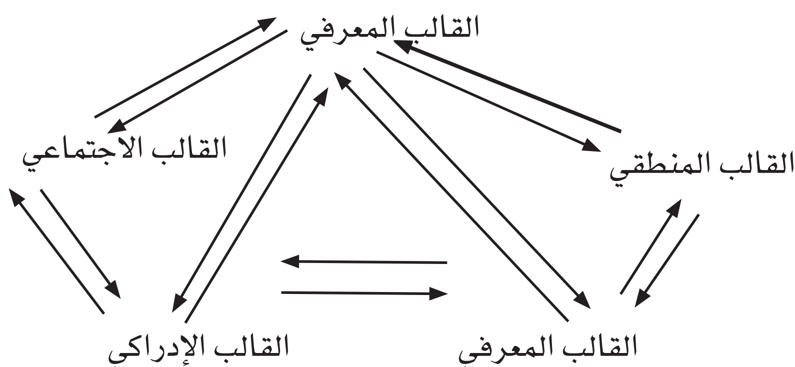
2.1. الملكة المنطقية: تتجلى في قدرة مستعمل اللغة الطبيعية على أن يشتق معارف بتوسّل قواعد الاستدلال.

3.1. الملكة المعرفية: بوسع مستعمل اللغة الطبيعية أن يكوّن رصيدا من المعارف يشتقها من العبارات اللغوية، ويستعملها في تأويلها.

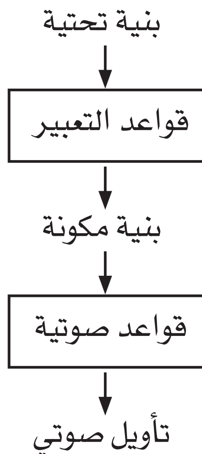
4.1. الملكة الإدراكية: تمكّن مستعمل اللغة الطبيعية من إدراك محيطه، واشتقاق المعارف من إدراكه، واستعمالها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

5.1. الملكة الاجتماعية: معرفة مستعمل اللغة الطبيعية لكيفية سوق المقال طبقا لمقتضيات المقام قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة.

تتفاعل هذه الملكات الخمس فيما بينها بحيث يشكل كل منها خرجا أساسيا بالنسبة لسائر الملكات الأُخر على النحو التالي:



2. تقليصُ البنيتين: الحملية والوظيفية إلى بنية تحتية واحدة استجابة لمبدأ الاقتصاد في الاشتقاق والتمثيل، فيصير القالب النحوي على النحو التالي:



3. صياغةُ البنية التحتية على أساس مستويات متعددة لا تنحصر في التمثيل للواقعة، بل تتجاوزها طباقا لما يلي تحريره:

يتحقق التواصل من خلال نصوص، غالبا ما تنقسم إلى جمل ومكونات خارجية. قوام كل جملة ثلاثة عناصر أساسية: حمل، وقضية، وقوة إنجازية. يتشكل العنصر الأول من ثلاثة حمول فرعية تندمج فيما بينها تباعا هي: الحمل النووي، والحمل المركزي، والحمل الموسع[92]، وحاصل الحمول يدمج في إطار القضية التي تدمج بدورها في إطار القوة الإنجازية التي هي أعلى طبقة في بنية الجملة. يضاف في كل مستوى مخصص ولاحق، على الأقل، إلى عنصر النواة طبقا للمخطط التالي، حيث يشير الرمز π إلى المخصص، والرمز σ إلى اللاحق:

[π٤ [π3 [π٢ [π١ [محمول موضوع١، موضوع٢، ...موضوع ن] σ١] σ ٢] σ ٣] σ ٤]

[.........................حمل نووي...............]

[.............................حمل مركزي.....................]

[..............................حمل موسع.............................]

[...قضية......................................]

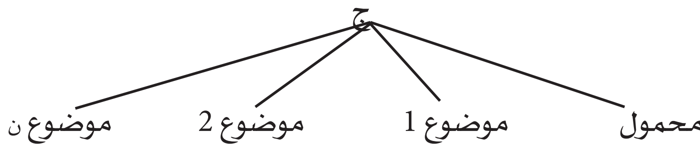
[..قوة إنجازية...]

هذه، بعامة، أهمّ التعديلات التي مسَّت المنوال الثاني من نظرية النحو الوظيفي، ويعتقد أصحابها أنها أوفى بمطالب رصد بنية الجملة وتحليلها.

2.1. **الأنحاء التوليدية الوظيفية**: تعد همزة وصل بين الأنظار التشومسكية والوظيفية على حدّ سواء. فهي نماذج مقترحة في إطار النظرية التوليدية التحويلية، غير أنها مصوغة على أساس من إسهام الوظائف التداولية في تحديد خصائص البنية النحوية. تتضح من خلال سوق الأنموذجين المواليين:

2.2.1. **التركيب الدلالي** (SEMANTAX): نشأ هذا الأنموذج في ظلال الدلالة التوليدية، منطلقا من فرضية تعذّر الفصل بين التركيب والدلالة، نافيا أن توجد بنية تركيبية عميقة تطبّق عليها قواعد تأويلية تقود إلى التمثيل الدلالي، من حيث إنّ البنية التحتية ليست سوى التمثيل الدلالي الذي ينتقل إلى بنية سطحية عن طريق القواعد التحويلية[93].

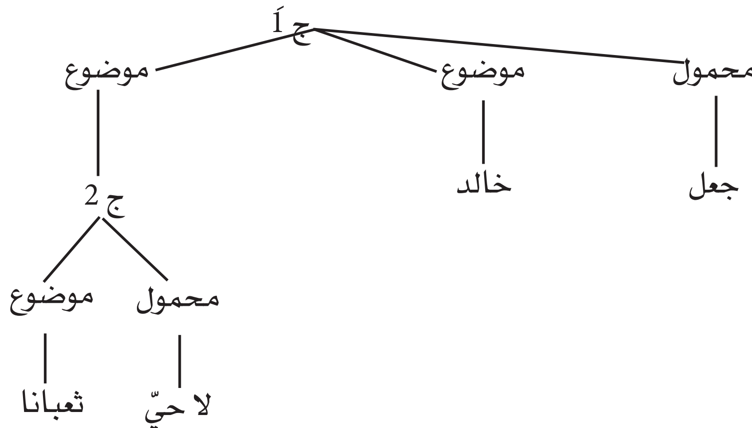
يعتقد أصحاب التركيب الدلالي[94] أنّ مصدر اشتقاق الجملة بنيةٌ منطقية – دلالية تتضمن محمولا رابطا بين عدد من الموضوعات طبقا للمخطط الشجري الآتي:



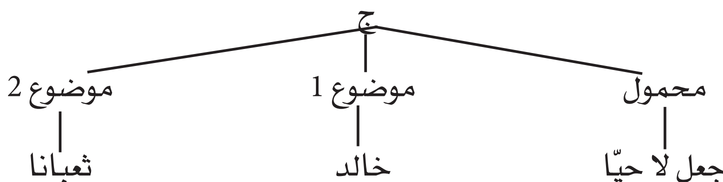
يتعيّن التمثيل للمحمولات في البنية المنطقية الدلالية في شكل وحدات دلالية معجمية أولى تنتقل بواسطة قاعدة تصعيد المحمول إلى بنية منطقية دلالية أبسط، يؤلف فيها المحمولان، مثلا، مركبا واحدا. يعوّض هذا الأخير بواسطة قاعدة الإدماج المعجمي بالمفردة الملائمة، حيث تصير البنية دخْلا للقواعد التحويلية التي تقضي بترتيب المكونات ومعالجة صور الحذف ونحوه[95].

ففي الجملة العربية: قتل خالد ثعبانا، تشتقّ البنية وفق الخطوات التالية:

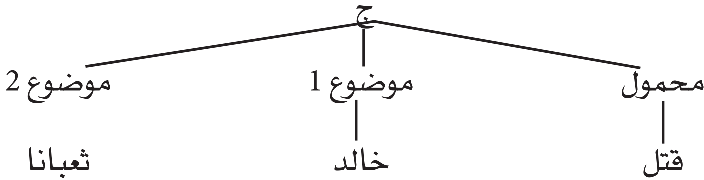
الخطوة الأولى: تتحدد فيها جملتان؛ جملة مدمجة وجملة مدمَجة.



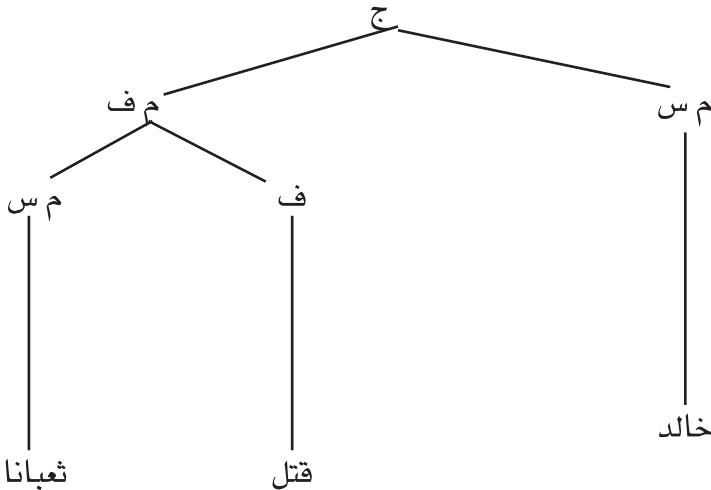
الخطوة الثانية: تطبيق قاعدة تصعيد المحمول.



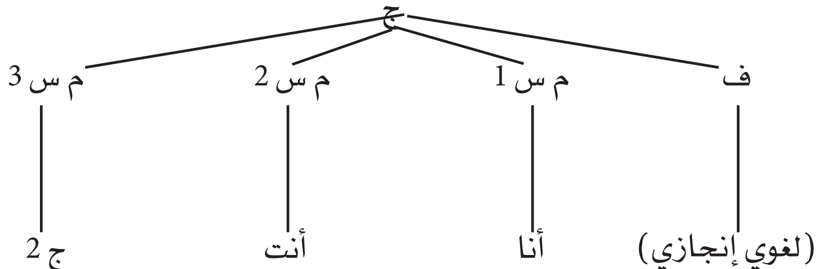
الخطوة الثالثة: تطبيق قاعدة الإدماج المعجمي.



وفي حال اللغات ذات البنية الرتبية فا ف مف، يقدّم الموضوع الفاعلي على المحمول الفعلي طبقا لقاعدة تكوين الفاعل، فتنتقل البنية السابقة إلى البنية التالية:



شرع أصحاب هذا الأنموذج النحوي ، ابتداء من أوائل السبعينات، في تزويد البنية الدلالية بمجموعة من المفاهيم التداولية، مقترحين أن يمثّل للفعل اللغوي في البنية المنطقية الدلالية على أساس أنّ البنية عبارة عن جملة مركبة: جملة عليا تؤشر للفعل اللغوي الإنجازي وللمتكلم والمخاطب، وجملة دنيا تدلّ على المحتوى القضوي طبقا للخطاطة التالية[96]:



كذلك، انبرى هؤلاء للتمثيل للقوة الإنجازية المستلزمة، فاقترح ليكوف أن يمثل لها في المستوى الناتج عن تطبيق نوع من القواعد التأويلية التي تتخذ من البنية المنطقية دخلا لها، على أن يمثل للقوة الإنجازية الحرفية في مستوى البنية العميقة. ويذهب صادوك إلى اقتراح التمثيل لهما معا في البنية المنطقية(97).

3.2.1. **المعجمية الوظيفية**: يجد هذا النموذج الوظيفي أصوله في عدد من الأعمال المقترحة في إطار النحو التوليدي التحويلي من لدن بريزنن (J. BRESNAN) وكابلن (R. KAPLAN) وكريمشو (J. GRIMSHAW) وأندروز (A. ANDREWS) وغير هؤلاء ممن ينظرون إلى بنية الجملة بجامع من الوصف التالي(98):

1. القواعد المركبية: تسمح ببناء البنية المكونية للجملة والممثلة بواسطة شجرة مركبية عادية، فضلا عن بناء وصفها الوظيفي.
2. المعجم: تخصص المداخل المعجمية مضامين الوحدات الدلالية والتركيبية.
3. الوصف الوظيفي: يعدّ الوصف الوظيفي وسيطا بين البنية المكونية والبنية الوظيفية، وغالبا ما تتولد هذه الأخيرة عنه.
4. البنية الوظيفية: تسجل العلاقات النحوية الواردة والمعلومات الضرورية للتأويل الدلالي، فالعنصر الأول مسند والثاني قيمة للوظيفة.

فمن الواضح، بعد هذا العرض، أنّ ثمة تراسلا بين المناهج: الوصفي، والتحويلي، والوظيفي، بجامع من دراسة المعنى[99]. فجميع الأنحاء المعروضة تصوغ بنيتها على أساس أنّ المعنى قطب دلالي وركيزة أساسية لا محيص عنها، بل هي الغاية التي يجب أن تولى العناية، وتستقطب الاهتمام.

فالوظيفيون لا ينظرون إلى الأشكال اللغوية إلاّ بمقدار إنبائها بالمعنى الدلالي وتعلقها به. فهم لا يوقفون نتائج التحليل عند حدود تصنيف الظواهر اللغوية في ظل منهج لفظي استقرائي، وإنّما وكدهم أن يتعقّبوها وقوفا على مقصدية المتكلم الثاوية خلف أشكال العبارة، وما من سبيل إلى هذا الغرض إذا انغلق النظام النحوي على نفسه، ولم يغادر حدود الجملة إلى سياق التلفظ. فالجملة في ضوء ملابسات القول كالسمكة في الماء[100]؛ فأنت تضلّ الطريق إن أوقفت وصفك لها على دراسة خصائصها العضوية بعيدا عن الوسط البيئي الذي خُلقتْ لتعيش فيه، فلا يجديك نفعا أن تقيس أحجامها، أو تتبيَّن ألوانها، أو ترصد أشكالها الانسيابية. فلا مندوحة للواصف عن بيان وظائف كلّ عضو، ولن يهتدي إلى البيان ما لم ينفتح على الوسط الخارجي باعتباره المحدّد للشكل والضابط لوظيفته.

الهوامش

(1) R. K. HARTMAN، A DICTIONARY OF LANGUAGE AND LINGUISTICS ، GREAT BRITAIN، GALLIARD LIMITED، P91.

(2) ينظر: أندري مارتني، وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة نادر سراج، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 1، 1966/1416، ص 96، 97.

(3) ينظر: نفسه، ص 96، 97.

(4) ينظر: نفسه، ص 98.

(5) ينظر: نفسه، ص 47.

(6) SIMON C.DIK، ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، FORIS PUBLICATIONS، DORDRECHT-HOLLAND/ CINNAMINSON-USA، 1983، P5.

(7) نفسه، ص 98، 97.

(8) ضياء الدين بن الأثير الجزري، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1956/1385، ص 21.

(9) يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتعليق محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1995/1415، ص 510.

(10) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 2، ص 75.

(11) ينظر: ابن قيّم الجوزية، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط 2، 1977/1397، 1/217، 218.

(12) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، عني بضبطه وتفصيله محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (د.ت)، 87/2.

(13) ينظر: ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P4.

(14) ينظر: SIMON C.DIK.- FUNCTIONAL GRAMMAR، FORIS PUBLICATIONS، DORDRECHT-HOLLAND/ CINNAMINSON-USA، 1981، P1.

(15) ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P4;

MICHAEL DANNELLE ET AL، FUNCTIONALISM AND FORMALISM IN LINGUISTICS، JOHN BENJAMINS PUBLISHING COMPANY، AMSTERDAM/ PHILADELPHIA، 2/93.

SIMON C.DIK.- FUNCTIONAL GRAMMAR، P2;

ANNA SIEWIERSKA، FUNCTIONAL GRAMMAR، ROUTLEDGE LONDON AND NEW YORK، P3.

(16) ينظر: SIMON C.DIK، FUNCTIONAL GRAMMAR، P2.

(17) ينظر: ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P3، 5.

ليس معنى ذلك أن تُلْزَمَ المقاربة الوظيفية بوجهة نظر توجب أن تكون جميع خصائص اللغة قابلة للتفسير الوظيفي؛ وإنما معناه محاولة الوصول إلى فهم وظيفي محتمل لبنية اللغة. ينظر: نفسه، ص 5؛ وأحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، 1989، ص 13.

(18) SIMON C.DIK، FUNCTIONAL GRAMMAR، P6.

(19) ينظر: ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P3.

(20) الدخان/49.

(21) ابن القيم، بدائع الفوائد، ضبط نصه وخرّج آياته أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1414/1944، 222/4.

(22) ينظر: ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P3.

(23) ينظر: ALEXANDER V. BONDARKO ، FUNCTIONAL GRAMMAR (AFIELD APPROACH).TRANSLATED BY I.S.CHULAKI، JOHN BENJAMINS PUBLISHING COMPANY، AMSTERDAM/ PHILADELPHIA، 1991، P2، 4، 6، 13.

(24) ينظر: نفسه، ص 7.

(25) ينظر: GEOFF THOMPSON، INTRODUCING FUNCTIONAL GRAMMAR، ARNOLD، LONDON، P45..

(26) ينظر: أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1406/1986، ص 10، 27. واللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص 46.

(27) ينظر: ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR، P5.

(28) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 13.

(29) ينظر: SIMON C.DIK.- FUNCTIONAL GRAMMAR. P4.5;
واللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص 13.

(30) SIMON C.DIK. FUNCTIONAL GRAMMAR. P4.5.

(31) ينظر: صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت-لبنان، ط3، 1986/1405، ص 30، 31.

(32) ينظر: FUNCTIONALISM AND FORMALISM IN LINGUISTICS. P93;
SIMON C.DIK.- FUNCTIONAL GRAMMAR. P1;
-ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR. P3.

(33) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 14، 15.

(34) ينظر: ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 247.

(35) ينظر: نفسه، ص 248، 249.

(36) ينظر: عبدالقادر المهيري، »اللسانيات الوظيفية«، ضمن كتاب: أهم المدارس اللسانية، تأليف عبد القادر المهيري وآخرين، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية بوزارة التربية القومية، تونس، 1986، ص 40.

(37) ينظر: جيفري سامبسون، المدارس اللغوية (التطور والصراع)، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص 106، 107؛ وكذلك:
FUNCTIONAL GRAMMAR (A FIELD APPROACH). P10.

(38) ينظر: المدارس اللغوية (التطور والصراع)، ص108؛ وكارل-ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2003/1، 2003/1424، ص 170 ؛ ويحي أحمد، «الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة»، مجلة عالم الفكر، مج 20، ع 3، 1989م، ص 75، 76 ؛ وكذلك:
OSWALD DUCROT ET JEAN-MARIE SCHAEFFER. NOUVEAU DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE DES SCIENCES DU LANGAGE. EDITIONS DU SEUIL. 1995. P53. 54.

(39) المدارس اللغوية (التطور والصراع)، ص 108.

(40) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 108، 109.

(41) «الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة» مجلة عالم الفكر، ص 79.

(42) ينظر: نفسه، ص 78.

(43) لمزيد من التفصيل ينظر: نفسه، ص 77-80.

(44) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 107، 108.

(45) ينظر: محمد صلاح الدين الشريف، «تقديم عام للاتجاه البرغماتي» ضمن كتاب: أهم المدارس اللسانية، ص 97. ونهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير للنشر والتوزيع، الأردن، ط 2، 1408/1987، ص93، 94.

(46) ينظر: «الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة»، مجلة عالم الفكر، ص 82.

(47) ينظر: نفسه، ص 82، 83.

(48) ينظر:السابق، ص 87-89.

(49) ANNA SIEWIERSKA، FUNCTIONAL GRAMMAR، P15.

(50) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 264، 265.

(51) هاليداي ورقية حسن، الفصل الثاني من كتابهما «LANGUAGE، CONTEXT، AND TEXT ASPECTS OF LANGUAGE IN SOCIAL SEMIOTIC PERSPECTIVE» ضمن كتاب: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 271.

(52) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 115.

(53) يترتب عن هذا التفريق بين ما يندرج في صميم اللغة وما هو خارج عنها أنّ وظائف اللغة ليست مشغلا لغويا صرفا، وإنما ما يتوجّه إليه البحث اللغوي هو فحص الخصائص البنيوية للغة على ضوء تلك الوظائف. ينظر: السابق.

(54) ينظر: هاليداي ورقية حسن، الفصل الثاني من كتابهما« LANGUAGE، CONTEXT، AND TEXT ASPECTS OF LANGUAGE IN SOCIAL SEMIOTIC PERSPECTIVE» ضمن كتاب: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 264-267.

(55) M.A.K. HALLIDAY|، AN NTRODUCTION TO FUNCTIONAL GRAMMAR، ARNOLD، LONDON، P30.

(56) ينظر: نفسه، ص30، 35.

(57) ينظر: السابق، ص31، 32.

(58) ترجمتها: الدوق أعطى عمتي إبريق الشاي هذا.

(59) ينظر: M.A.K. HALLIDAY|، AN NTRODUCTION TO FUNCTIONAL GRAMMAR، ARNOLD، LONDON، P33..

(60) السابق، ص 34.

(61) ينظر: نفسه، ص 34.

(62) مفاتيح الألسنية، ص 112.

(63) ينظر: FUNCTIONAL GRAMMAR (A FIELD APPROACH)، P10، 11.

(64) ينظر: وظيفة الألسن وديناميتها، ص 96، 97.

(65) ينظر: الطيب البكوش، «علم الصرف بين النظريات العربية والألسنية الحديثة»، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، الجامعة التونسية، العدد 66، 1981م، ص 9.

(66) وظيفة الألسن وديناميتها، ص 34، 47، 209.

(67) نفسه، ص 34.

(68) نفسه، ص 47.

(69) ينظر: جورج مونان، مفاتيح الألسنية، ترجمة الطيب بكوش، منشورات الجديد، تونس، 1981، ص 114.

(70) ينظر: وظيفة الألسن وديناميتها، ص 35.

(71) ينظر: نفسه، ص 70.

(72) ينظر: نفسه.

(73) أندري مارتني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة سعدي زبير، سلسلة العلم والمعرفة، دار الآفاق، الأبيار-الجزائر، (د.ت)، ص 37.

(74) نفسه، ص 118.

(75) ينظر: السابق، ص 92.

(76) ينظر: مفاتيح الألسنية، ص 49-61.

(77) يعتقد مارتني عدم وجود كليات لغوية خارج ما هو متضمن في تعريفه للسان. ينظر: وظيفة الألسن وديناميتها، ص 242.

(78) ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، ص 18، 19.

(79) قاسم المقداد، «المدرسة الوظيفية في التحليل الألسني»، جريدة الأسبوع الأدبي، سوريا، 1990/12/27، ص 4.

(80) ينظر: وظيفة الألسن وديناميتها، ص 56، 242. ون. تشومسكي، «حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية»، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، ع 6، 1982م، ص 71، 72.

(81) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص 90.

(82) ANNA SIEWIERSKA. FUNCTIONAL GRAMMAR. P2.

(83) ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1985/1405، ص 9.

(84) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 82.

(85) ينظر: SIMON C.DIK. -FUNCTIONAL GRAMMAR. P6-8;

.ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR. P6

(86) يفسّر الفاسي الفهري في مؤلفه(اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، سلسلة المعرفة اللسانية، دار توبقال للنشر الدار البيضاء-المغرب/منشورات عويدات بيروت-باريس، 1986/1985، ص 33) هذه الواقعية النفسية على أساس من «ضرورة ربط العلاقة في خريطة ابستيمولوجية بين اللسانيات وعلم النفس». غير أنّ محمد صلاح الدين الشريف في أطروحته (الشرط والإنشاء النحوي للكون: بحث في الأسس البسيطة المولدة للأبنية والدلالات، سلسلة اللسانيات مج 12، منشورات كلية الآداب، بجامعة منوبة، تونس، 2002، 208/1) يشكّك، صراحة، في جدا هذا المبدأ بالنسبة إلى النظرية اللغوية، ولاسيما أنّ أصحابها يرمون الصورنة، يقول بهذا الصدد: «... لو تصورنا نظرية رياضية ما ينصّ أصحابها في كتاباتهم الفلسفية أنّ الرياضيات من حيث هي نشاط عقلي تستوجب أن تربط بعلم النفس، فماذا تكون النتيجة لو أقبل علماء النفس باختباراتهم على المفاهيم الرياضية؟».

(87) استنادا إلى كتابات أحمد المتوكل التالية:الوظائف التداولية في اللغة العربية، 10، 11؛ ودراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 9، 10؛ واللسانيات الوظيفية، ص 126، 127؛ وأحمد المتوكل، الوظيفة والبنية (مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية)، منشورات عكاظ، الرباط، 1993، ص 10.

(88) ينظر: SIMON C.DIK.- FUNCTIONAL GRAMMAR. P15-22;

;ADVANCES IN FUNCTIONAL GRAMMAR. P10-27-

وينظر أيضا: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 12-23؛ ودراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 10-22؛ واللسانيات الوظيفية، ص 128-169؛ والوظيفة والبنية، ص 10-24.

(89) هذا الصنف من الحدود يسهم في تحديد الواقعة كالحدّ المنفذ، والحدّ المتقبل، والحدّ المستقبل.

(90) الحدود - اللواحق تخصّص الواقعة من حيث: الزمان، والمكان، والحال.

(91) ينظر: أحمد المتوكل، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 5، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط - المملكة المغربية، 1993، ص 5، 8-20. وكذلك:

KEES HENGEVELD، THE THEORY OF FUNCTIONAL GRAMMAR، MOUTON DE GRUYTERk BERLIN/NEW YORK، SECOND EDITIONS، P49-71.

(92) تتمايز هذه الحمول كما يلي:

- الحمل النووي عبارة عن محمول وعدد من الموضوعات.
- الحمل المركزي عبارة عن حمل نووي ومخصص المحمول ولاحق المحمول (اختيارا).
- الحمل الموسع عبارة عن حمل مركزي ومخصص الحمل ولاحق الحمل (اختيارا).

(93) ينظر: اللسانيات واللغة العربية، ص 70، 71.

(94) من أصحابه: ليكوف (LAKOFF) وروس (ROSS) وبوسطل (POSTAL).

(95) ينظر: اللسانيات الوظيفية، ص 93-95.

(06) ينظر: السابق.

(97) ينظر: نفسه، ص 98-104.

(98) ينظر: اللسانيات واللغة العربية، ص 82-97.

(99) عطا محمد موسى، مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، دار الإسراء، عمان - الأردن، ط 1، 2002م، ص 313.

(100) إذا كان تنيار يشبِّه الكلمة في الجملة بالسمكة في الماء، فإني أستعير منه المشبَّه به دون المشبّه في رسم أبعاد هذه الصورة.

حذف نون الرفع من الأفعال الخمسة لغيـر علـة

عبدالعزيز بن حميد الجهني(*)

مقدمـة:

من الركائز الأصيلة لعلم النحو التي لا غنى لدارس العربية عنها معرفةُ علامات الإعراب الأصلية منها والفرعية. إذ لا سبيلَ إلى ضبط هذا العلم وإتقانه على أصوله إلا بالتفقه بمواقع هذه العلامات ومعرفة أحوالها.

وهذه العلامات منها ما يسير على طريق لا حب، وفق المشهور من القواعد، وهذا هو الأعم الأكثر، ومنها ما خالف القاعدة لعلة من علل النحو المتناثرة.

ومن جملة هذه العلامات التي خالفت مشهور قواعد النحو النونُ[1] التي هي علامة الرفع الفرعية في الفعل المضارع[2] إذا (لحقه ضمير التثنية أو علامتها، وهو الألف، وضمير الجماعة المذكرين في الأصل أو علامتهم، وهو الواو، وضمير الواحدة المؤنثة من المخاطبة، وهو الياء)[3] و(جعلوا ثبوت هذه النون فيهن دليلا على رفعها، وحذفها دليلا على نصبها وجزمها)[4].

(*) أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

هذا هو الأصل - عند الجمهور - في هذه النون، أن تثبت في حال الرفع ، وأن تُحذف في حال النصب والجزم، ولكنَّها جاءت على خلاف هذا الأصل في حال الرفع، حيث حُذفت وكان حقها أن تثبت.

وهذا الحذفُ في حال الرفع شائعٌ في كلام العرب شعره ونثره، وهو على نوعين : منه ما هو لعلة، ومنه ما هو لغير علة.

أما الأول فيسير وفق قواعد نحوية وصرفية مطردة أصَّلها النحاة وساروا عليها في تعليلاتهم.

وأما الثاني - وهو حذف نون الرفع لغير علة - فيُعَدُّ من الظواهر النحوية التي تحتاج إلى تتبع واستقراء ودراسة، لكونها تكررت في كلام العرب - شعرا ونثرا - مع مخالفتها للمشهور من قواعد النحو واستعمال لغة العرب.

ولذا كانت هذه الدراسة، التي أردت منها كشف هذه الظاهرة والوقوف على مدى اطرادها في كلام العرب، وتعليل النحاة لها وهل هي مقيسة في قانون النحو؟.

هذا كله دفعني إلى تتبع مسائل هذا البحث ونظمها في سلك واحد؛ لتكون إضاءة في دروب مشكل النحو وغوامضه ، وإضافة في صرح النحو الشامخ.

وقد صَدَّرت البحث بمقدمة وتمهيد وأتبعته بخاتمة ذكرتُ فيها أبرز نتائج البحث.

تمهيـد:

هناك نوع من الحذف في نون الرفع لابد من ذكره، وأعني بذلك الحذف لعلة صرفية[5]، وهو يتفق مع صلب البحث في كون حقها الثبوت، ومع ذلك حُذفت في حال الرفع. وهذا الحذف للعلة الصرفية يكون في حالتين:

الأولى: لتوالي الأمثال[6] وهذه تكون في الأفعال الخمسة المرفوعة التي اتصلت بها نون التوكيد[7] غير المباشرة، والتي فُصل بينها وبين هذه الأفعال بأحد الضمائر الثلاثة: ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة. نحو: يكتبانِّ، ويكتُبُنَّ، وتكتبِنَّ[8].

فاجتمع في الفعل ثلاثُ نونات، نون الرفع ونونا التوكيد، (فاسْتُثْقل توالي الأمثال، فَحُذفت نونُ الرفع. وكانت أولى بالحذف ؛ لأنَّها جزء كلمة، والمؤكدةُ كلمة قائمة مقام تكرير الفعل، وحَذْفُ جزء أسهلُ من حذف ما ليس جزءاً.

ولأنَّ المؤكدة تدلُّ أبداً على معنى ، ونون الرفع لا تدلُّ – في الغالب – على معنى، وبقاء ما يدلُّ أبداً أولى من بقاء ما يدلُّ في بعض الأحوال)[9].

الثانية: مع نون الوقاية ،وهذه الحالة تكون مع الأفعال الخمسة المرفوعة التي اتصلت بها ياء المتكلم مفعولة لها ، فَيُفصل بينها وبين الياء وجوباً بنون الوقاية. وهي – أي نون الوقاية – حرفٌ لا محل له من الإعراب.

ولنون الرفع مع نون الوقاية في هذا الاستعمال ثلاثُ حالات:

1) إظهار النونين.

2) إدغام النونين.

3) حذف إحدى النونين تخفيفاً.

والذي يدخلُ معنا هنا الصورةُ الثالثة فقط في أحد قولي النحاة في المحذوف من هذين النونين، وهم الذين يرون أنَّ المحذوف هو نون الرفع، وهو مذهب سيبويه وصححه ابن مالك وابن هشام[10].

وعلة هذا الاختيار أنَّ (نون الرفع قد تُحذف دون سبب، مع عدم ملاقاتها لنون الوقاية، ولا تُحذف نون الوقاية المتصلة بفعل محض غير مرفوع بالنون، **وحذف ما عُهد حذفُه أولى من حذف ما لم يعهد حذفه**.

وأيضا فإن نون الرفع نائبة عن الضمة، وقد حُذفت الضمة تخفيفا في الفعل... **فحذف النون النائبة عنها تخفيفا أولى، وليؤمن بذلك تفضيل الفرع على الأصل**.

وأيضا فإن حذف نون الرفع يُؤمن معه حذف نون الوقاية إذ لا يعرض لها سبب آخر يدعو إلى حذفها، وحذف نون الوقاية أولا لا يؤمن معه حذف نون الرفع عند الجزم والنصب، **وحذف ما يُؤمن بحذفه حذفٌ أولى من حذف ما لا يؤمن بحذفه حذف**.

وأيضا لو حُذفت نون الوقاية لاحتيج إلى كسر نون الرفع بعد الواو والياء ، وإذا حُذفت نون الرفع لم يُحتج إلى تغيير ثان ، **وتغيير يُؤمن معه تغيير أولى من تغيير لا يُؤمن معه تغيير**)[11].

هذا أجمع ما قيل في النون المحذوفة لعلة من العلل التصريفية، وبقي نوع من الحذف وهو ما كان لغير علة، وهو صلب بحثنا هذا، وسيكون الحديث عنه تفصيلاً وتأصيلاً.

حذف نون الرفع لغير علة:

لا يخفى أن المقصود بقولنا «لغير علة»العلةُ النحوية أو الصرفية كما ذكرنا سابقا.

وهذا الحذفُ لغير علة مخالفٌ في ظاهره لمشهور قواعد النحو التي أصلها أئمةُ هذا العلم في حكم رفع الأفعال الخمسة.

والمتتبع لكلام العرب - شعرا ونثرا - يجد نصوصاً متناثرة ورد فيها هذا الحذف في حال الرفع . ولبيان هذه الظاهرة وإثبات وجودها وما يتعلق بها من أحكام سأفصل الحديث عنها من خلال ثلاثة مباحث تدرس هذه الظاهرة وتميط اللثام عنها. وهي على النحو الآتي:

المبحث الأول: وروده في السماع .

المبحث الثاني: تعليل النحاة له .

المبحث الثالث: حكمه في القياس النحوي .

المبحث الأول: وروده في السماع:

ثبت حذف النون لغير علة في القراءات الشاذة وفي الحديث الشريف ، وهما من أعلى مصادر السماع في لغة العرب ، كما ثبت في غيرهما من كلام العرب شعرا ونثرا .

وها هي ذي مرتبة حسب الأصول النحوية :

أولاً: في القراءات الشاذة:

ورد حذف النون لغير علة في ثلاث قراءات شاذة، وهي على النحو الآتي:

1 - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71].

نُسبت هذه القراءة لعبيد بن عمير[12]، وفيها حَذْفُ النون من غير ناصب ولا جازم . ولهذا الحذف ثلاثة توجيهات:

الأول: أنها حُذفت علامة للجزم وذلك بإعمال (لِمَ) عمل (لَمْ) الجازمة[13].

وهذا هو توجيه بعض أهل التفسير كما ذكر ذلك أبو حيان ، ونقله عن السجاوندي .

وهو قول وصفه العكبري بالبعد، واستشكله السمين الحلبي، ووصفه بالغلط البحت، وجعله أبو حيان من شذوذ النحاة وقال: والثابت في لسان العرب أنَّ (لِمَ) لا ينجزم ما بعدها، ولم أرَ أحداً من النحويين ذكر أنَّ (لِمَ) تجري مجرى (لَمْ) في الجزم، إلا ما ذكره أهل التفسير هنا[14].

وقال السمين الحلبي : ولا أظنُّ نحوياً يقول ذلك البتة، كيف يقول في جار ومجرور إنه يجزم !! هذا ما لا يتفوه به البتة ولا يطيق سماعه[15].

والثاني : تفرد بذكره العكبري، حيث قال: ووجهه أنَّه سَكَّن النون ثم حذفها لالتقاء الساكنين[16].

والثالث: – وهو الأقوى – فعلى حذف النون لغير علة.

قال أبو حيان عنه – أي الحذف –: وإنما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع[17].

وقال السمين الحلبي : فإنْ يثبت هذا قراءة – ولابد – فليكن مما حُذِفَ فيه نون الرفع تخفيفاً حيث لا مقتضى لحذفها[18].

2 – ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: 71].

نُسبت هذه القراءة للحسن باختلاف عنه[19]، وقد سُئِلَ عنها الفراء فأنكرها ، حيث قال : سألني هُشيم فقال: هل يجوز ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ

كُلَّ أُنَاسٍ﴾ رووه عن الحسن؟ فأخبرتُه أني لا أعرفه، فقال: قد سألتُ أهل العربية عن ذلك فلم يعرفوه[20].

وما أنكره الفراءُ عرفه غيرُه، فقد نقل هذه القراءة غير واحد من أهل اللغة ووجهوها بتوجيهين:

الأول: أنَّ الأصل (يُدْعَى)[21] – وقد نُقلت هذه القراءة عن الحسن أيضاً[22] – ثم أُبدلت الألفُ واوا على لغة من يقول: أَفْعَو في الوقف على أَفْعَى، وَعَصَو في الوقف على عَصَا، ثم أُجري الوصلُ مُجْرى الوقف[23].

الثاني: أنَّ الأصل (يُدْعَون)[24] وحُذِفَتْ منها نون الرفع. قال الزمخشري: ولم يُؤْتَ بالنون قلةَ مبالاة بها ؛ لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة[25].

3 – ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَّـٰهَرَا﴾ [القصص: 48].

بتشديد الظاء، ونُسبت لأبي عمرو والحسن ويحيى بن الحارث الذماري وأبي حيوة واليزيدي[26].

وقد عدَّ ابنُ خالويه هذه القراءة من اللحن[27]، واستبعدها العكبري ووصمها بالفساد[28] وحجتهما في ذلك أنَّ الفعل ماضٍ، ولا يصح التشديد فيه، وإنما يكون التشديد في المضارع، وللسبب نفسه قال الهذلي: لا معنى له. أي: التشديد. ونُقِلَ عن أبي الفضل قوله: لا أعرف وجهه[29].

وما أنكره هـؤلاء ولم يعرفوا وجهه عرفه غيرهم ورأوا له وجهاً مستساغاً في العربية، (وله تخريج في اللسان وذلك أنه مضارع حُذفت منه النون... و﴿سِحْرَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: أنتما ساحران تتظاهران، ثم أُدغمت التاءُ في الظاء، وحُذفت النون)[30].

ولصحة هذا التوجيه وظهوره ووجود شواهد له في لغة العرب تَعَجَّبَ السمينُ الحلبي ممن أنكر هذه القراءة ولحنَّها واستبعدها حيث

قال: وهذا عجيب من هؤلاء وقد حُذفت نونُ الرفع في مواضع، حتى في الفصيح... ولا فرق بين كونها بعد واو أو ألف أو ياء[31].

ثانياً: في الحديث الشريف:

1 - قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تدخلون**[32] **الجنة حتى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتى تحابوا....**»[33].

قال النووي رحمه الله: هكذا هو في جميع الأصول والروايات: (ولا تؤمنوا)، بحذف النون من آخره[34].

وقال ابن مالك: الأصل: (لا تدخلون) و(لا تؤمنون)؛ لأنَّ (لا) نافية، و(لا) النافية لا تعمل شيئاً[35].

2 - قال عليه الصلاة والسلام لفاطمة بنت قيس، رضي الله عنها، في قصة طلاقها: «**اعتدي في بيت ابن عمك ابن أم مكتوم، فإنه ضرير البصر تُلقي ثوبك عنده**»[36].

قال النووي، رحمه الله: هكذا هو في جميع النسخ (تُلقي)، وهو لغة صحيحة، والمشهور في اللغة (تلقين) بالنون[37].

3 - قال عليه الصلاة والسلام في قصة غزوة بدر: «**والذي نفسي بيده، لَتضربوه إن صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم**»[38].

قال النووي، رحمه الله: هكذا وقع في النسخ (تضربوه) و(تتركوه) بغير نون، وهي لغة سبق بيانها مرات، أعني: حذف النون بغير ناصب ولا جازم[39].

4 - قال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة، رضي الله عنها: «**يافاطمة، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟**»[40].

قال النووي رحمه الله: (أما ترضي) هكذا هو في النسخ (ترضي) وهو لغة، والمشهور: ترضين[41].

5 – في حديث قتلى بدر ونداء النبي ﷺ لهم، قال عمر رضي الله عنه: «**يا رسول الله، كيف يسمعوا، وأنَّى يجيبوا، وقد جَيَّفوا؟**»[42].

قال النووي، رحمه الله: هكذا هو في عامة النسخ المعتمدة (كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا؟!) من غير نون[43].

هذه خمسة أحاديث صريحة في استعمال الحذف من غير علة، وهناك غيرها كثير في الصحيحين ومسند الإمام أحمد وغيرها، تركتها خشية الإطالة ولاختلاف الروايات في بعضها[44].

ثالثاً: في الشعر:

تكرر حذف نون الرفع من غير علة في عدد من الشواهد الشعرية ، منها ما هو مذكور كشاهد في المصادر التي تحدثت عن هذا الاستعمال في لغة العرب ، ومنها ما وقفت عليه في غير مظانه. وهي :

1 – **أبيتُ أسري وتبيتي تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي**[45]

قال ابن مالك: والأصل (تبيتين) و(تدلكين) فحذف النونين دون جازم ولا ناصب[46].

2 – **فإنْ يَكُ قومٌ سَرَّهم ما صنعتمُ ستحتلبوها لاقحاً غيرَ باهلِ**[47]

قال السمين الحلبي : يريد (فستحتلبونها) ولا يجوز أنْ يُتوهم في هذا البيت أن يكون حذف النون لأجل جواب الشرط ؛ لأنَّ الفاء مرادة وجوبا لعدم صلاحية (ستحتلبوها) جوابا لاقترانه بحرف التنفيس[48].

3 – **ولا تغصبوا الناسَ أموالَهم إذا ملكتم ولم تُغْصَبُوا**[49]

قال أبو حيان: على أنَّ (لا تغصبوا) نفيٌ لا نهي، أي: ولا تغصبون[50].

4 – **فَكَلاَّ وربي لا تعودي لمثله عشيةَ لاقته المنيةُ بالردمِ**[51]

قال ابن إياز: قال ابن جني: التقدير (لا تعودين)، و(لا) نافية، ولكن حذف النون تخفيفاً[52].

5 – **وَرُفِعَ الفخُّ فماذا تحذري لابد من صيدك يوما فاصبري**[53]

قال الميداني: وَحَذَفَ النونَ من قوله (تحذري) لوفاق القافية أو لالتقاء الساكنين[54].

6 – **قد كنتُ أنذرتُك لَقْطَ العُصْفُرِ بالليل حتى تُصبحي وتُسفري**
إنِّي زعيمٌ لكِ أنْ سَتَزْحَري عن وافر الهامةِ عَبْلِ المشفرِ[55]

قال الزمخشري: قوله (ستزحري) يُعَدُّ من الغلط ، كان حقه يقول: (ستزحرين)[56].

7 – **أتجلين في الجالين أم تتصبري على ضيق عيشٍ والكريمُ صبورُ**[57]

8 – **فَهَلاَّ تسألي أفناء سعد وقد تبدو التجاربُ للبيبِ**[58]

9 – **والأرض أورثت بني آداما ما يغرسوها شجرا أياما**[59]

10 – **تَسْلأُ كُلُّ حرة نحيين**
وإنما سلأتُ عكتين
ثم تقولي اشترلي قرطين[60]

المبحث الثاني: تعليله:

تفرد بعض شراح الحديث كالنووي وابن حجر في تعليل حذف نون الرفع من الأفعال الخمسة لغير علة بأنه لغة من لغات العرب الثابتة والصحيحة. ولم أقف – حسب علمي – على من ذكر ذلك من أهل اللغة المتقدمين.

وتكاد تتفق كلمة المثبتين لهذا الحذف على أنَّ مرد ذلك إلى شيئين : طلب الخفة، وتشبيهها بالضمة.

أما التخفيف فقد نص عليه ابن مالك في قوله: وحذف نون الرفع في موضع الرفع لمجرد التخفيف ثابت في الكلام الفصيح. وهو التعليل الذي لم يذكر سواه السندي في حاشيته على المسند.

وأما التشبيه بالضمة فقد جاء في غير ما موضع، ومنه ما جاء في حوار ابن جني مع شيخه الفارسي في تعليل هذا الحذف حيث قال: وسألتُ أبا علي رحمه الله عن قوله: أبيتُ أسري وتبيتي تدلكي... فخضنا فيه، واستقر الأمر فيه على أنَّ حَذَفَ النون من (تبيتين) كما حَذَفَ الحركةَ للضرورة في قوله: فاليوم أشربْ غير مستحقب، كذا وجهته معه.

وقال ابن عصفور: ومنه - أي الحذف للضرورة - حذف النونِ الذي هو علامة للرفع في الفعل المضارع لغير ناصب ولا جازم تشبيهاً لها بالضمة من حيث كانتا علامتي رفع[61].

وقال أبو حيان: وحذف هذه النون... إجراءً لها مُجرى الضمة في ذلك[62].

وعلة المشابهة فيها ظاهرة قوية، وقد أوضحها السمين الحلبي بقوله: إنَّ النون نائبةٌ عن الضمة، والضمةُ قد عُهِدَ حذفُها في فصيح الكلام، كقراءة أبي عمرو[63]: ﴿**يَنْصُرْكُمْ**﴾[64] و﴿**يُشْعِرْكم**﴾[65] و﴿**يأمرْكم**﴾[66] وبابه بسكون آخر الفعل. وقوله:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل[67]

وإذا ثبت حذفُ الأصل فليثبت حذفُ الفرع لئلا يلزم تفضيل فرع على أصله[68].

المبحث الثالث: حكمه:

اختلفت كلمة النحاة وعلماء اللغة في هذا الحذف، ومدى ثبوته وقياسيته في لغة العرب.

فقد ذهب غير واحد من النحاة إلى أنَّ هذا الاستعمال نادر في لغة العرب لا يأتي إلا شاذا أو في ضرورة شعر. نقل ذلك السيوطي عن ابن هشام في تذكرته(69).

وقال أبو حيان: وحذف هذه النون عند أصحابنا من غير جازم ولاناصب ولا اجتماع مثلين مخصوص بالشعر(70). ووصفه آخرون بالقلة دون ذكر الشذوذ أو الضرورة(71).

وكان لابن مالك رحمه الله رأي مختلف في هذا الاستعمال، حيث قال في شواهد التوضيح(72): حذف نون الرفع في موضع الرفع لمجرد التخفيف ثابت في الكلام الفصيح نثره ونظمه

وزاد تلميذه النووي بأنْ جعل ذلك لغة صحيحة مشهورة من لغات العرب، وإنْ كانت قليلة الاستعمال(73). ونقل نحوه ابن حجر في فتح الباري(74).

ولاريب أنَّ القول الأول - وهو اختصاصه بالضرورة - مردود بثبوته في بعض القراءات الشاذة والعديد من الأحاديث الصحيحة. وهذا كاف في إخراجه عن حد الضرورة الشعرية.

وأما وصفه بالقلة والندرة فهو مطابق للمنقول قياسا بما جاء على خلاف هذا الاستعمال، وذلك بالبقاء على الأصل في عدم حذف نون الرفع دون علة.

ويبقى القول بجواز استعمال هذا الحذف والقياس عليه - عند من يثبته بقلة أو كثرة - مدار خلاف بينهم، فقد نص غير واحد من النحاة على عدم جواز القياس عليه في الاختيار، وما ورد منه يُحفظ ولا يُقاس عليه.

قال الشاطبي: ولكنَّ الجميع - أي ما ورد من شواهد للحذف - قليل لا يفتقر إلى التنبيه عليه لعدم القياس فيه(75). وقال السيوطي: ولايُقاس على شيء من ذلك في الاختيار(76).

ومن البدهي القول بأنَّ هذا يتفق مع أصحاب الرأي الأول الذين يرون اختصاص هذا الحذف بالضرورة الشعرية. فهم يتفقون في القياس ويختلفون في السماع.

وأما القول بجواز هذا الاستعمال وصحته في القياس بناء على ماورد منه في لغة العرب فإني لم أقف على من صرح به إلا ما جاء في حاشية الخضري على ابن عقيل بعد إيراده لحديث: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**» السابق ذكره، قال: ومقتضاه جواز ذلك في السعة[77].

ولكن قد يُفهم هذا من كلام ابن مالك ويكون من لازم إيراده لهذا الاستعمال وإثباته له في لغة العرب نثرا ونظما، دون ذكر لشذوذه في النثر أوضرورته في الشعر، وهو ما يتوافق مع أصول ابن مالك في صحة القياس على ما ورد فيه السماع، وخصوصا في الحديث النبوي الشريف الذي أشهر وأذاع الاستشهاد به، مخالفاً بذلك جمهرة النحاة قبله[78].

ومع ورود هذا الحذف في بعض القراءات الشاذة وعدد من الأحاديث الشريفة إلا أنَّ مسألة القياس عليه تحتاج إلى نظر.

ولعل القول بصحة هذا الاستعمال وثبوته في السماع، وإقراره وعدم تشذيذه أو وصفه بالضرورة مع عدم بناء القاعدة - عند المتأخرين - عليه وجعله قياساً في الكلام هو الأقرب للصواب والعلم عند الله.

وفي ذلك يقول الأستاذ عباس حسن في كتابه الماتع (النحو الوافي): وليس من السائغ اتباع هذه اللغة في عصرنا ولا محاكاتها[79].

الخاتمــــة:

المستقرئ للشواهد الشعرية والنثرية التي ورد فيها حذف نون الرفع لغير علة في كلام العرب يظهر له عدة أمور، منها:

أولاً: تكرر هذا الحذف في مصادر السماع الموثوقة (القراءات والحديث والشعر) وهذا كافٍ في الرد على القائلين بشذوذه أو كونه ضرورة كابن عصفور وابن هشام وغيرهما .

ثانياً: تصحيح هذا الاستعمال وإثباته في لغة العرب له أثر في توجيه بعض القراءات الشاذة على وجه مستقيم، ومانع من ردها عند من خفي عليه هذا الاستعمال، كما وقع من ابن خالويه والعكبري وغيرهما.

ثالثاً: سعة لغة العرب وتشعب استعمالاتها ، مما يحتم على الباحث المنصف أن يتريث قبل تخطئة شيء من كلام العرب بادي الرأي.

رابعاً: تفاوت مصادر السماع قلةً وكثرةً، فقد يكثر استعمالٌ في الشعر ويقل في القراءات أو الحديث، والعكس صحيح. ولذا لابد من التتبع الدقيق لكلام العرب شعرا ونثرا قبل الحكم على صحة لغة أو شذوذها.

خامساً: الثروة اللغوية الكبيرة في الحديث الشريف، والتي قل اعتناء النحاة بها قديماً، وفتح فيها ابن مالك رحمه الله الباب على مصراعيه، وقد أحسن أيما إحسان، فكم في الحديث الشريف من تراكيب ولغات تقل أو تندر في غيره.

وبعد، فلاتزال لغة العرب ثرة غنية، معينها لا ينضب، وكنوزها لاتنفد، تنتظر من يحرث مبانيها ويغوص في معانيها، ورحم الله أباعمر ابن العلاء إذ يقول: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير[80] .

الهوامش

(1) حرف النون يأتي اسماً وحرفا، فالاسم نوع واحد وهو ضمير الإناث، والحرف عدة أنواع وهي: نون الرفع – وهي مدار البحث – ونون التوكيد ونون التثنية والجمع ونون الوقاية ونون الإناث في حال تأخر الفاعل المؤنث عن فعلها.

انظر: معاني الحروف للرماني (149) وجواهر الأدب (155) ومغني اللبيب (443) ورصف المباني (395) .

(2) للنحاة في هذه النون ثلاثة أقوال:

الأول: أنها حرف إعراب، وهذا هو المشهور فيها، وهو قول الجمهور.

الثاني: أنها دليل إعراب مقدر قبل الضمائر الثلاثة. ونُسب للأخفش وابن درستويه والسهيلي.

وقد نص عليه السهيلي في نتائج الفكر (110-111).

الثالث: أنها حرف صحيح ليست بإعراب ولا دليل إعراب، والفعل معها معرب ولا حرف إعراب فيه. ونُسب للفارسي.

وفي الإيضاح له (70-71) ما يدل على موافقته للأخفش في أنها دليل إعراب.

ونص على هذا الرأي ابن الأنباري في أسرار العربية (325-326)، والعكبري في اللباب في علل البناء والإعراب (27/2).

وقد ضعف غير واحد من النحاة القولين الأخيرين من عدة أوجه.

انظر: أمالي ابن الحاجب (803/2) وشرح المقدمة الجزولية للشلوبين (431/2-432) وشرح التسهيل لابن مالك (50/1-51) ورصف المباني (3-4) والتذييل والتكميل (188/1-191) وارتشاف الضرب (843/2-844) وشرح اللمحة البدرية (287-286/1) والمساعد (30/1-31) وهمع الهوامع (175/1-176).

(3) رصف المباني (403).

(4) جواهر الأدب (190).

(5) وأما الحذف لعلة نحوية – وهو الذي يكون في حالتي النصب والجزم – فليس له علاقة بأصل البحث. فالحديث هنا عن نون الرفع التي حقها الثبوت، وليس النون المحذوفة لناصب أو جازم.

(6) قال الأزهري في التصريح (203/1): وحيث حُذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فهي مقدرة الثبوت ؛ لأنها علامة الرفع.

(7) قال الزمخشري في المفصل (394): وهي على ضربين ثقيلة وخفيفة. فالخفيفة تقع في جميع مواضع الثقيلة إلا في فعل الاثنين وفعل جماعة المؤنث.

(8) هناك حذف آخر في الفعلين الأخيرين وهما ضميرا الرفع: الواو والياء، حيث حُذفا لالتقاء الساكنين.

(9) شرح الكافية الشافية (176/1).

(10) والقول الآخر أنَّ المحذوف هو نون الوقاية وعليه جمع من النحاة.

انظر: التذييل والتكميل (194/1)، وهمع الهوامع (177/1).

(11) شرح التسهيل لابن مالك (52/1).

(12) انظر: البحر المحيط (462/5) والدر المصون (247/3) ومن غير نسبة في إعراب القراءات الشواذ للعكبري (326/1).

(13) انظر: المصادر السابقة.

(14) البحر المحيط (462/5).

(15) الدر المصون (247/3).

(16) إعراب القراءات الشواذ (326/1) .

(17) البحر المحيط (462/5).

(18) الدر المصون (247/3).

(19) انظر: مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه (80)، ومعاني القرآن للفراء (127/2)، والمحتسب (22/2)، والكشاف (536/3)، والمحرر الوجيز (473/3)، والتبيان (828/2)، وشواهد التوضيح (229)، والبحر المحيط (137/14)، والدر المصون (389/7)، والإتحاف للبنا (202/2).

(20) معاني القرآن (127/2).

(21) و(كُلٌّ) بالرفع نائب فاعل .

(22) انظر: المحرر الوجيز (473/3)، والبحر المحيط (137/14)، والدر المصون (389/7) .

(23) اقتصر على ذكر هذا الوجه ابن جني في المحتسب (22/2-23)، والعكبري في إعراب القراءات الشواذ (796/1) ، وابن عطية في المحرر الوجيز (473/3).

وانظر: الكشاف (536/3) ، والتبيان (828/2) ، والبحر المحيط (137/14)، والدرر المصون (389/7) .

(24) والواو نائبةٌ عن الفاعل، و(كُلٌّ) بالرفع بدل منها. قال ابن مالك: وفي قراءة الحسن أيضاً موافقة للغة (أكلوني البراغيث). شواهد التوضيح (229).

(25) الكشاف (3/536-537)، وانظر: التبيان (2/828)، والبحر المحيط (14/137) والدر المصون (7/389).

(26) انظر: زاد المسير (6/277)، وشرح التسهيل لابن مالك (1/53) ، والتذييل والتكميل (1/196)، والبحر المحيط (17/58)، والدر المصون (8/683)، والمساعد (1/32)، ومن غير نسبة في مختصر في شواذ القرآن (114) وإعراب القراءات الشواذ (2/262)، وارتشاف الضرب (2/845) وهمع الهوامع (1/176).

(27) انظر: مختصر في شواذ القرآن (144).

(28) انظر: إعراب القراءات الشواذ (2/263).

(29) انظر: البحر المحيط (17/58)، والدر المصون (8/683).

(30) البحر المحيط (17/58).

وانظر شواهد التوضيح (229) وارتشاف الضرب (2/845)، والتذييل والتكميل (1/196).

(31) الدر المصون (8/683).

(32) جاء هذا الفعل في روايات أخرى بالحذف أيضاً (لا تدخلوا)، انظر : سنن الترمذي (2688)، وسنن أبي داود (5193)، وسنن ابن ماجه (68) و (3692).

(33) صحيح مسلم (54).

(34) شرح النووي على صحيح مسلم ص (160).

(35) شرح الكافية الشافية (1/210)، وانظر : التذييل والتكميل (1/196) وهمع الهوامع (1/176) .

(36) صحيح مسلم (1480).

(37) شرح النووي على صحيح مسلم ص (1132).

(38) صحيح مسلم (1779).

(39) شرح النووي على صحيح مسلم ص (1379).

(40) صحيح مسلم (2450).

(41) شرح النووي على صحيح مسلم ص (1782).

(42) صحيح مسلم (2874).

(43) شرح النووي على صحيح مسلم ص (1992).

ومن الغريب قول ابن عصفور عند إيراده لهذا الحديث شاهداً على الحذف من غير علة قال : ولا يُحفظ شيء من ذلك في الكلام إلا ما جاء في حديث خرجه مسلم في قتلى بدر... ضرائر الشعر (111).

(44) انظر: هذه الأحاديث في : إعراب الحديث للعكبري (233، 273، 322)، وشواهد التوضيح لابن مالك (228-229). وهناك دراسات نحوية قامت على شروح الصحيحين ومسند الإمام أحمد جمعت عددا من هذه الأحاديث وقد أفدت منها.

انظر: المسائل النحوية في كتاب فتح الباري لابن حجر (248/1)، والمسائل النحوية في شرح صحيح مسلم للنووي (93)، والتوجيه النحوي في حاشية مسند الإمام أحمد للسندي (52).

(45) البيت لا يُعرف قائله، وهو في الخصائص (388/1) - وقد دار بين ابن جني وشيخه أبي علي الفارسي نقاش حول البيت، سيأتي ذكره - وشرح جمل الزجاجي (594/2)، وضرائر الشعر (110)، وشرح التسهيل لابن مالك (53/1)، وشواهد التوضيح له (230)، وشرح الكافية الشافية (210/1)، وشرح الكافية للرضي (24/4)، والبحر المحيط (462/5) و (137/14)، والتذييل والتكميل (195/1)، والمساعد (32/1)، وهمع الهوامع (176/1)، والتصريح (353/1)، والخزانة (339/8) .

(46) شرح الكافية الشافية (211/1)، وقد ضمن ابن مالك هذا البيت في متن الكافية الشافية.

(47) البيت - مع اختلاف يسير - لأبي طالب في السيرة النبوية لابن هشام (222/1)، وشرح التسهيل لابن مالك (53/1) وشواهد التوضيح له (230)، وشرح الكافية الشافية (211/1)، والتذييل والتكميل (195/1)، والبحر المحيط (463/5)، والدر المصون (248/3).

(48) الدر المصون (248/3).

(49) البيت لأيمن بن خريم في ضرائر الشعر (110)، والمقاصد الشافية (221/1-222)، ومن غير نسبة في التذييل والتكميل (195/1) وقد أحال محقق الكتاب في حاشيته إلى شرح جمل الزجاجي، ولم أجده فيه.

(50) التذييل والتكميل (196/1).

(51) البيت لأبي خراش في لسان العرب وتاج العروس (ردم) وبلا نسبة في المحصول لابن إياز (230/1)، وانظر : الخزانة (81/5).

(52) المحصول في شرح الفصول (231/1)، وذكرمحقق الكتاب أنَّه لم يجد هذا القول في كتب ابن جني.

(53) الرجز ضمن أبيات لطرفة في ديوانه (158) ومجمع الأمثال (423/1)، والمستقصى (75/2)، والخزانة (424/2).

(54) مجمع الأمثال (423/1).

(55) الرجز لا يُعرف قائله، وهو في شرح الفصيح للزمخشري (144/1)، ولسان العرب وتاج العروس (زحر).

(56) شرح الفصيح (144/1).

(57) البيت لا يعرف قائله، وهو أول أبيات ثلاثة في رسائل الجاحظ (288/2)، والشاهد فيه قوله (تتصبري) والأصل: تتصبرين.

(58) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه (40) والشاهد فيه قوله: (تسألَي) والأصل: تسألين.

(59) البيت لا يعرف قائله وهو في ضرائر الشعر (110)، والشاهد فيه قوله (يغرسوها) والأصل: يغرسونها .

(60) الرجز لا يُعرف قائله وهو في ضرائر الشعر (110)، والشاهد فيه قوله: (تقولي) والأصل: تقولين.

(61) ضرائر الشعر (109).

(62) التذييل والتكميل (196/1).

(63) انظر: النشر (159/2-161).

(64) من الآية (160) سورة آل عمران.

(65) من الآية (109) سورة الأنعام.

(66) من الآية (67) سورة البقرة.

(67) البيت لامرئ القيس في ديوانه (149) والكتاب (204/4) ومعاني القرآن للزجاج (275/4) والخصائص (74/1) وشرح المفصل (48/1) ورواية الديوان: فاليوم أُسقى. ولا شاهد فيها.

(68) الدر المصون (17/5)، وانظر : شرح التسهيل (52/1)، وحاشية يس على التوضيح (86/1).

(69) انظر: الأشباه والنظائر (58/3-59).

(70) التذييل والتكميل (196/1)، وانظر : إعراب الحديث للعكبري (322)، وضرائر الشعر (109-110)، وشرح جمل الزجاجي (594/2) وشرح الكافية للرضى (24/4).

(71) انظر: حاشية يس على التصريح (86/1)، وحاشية الصبان (97/1)، وحاشية الخضري (86/1).

(72) ص (228).

(73) انظر: المسائل النحوية في شرح صحيح مسلم للنووي (93-96).

(74) انظر: المسائل النحوية في كتاب فتح الباري لابن حجر (248/1-250).

(75) المقاصد الشافية (222/1).

(76) همع الهوامع (176/1).

(77) حاشية الخضري (86/1).

(78) انظر الخلاف في هذه القضية بتوسع في كتاب الاقتراح للسيوطي (157) وشرحه فيض نشر الانشراح لابن الطيب الفاسي (446/1) والخزانة (9/1).

(79) النحو الوافي (180/1).

(80) طبقات فحول الشعراء (25/1) وانظر : الخصائص (386/1) والصاحبي (58).

الاختزل الدلالي في الحديث النبوي
(دراسة في ضوء نظرية تحليل الخطاب)

محمد أحمد عبدالعاطي عبدالباقي(*)

مقدمة البحث:

ظلت قضية الخطاب والنص من القضايا الشائكة التي تناولتها أحدث نظريات علم اللغة المعاصر تحت مسمى (تحليل الخطاب) وجُعل الخطاب في هذا البحث متعلقا بأشرف الخطابات الإنسانية حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانية وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف، وقد عَّرفنا أولا بكل من الخطاب والنص، ومعايير كل منهما، ثم تلوناهما بدراسة تطبيقية على الحديث النبوي لنخلص في نهاية البحث بنتائج مفادها أن معايير تحليل الخطاب التي أوجدها علماء اللغة الغربيون تطبق على الخطاب النبوي كلها؛ إلا أن هنالك مبدأين لم يصدقا بالتمام والكمال في خطاب، كما صدقا في حديث رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، ألا وهما: مبدأ التعاون في الحديث بأقسامه الأربعة، وأثر الفعل الصوتي على السامعين وهم أصحابه رضوان اللّه عليهم. كما يهدف البحث إلى إبراز قيمة تلك المعايير ومدى فاعليتها في الحديث النبوي الشريف، وقد كانت عينة البحث أربعة أحاديث نبوية اخترتها من كتاب الأربعين

(*) عميد كلية اللغة العربية جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم ـ السودان.

النووية. كما اتبعت في تطبيق تلك المعايير المنهج الوصفي التحليلي بعد رسم هيكلته، ومباحثه و ومطالبه.

المبحث الأول: الاختزال في الحديث النبوي:

المطلب الأول: الاختزال لغة ومصطلحاً:

الاختزال لغة:

وردت مادة(خزل في معاجم اللغة) دائرة حول الحذف والاقتطاع فـ «الخاء والزاي واللام أصل واحد يدل علي الانقطاع»[1] والاختزال هو الحذف، واختزل المال إذا اقتطعه، والخزلة في الشعر سقوط تاء متفاعلن ومفاعلتن، مما يعني الاختزال الصوتي، وانخزل الشيء انقطع، والاختزال الاقتطاع وخزلت الشيء قطعته، وخُزل الرجل أصابه وسط ظهره كسر[2]. وجاء في حديث الأنصار في سقيفة بني ساعدة «**قَدْ دَفَّتْ دافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلونا مِنْ أَصْلِنا**»[3] بمعني يقطعونا فيذهبون بنا منفردين. وقال الأعشى:

مِلئ الوشاح وصِفرُ الدرع بهكنة إذا يكاد الخَصر ينخزل: (بمعنى ينقطع)[4]

الاختزال اصطلاحاً:

لم يرد تعريف اصطلاحي للاختزال الدلالي، ولكن يمكن للباحث أن يورد تعريفا تسنده التعاريف اللغوية سالفة الذكر. فيكون الاختزال هو: قطع شيء من العبارة مشروطاً بشرطين: أن لا يخل بالفهم، وأن تدل قرينة لفظية أو سياقية على قطع العبارة. وهذا القطع أو الحذف قد يكون صوتيا كما ورد في الحديث عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أنه، صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «**حَذْفُ السلام سُنَّةٌ**»[5] وفسر ابن المبارك الحذف هنا بمعني (ألا تمدُّه مداً)[6]. وقد يكون مفرداتيا أو جمليا، يسنده السياق سباقا أو لحاقا لبيان وتوضيح دلالته وعصمتها من الزيغ.

والعربية تعرف هذا الميل في أسلوبها mمن ذلك ما جاء عن أبي عمرو بن العلاء عندما سئل: «أكانت العرب تطيل؟ فقال: نعم لتبلغ. قيل: أفكانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها. وأن العرب إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد»[7] فالعرب إذاً كرهت الإطالة والتكرار لأمور عنتها وكانت من مقاصدها البلاغية منها: رفع الكلفة عن عضلات الصدر التي لا تواصل ضغطا ثابتا خلال المجموعة النَّفَسية. وكذلك الإيجاز يقول الجرجاني عن ذلك: «هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذكْر، أَفْصَحَ من الذكْر، والصمتَ عن الإفادة، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن»[8] ويضارعه الإضمار. ويكون من الاختزال الدلالي كذلك الاختزال الذهني مثل الإحالة والتكرار والربط والترادف.

المطلب الثاني: الاختزال في الحديث النبوي:

يحاول المتكلم دائما أن يؤلف كلامه وفق ما تمليه عليه قوالب النظم المختلفة والمتداولة في لغته؛ إلا أن هذه التداوليه قد تدفعه أحيانا إلى اختزال بعض الأركان المشكلة للتركيب اللغوي مع المحافظة على الطاقة الإبلاغية المقصودة أصالة، ولعل رائد الدراسات التوليدية التحويلية تشومسكي حينما أشار إلى الإبداعية اللغوية باعتبار أن اللغة «تتسم بميزة أساسية من حيث إنها توفر للإنسان الوسائل اللازمة لكي يعبر بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة»[9] وعندما ميز كذلك بين الكفاية اللغوية (com petence) وهي المعرفة المثالية لمستخدم اللغة بقواعد لغته[10] وإن شئت فقل إن «تعبير الكفاءة اللغوية يشير إلى مقدرة المتكلم المستمع المثالي على إقران الصوت بالمعنى بالتوافق مع قواعد لغته»[11] وهو بهذا يعد معرفة ضمنية كامنة خلف اللغة المنجزة.

ويقابله الأداء الكلامي (performance) وهو مصطلح يشير إلى «البراعة التي يستعمل بها الفرد قدرته اللغوية في الإنتاج الفعلي للجمل وفهمها»[12] وهنا يمكننا طرح السؤال الآتي: أيهما يمثل اللغة ويتعين أن يُتوجه إليه بالدرس والتحليل: القدرة (الكفاية) أم الإنجاز (الأداء)؟ والجواب عند التحويليين عموما وتشومسكي على وجه الخصوص هو انتقاء الأول ذلك لأن ميدان اللغة ليس «الأشكال اللغوية كما هي منطوقة بالفعل (بل) القدرة الضمنية التي تفسر هذه الأشكال»[13] فنحن لا ينبغي أن نعتبر ميدان اللغة «وصفا لما كان قد قاله المتكلم، وإنما شرح وتعليل للعمليات الذهنية التي من خلالها يستطيع الإنسان أن يتكلم بجمل جديدة»[14] ويقول فودور fodor «لا يكون الاتصال ناجحا إلا إذا استنتج المتلقي أغراض المتكلم من خصائص المنطوق الذي أنتجه»[15] وهذا الاستنتاج يعني أن المعنى الكلي للجملة لا يحكمه النظام النحوي فحسب، وإنما هو مرتبط بالمقام الذي يشمل النواحي الاجتماعية والحسية والنفسية وغيرها، وهذا ما تحاوله مدرسة فيرث السياقية الحديثة.

وبناء على هذا يعد الحديث النبوي على سمت أساليب العرب في خطابها غير أنه أعلاها بيانا وأصدقها قيلا، وهو حدث كلامي يُعنى بالاستخدام الفعلي للغة وتوظيف نظامها، كما أنه ذو طبيعة انتقائية؛ لأن منشئه له أن ينتقي من النظام اللغوي ما يلائم الإفادة التي يريد تحقيقها، يقول ابن جني «وكانت الأصول وموادّ الكلم مُعرِضة لهم وعارضة أنفسها على تخيرهم جرت لذلك عندهم مَجرى مال مُلْقًى بين يدي صاحبِه وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعضه فميز رديئه وزائفه فنفاه البتة كما نفَوا عنهم تركيب ما قبح تأليفه ثم ضرب بيده إلى ما أطفّ له من عُرْض جيّده فتناوله للحاجة إليه وترك البعض لأنه لم يُرِد

استيعاب جميع ما بين يديه منه»[16] «واعلم أن العرب مع ما ذكرنا إلى الإيجاز أميل وعن الإكثار أبعد ألا ترى أنها في حال إطالتها وتكريرها مؤذِنة باستكراه تلك الحال وملالها»[17] «ويختزلون من الكلام ما لايتم الكلام على الحقيقة إلا به استخفافا وإيجازا إذا عرف المخاطب مايعنون به»[18] وهذا المسلك الأسلوبي حاضر الحديث النبوي من خلال ما نتعرض له في الجانب التطبيقي من هذا البحث.

ونجد في الدرس اللغوي الحديث أن ظاهرة الاختزال عالمية وعامة في لغات البشر «فالقاعدة التحويلية الخاصة بحذف العناصر اللسانية أثناء الأداء الفعلي للكلام تكاد تكون ظاهرة عامة تتجلى في جميع الأنظمة اللسانية، ومرد ذلك إلى الإنسان حين الإنتاج الفعلي للكلام يميل إلى بذل أقل جهد في عملية النطق، وهو ما يسمى بالاقتصاد اللغوي فترتب عن هذا تقليص الإنتاج النطقي، ومحاولة الميل إلى ماهو أسهل من حيث الجهد المبذول أثناء الإنتاج الفعلي للكلام»[19].

ومما تقدم من نصوص عن العرب يعطي الشرعية للاختزال الدلالي في أنه منهج لساني قصدته العرب تبعا لفطرتها، وتحقيقا لمبدأ التماس الخفة عندها، واتَّبعه المعصوم، صلى الله عليه وسلم، في خطابه للأمة.

المبحث الثاني: الخطاب والنص:

المطلب الأول: مفهوم تحليل الخطاب ومعاييره:

التحليل لغة:

يعد مصطلح تحليل الخطاب (discours analysis) من المصطلحات واسعة المفهوم وذلك لاشتمالها على عدد من الأنشطة التداولية، والسيميائية، والاجتماعية، والنفسية والأسلوبية وغيرها، فالمصطلح في استفاضة دائمة من حيث الموضوع، والمجال، والعلم

والمنهج، وتعدُّد مدارسِه التعريفية. كما يسعى في تركيبه إلى معرفة مضامين الرسالة اللغوية كاملة.

فالتحليل في اللغة هو الفتح والحل، ويعني تفكيك الشيء إلى مكوناته الجزئية، كأن نفكك خطابا محبوكا ومتماسكا شكلا ودلالة إلى بنيات جزئية – صغرى وكبرى – فاعلة ومتفاعلة، داخلية وخارجية، لمعرفة مرجعيات الخطاب المراد تحليله من أسس معرفية، وخلفيات أيدلوجية، وأطـر نظرية، ساهمت في تخلقه وتشكيله بغية معرفة مضامينه، ومحتوياته، ومعاييره، وغاياته، وفضائيه، وجنسه، وبنياته؛ ليتحقق تحليله وفتح مغاليقه، وهو بهذا المفهوم يعد عملية متشابكة ومعقدة تحتاج إلى معرفة واسعة وعقول مدركة في تخصصها لأجل التحكم فيها.

الخطاب لغة:

جاءت كلمة (خطب) في معاجم العربية بمعنى مراجعة الكلام والمواجهة به «والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان»[20] والمخاطبة صيغة مفاعلة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن، والخطاب عند ابن منظور مرادف الكلام، يحدث عنده كذلك عن طريق المشاركة بين المتكلم والمستمع، كما أنه لم يغفل جانب التفاعل في إنتاج الخطاب. وفي أساس البلاغة للزمخشري «خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وخطب الخطيب خطبة حسنة»[21]. وقد وردت لفظة (خطاب) في القرآن الكريم ثلاث مرات هي : قوله تعالى ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ، الآية: 37] وقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص، الآية: 23] وقوله تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص، الآية: 20].

فنلحظ في هذه الآية الأخيرة ورود لفظ (الخطاب) مقرونا بالحكمة «وهذا مجال فسيح للتأمل والاستبصار والتدقيق في اكتناف المعني العميق للفظ (خطاب) مما يخرج به عن المفهوم اللغوي بحسبانه مراجعة الكلام أو الكلام الذي يقصد به الإفهام، ويرتقي به إلى مستوى أرفع شديد اللصوق بمعنى الحكمة التي هي وضع الأمور في حلق موضعها وتدبيرها على ما بنبغي لها»[22].

وأما في الاصطلاح: فقد تباينت التعريفات تبعا لاختلاف المدارس ووجهات النظر لأنماط الخطاب المختلفة من دعوية، ونقدية، ولغوية، وعلمية، وسياسية واجتماعية وإعلامية وفلسفية، وسلطوية، وما المقصدية منه كذلك، القدوة، الحجاج والمجادلة، المجاهدة؛ أخاص هو أم عام؛ إلا أنه يمكن أجمال تعاريفه رغم هذا التباين النمطي في قسمين هما:

القسم الأول: ويعنون بالخطاب منهج فلان في التفكير والتصور، أو هو الكلام الذي يقصد منه عملية الإفهام فإذا فُقدت فلا يسمى خطابا «الخطاب اصطلاح فلسفي، يقارب في الدلالة (المقولة الفلسفية) فالخطاب الفلسفي لفلان هو منهاجه في التفكير والتصور وفي التعبير عن أفكاره وتصوراته،وهذا الخطاب يتعارض أو يتوافق مع الخطاب الفلسفي لعلان»[23] وتارة بقوله «والخطاب كما قيل: هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهلٌ للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا»[24] ويعرفه هاشم مرغني بقوله «اتسعت المفردة (خطاب) وقفزت من دلالتها البسيطة تلك التي تدل على الكلام أو المخاطبة، لتدخل شبكة معقدة من الدلالات نسجها النقد الأدبي الحديث بمختلف تياراته اللغوية والبنائية وغيرها»[25] ويعد خطابا عند أصحاب هذا القسم كل مكتوب، وأما الجانب الآخر من الخطاب فمهمل لديهم.

القسم الثاني: ويشمل الخطاب عند هؤلاء المكتوب والملفوظ معاً ،فالمتوكل يعرف الخطاب بقوله: «يعد خطابا كل ملفوظ/ مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات»(26) وعند المساري هو: «رسالة ذات هدف ودلالة وهو كلام منطوقا أو مكتوبا، يمثل وجهة نظر محددة من الجهة التي توجه الخطاب، ويفترض فيه التأثير في السامع أو القارئ مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف والملابسات التي صيغ فيها الخطاب بدلالة الزمان والمكان»(27) ويعرفه ماكل شورت (mecheal chart) بقوله: «الخطاب اتصال لغوي يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع نشاطا متبادلا بينهما وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي»(28) وعند شحدة فارع «تحليل الخطاب هو أحد مستويات الدرس اللغوي الذي يحاول تحليل الظاهرة اللغوية على مستوى يتجاوز مستوى الجملة أو التفوه ليشتمل على البعض المكتوب مهما بلغ طوله، واختلفت أنواعه، وعلى التخاطب الشفوي بين الناس بأشكاله المختلفة كالمكالمة الهاتفية»(29).

أركان الخطاب اللغوي:

للخطاب اللغوي ستة أركان لابد من توافرها وهي:

* الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية: ومحور هذه الوظيفة هو المرسل ومقصده من الرسالة اللغوية كأن يكون مازحاً أو مستهزئاً ومع من يتحدث، صديق، عدو، زوجة، حاكم ،محكوم وغيره .
* الوظيفة الإفهامية: ومحورها المرسل إليه ومن مقتضيات هذه الوظيفة النداء والأمر والنهي.
* الوظيفة المرجعية: وهي متصلة بالسياق بشقيه باعتبار أن اللغة هي التي تحيلنا على أشياء وموجودات نتحدث عنها بواسطة الرمز اللغوي المشير إلى الموجودات والأحداث المبلّغة.
* الوظيفة الانتباهية: وتهدف إلى إقامة الاتصال بين الباث والمتلقي، وتظهر كثيراً في المناسبات الاجتماعية وتحمل دلالة غير الدلالات

الحرفية فيقصد بها الأدب والتلطف وإقامة العلاقات الاجتماعية أو تأكيدها أو التذكير بها.

* وظيفة ما وراء اللغة: أو تعدي اللغة أو اللغة الواصفة لأنها دون غيرها من أجهزة الاتصال الأخرى تتحدث عن نفسها.
* الوظيفة الشعرية أو الإنشائية: ومحورها الرسالة نفسها وتتمثل فيما ينسجه من أشعار في قوالب لغوية، كما يستخدمها الإنسان للترويح، أو لشحذ الهمة والتغلب على صعوبة العمل ، وإضفاء روح الجماعة، كما هو الحال في الأغاني، والأهازيج الشعبية(30).

معايير تحليل الخطاب:

عندما نريد أن نحلل خطابا أو نفككه حتى يتسنَّى لنا معرفة مايحمل من دلالات وإشارات اختزلها فيه منتجُه، فلابد من معرفة خمسة معايير حددها علم اللغة الحديث لمعرفة مقصد المتكلم ومراده وهي:

أولا: التماسك اللغوي: cohesion:

هنالك مواصفات ومعايير متى ما روعيت في النص وتوفرت عُد النص مقبولا، وإلا فهو ناقص وغير مقبول، ومن هذه المعايير والمواصفات التماسك اللغوي الذي يَعني ترابط جمل النص بعضها ببعض بوسائل لغوية معينة يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - **الإحالة** reference: وهي أن يستخدم الضمير ليعود على سابق أو لاحق له بدلا من تكرار الاسم نفسه(31) وهي نوعان:

أ - نصية وتتم بواسطة الضمائر وأسماء الإشارة والموصول وتتفرع إلى (قبلية) وفيها يشير العنصر المحيل إلى عنصر آخر متقدم عليه وهي الأكثر شيوعا، و(بعديّة) وفيها يشير العنصر المحيل إلى عنصر آخر يلحقه(32).

ب - الإحالة المقامية. أو السياق الخارجي أو المقامي، وفيها يحيل عنصر في النص إلى ما هو خارج النص، وهي لا تدخل في

السبك وإنما ننظر إليها أو نستنطقها من إطار سياق الموقف الخاص بالنص. ويرى هاليداي، ورقية حسن، أن الإحالة المقامية أو الموقفية تسهم في خلق النص؛ لأنها تربط اللغة بسياقها الاجتماعي والذي يعد شقها الآخر؛ إلا أنها لا تسهم في اتساقه على نحو مباشر، في حين أن الإحالة النصية هي التي تسهم بدور فعال في سبك النص.

2 - **الربط** conjoining: ويقصد به استخدام أدوات الربط - مثل حروف العطف - لإيجاد علاقات بين الجمل والنص.

3 - **الإبدال** substitution: وهو عملية تتم داخل النص ومفهومها أنها تعويض عنصر في النص بعنصر آخر(33).

4 - **الحذف** ellipsis: وهو أن يحذف جزء من الكلام يمكن فهمه وتقديره من السياق، دون أن يسبب خللا نحويا أو دلاليا في الجملة أو النص(34) كما أن المحذوف يرتبط عادة بعلاقات قبلية مع العناصر اللغوية التي تسبقه،

5 - **الترادف والتكرار** synonymy and nepertion: وهو نوع من أنواع الاختزال الدلالي تستخدم فيه الكلمة أو العبارة مرادفة لعبارة أخرى سابقة لها، تجنبا لإعادة الأولى؛ لأن الإعادة سمة غير مرغوب فيها في جميع اللغات الطبيعية(35).

6 - **التراكيب المتوازية** Structures parallelis: والمقصود منه؛ أن تتكرر وحدات لغوية أكثر من مرة في جملة واحدة يختلف المعنى في كل جملة عنه في الجملة الأخرى.

ثانيا: الوحدة الموضوعية:

ويتصف بها كل نص يتحدث عن موضوع واحد، تشكل من جمل عدة تمثل كل واحدة منها لبنة أساسية في بناء النص وتضاف إلى فكرته الرئيسة.

ثالثا: الفعل الكلامي:

هنالك أفعال كلامية تتحقق فور نطقها وبمجرد قولها ،وهي أساليب خطابية كثيرة منها: التهديد والإطراء والدعوة والقبول والرفض والتذمر والشكوى والتحية والاستئذان والتهنئة والتعزية وغيرها.

وللفعل الكلامي ثلاثة جوانب:

أ - **الفعل الصوتي** lectionary: ويقصد به مجموع الأصوات والكلمات التي نسمعها عندما تقال لشيء معين، أو هو حركة العضو النطقي أثناء العملية الكلامية والتفوه بها .

ب - **أثر الفعل الصوتي على السامع** perlocutionary act: ويقصد به مد ى تأثير القول أو التفوه على السامع من حيث قبوله أو رفضه للرسالة اللغوية الموجهة إليه لفظية كانت أوحركية،والتي لا يستطيع المتكلم التحكم في كيفية استجابة السامع لها إذا رفضت من قِبلِه.

جـ - **الفعل المقصود من التفوه أو القول** lllocutionary act: ويقصد به القيمة الدلالية لهذا التفوه أو القول اجتماعيا ، أمفهوم عند الآخرين مباشرة؟ كأن تقول مستضيفا (مرحبا) أو مقدرا (شكرا) أو معتذرا(آسف) فمدلول هذه الكلمات اجتماعيا يعد معنى حرفيا مباشرا يفهمه الجميع، وقد يكون القصد من التفوه أو القول غير مباشر وهو ما لايفهم من العبارة قصدا ، فيكون التعامل لتحليله حينئذ مع روح النص وليست عبارته.

رابعا: مبدأ التعاون في الحديث co-operativeprinciple:

يقوم هذا المبدأ على القدر الذي يتطلبه الحوار زمنا ومناسبة، وله أربعة أقسام:

أ - **مبدأ النوعية** the maxim of quality: ويقصد به أن يجعل المتكلم مساهمته في الحوار صحيحة وصادقة بأن لا يقول ما لايعتقد صحته، وأن لا يقول شيئا لا يستطيع إثباته وتقديم الأدلة عليه، فهذا المبدأ يحجر على المتكلم أن يتحدث بشيء غير متأكد من صحته؛ إلا أنه لا يمنعه من أن يقول أي رسالة لغوية شفهية كانت أم كتابية بأي درجة من الصدق والصحة، شريطة أن يستعمل المفردة الدقيقة والتركيب اللغوي الذي يحمل مقصده بدقة.

ب - **مبدأ الكمية** the maxim of quantity: ويقصد بهذا المبدأ أن تكون مساهمة المتحدث في الحوار مفيدة من حيث المعلومات الخادمة لهدف الحوار.

جـ - **مناسبة الحديث للموضوع العام للحوار**: ويقصد بهذا المبدأ أن يجعل المتحدث كلامه يتناسب وموضوع الحوار.

د - **الوضوح** the maxim of manner: ويقصد به كيفية نقل الرسالة اللغوية الشفهية والتي بنبغي أن يتوافر فيها الآتي:

تجنب الغموض أو عدم الوضوح في الحديث.

تجنب اللبس (احتمال أكثر من معنى لما تقول).

أوجز في حديثك.

كن منظما في نقل رسالتك.

إن مراعاة توفر تلك المبادئ يمثل أرضية مشتركة للتواصل الفعال الناجح،والبعيد كل البعد عن الغموض،والتعقيد اللفظي، والإبهام والذي يصل أحيانا لدرجة الشتم والسباب وقطع العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة والمجتمع.

خامسا: مبدأ الأدب في الحديث politeness:

وجود هذا المبدأ أثناء التخاطب يفرض علينا الآتي:

لا تفرض رأيك أو نفسك.

اترك للمستمع خيار الإجابة رفضا أو قبولا.

أشعر المستمع بالسرور والارتياح[36].

المطلب الثاني: الفرق بين الخطاب والنص:

تدور مادة (نص) في معاجم اللغة حول عدة معان من أبرزها: الرفع الإظهار وبلوغ الغاية والإسناد، والسير الشديد، ثم تطورت إلى إسناد الكلام ورفعه إلى منشئه الأصلي[37].

وقد تناولت الدراسات الحديثة مفهوم النص تحت مسمى علم النص، أو لسانيات النص، أو لسانيات الخطاب، أو نحو النص، والمقصود من كل هذه الأسماء مجاوزة التحليل الجملي الذي رأوه قاصراً، إلى فضاء أرحب وأوسع منه وهو الفضاء النصي، ويرون أن الاتجاه الألسني الحديث للنص يمثل فتحاً جديد في تاريخ اللسانيات: «وهو التحول الأساسي الذي حصل في السنوات الأخيرة، لأنه أخرجها - أي اللسانيات - نهائياً من مأزق الدراسات البنيوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية، البنيوي والدلالي والتداولي»[38].

ولعله من ضمن الأسباب القوية للاتجاه نحو النص عند علماء اللسانيات ؛ هو أن نحو الجملة أهمل السياق الاجتماعي وهو ذو أهمية كبرى في الدراسات اللغوية الحديثة، وعليه أسس فيرث نظريته، فاللغة عبارة عن وسيلة اتصال بين أفراد المجتمع بهدف التوصل إلى غايات مقصودة، كما أن السياق من أهم عوامل الاتصال وأداء المعنى. يقول الدكتور مصلوح في هذا الإطار: «إن الفهم الحق للظاهرة اللسانية يوجب دراسة اللغة دراسة نصية وليس باجتزاء البحث عن نماذجها، وتهميش دراسة المعنى. كما ظهر في اللسانيات البلومفيلدية أول أمرها، وثم

كان التمرد على (نحو الجملة) والاتجاه إلى (نحو النص) أمراً متوقعاً، واتجاهاً أكثر اتساقاً مع الطبيعة العلمية للدرس اللساني الحديث»[39].

إلا أن هذا التخطي لعتبة الجملة إلى ما هو أوسع منها وأشمل مما يُعد وحدة دلالية لها معني في سياق معين ،قد سبب اضطرابا في ضبط المفاهيم، فهذه الوحدة التي اتجه التخطي حولها هي (الملفوظ) عند بعضهم وهي (الخطاب) عند بعضهم الآخر وهي (النص) عند آخرين[40].

وحتى تتضح الرؤية المفاهيمية لهذه المصطلحات نشير إشارة عجلى نبين من خلالها أرجح الآراء في التفريق بينها، فنجد أن اللساني هيلمسليف قد استعمل مصطلح النص بمعنى واسع، أطلقه على كل ملفوظ منفذ قديماً كان أو حديثاً، مكتوباً أو محكياً، طويلاً أو قصيراً، فكلمة (قف) مثلاً في نظره نص كامل، كما أن جماع المادة اللغوية لرواية بأكملها هي أيضاً نص كامل[41]، واللافت للنظر في شأن تعريف النص أن سعيد حسن بحيري ذكر أنه يجب أن يوضع في الاعتبار أن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص مسألة غير منطقية من جهة التصور اللغوي، ويؤكد ذلك الاختلاف بين علماء اللغة الذين ينتمون إلى مدارس لغوية مختلفة حول حدود المصطلح التي ترتكز عليها بحوثهم[42].

ويشير الصبيحي، إلا أن كبار العلماء لم يفرقوا بين علم النص وتحليل الخطاب بقوله: «غير أن من المفارقات التي تفاجئ البعض هي أن أكبر علماء هذين التخصصين (علم النص وتحليل الخطاب) لايفرقون إلا فيما ندر بين هذين المصطلحين، كما يُلحون في مختلف أبحاثهم على ضرورة أن تشمل الدراسة الجانبين معا»[43] كما لم يفرق شحدة فارع، وآخرون بين المصطلحين بقولهم: «سنستخدم في

هذا الفصل تعبير تحليل الخطاب ليدل على تحليل النصوص المكتوبة والمحكية على حد سواء»[44].

ويري ديفيد كرستال، أن التفريق بين المصطلحين غير ممكن قائلا: «يركز مجال تحليل الخطاب على بُني اللغة المحكية المستعملة في ظروف طبيعة،كما نجد ذلك في بعض (الخطابات) كالمحادثات والاستجابات والتعاليق والخطب. بينما يركز مجال تحليل النص على بُنى اللغة المكتوبة، ومن الأمثلة على ذلك: المقالات، واللافتات، وإشارات المرور، وفصول الكتب ؛ إلا أن هذا التمييز ليس تمييزا جليا وواضحا فقد كان لهذين المصطلحين العديد من الاستعمالات الأخرى، وبصفة خاصة قد يُستعمل كلٌ من الخطاب والنص بمعني أوسع بكثير ليشمل جميع الوحدات اللغوية التي لها وظيفة اتصال محددة سواء أكانت تلك الوحدات محكية أو مكتوبة، فمن العلماء من يتحدث عن الخطاب المحكي أو المكتوب،ومنهم من يتحدث عن النص المحكي أو المكتوب»[45] فكرستال ينطلق من كون الخطاب إنتاجا لغويا محكيا شفويا، أنتج في ظروف معينة، إشارة منه إلى السياق، بينما يمثل النص عنده كل إنتاج لغوي مدوَّن، كما أن التدوين قد يشمل الخطاب مثلما قد يختص النص بالمحكي، فيكون الفارق بينهما هو السياق، فالخطاب يساوي النص زائد ظروف الإنتاج «هو دراسة النص في علاقته مع ظروف إنتاجه»[46] والنص يساوي الخطاب ناقص ظروف الإنتاج، ويمكن القول: إن الاختلاف بينهما صوري نتج من اختلاف المدارس المسمِّية لا أكثر،فالدوال مختلفة والمدلول واحد[47].

فالنص هو (الملفوظ) والخطاب هو (التلفظ) باعتباره الفعل الحيوي التفاعلي الذي تم انجازه ضمن ظروف مقامية معينة.

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية:

يمثل هذا المبحث الجانب التطبيقي لتحليل الخطاب مشروطا بشرطين أحدهما: السياق الذي يرد فيه الخطاب، ثم الشرح من كتب الحديث، ليتوفر لنا الشرط الثاني وهو معايير تحليل الخطاب.

الحديث الأول:

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه).

معيار الوحدة الموضوعية:

يتحقق هذا المعيار في أن الخطاب النبوي يتحدث عن إخلاص النية لله سبحانه وأنها أساس العبادات في الاسلام وكل جملة من جمل هذا الحديث تعد لبنة في بناء وحدته الموضوعية.

معايير التماسك النصي:

الإحالة: قد استخدمت الضمائر في هذا النص على النحو التالي:

الضمير	العدد	الكلمات التي ورد بها
هـ	9	هجرته، رسوله، هجرته، رسوله، هجرته، يصيبها، ينكحها، هجرته، إليه.

الربط: استخدمت حروف العطف التالية:

حروف العطف	عددها	الكلمات التي ورد بها
و	4	وإنما، ورسوله، ورسوله، وكانت.
ف	3	فمن كانت، فهجرته، فهجرته.
إلى	3	إلى الله، إلى الله، إلى ما هاجر.
أو	1	أو امرأة

الإبـدال: استخدم عبارة (هجرته) ثلاث مرات بدلا من استخدام مهاجر أم قيس.

الحذف: في جملة (ولكل امرئ ما نوى) حيث حذف الفاعل (هو) وفي جملة(فهجرته إلى اللّه ورسوله) اختزال صوتي تمثل في حذف (إلى) من كلمة (ورسوله) وهو حذف يدل عليه سياق الكلام،وتعرفه لغة العرب.

الترادف والتكرار: (إنما الأعمال بالنيات) مرادفة لها (وإنما لكل امرئ ما نوى).

العبارات المتوازية: هجرته، ورسوله، فهجرته، ورسوله، يصيبها، ينكحها، هجرته.

معيار الفعل الكلامي:

الفعل الصوتي: وقد تحقق في عبارة (فهجرته، فهجرته).

2 - **أثر الفعل الصوتي على السامع**: دل هذا الأثر قرائن الأحوال، فالصحابة بلغ بهم التأثير درجات، رضي اللّه عنهم ورضوا عنه، بسبب إخلاص نواياهم للّه تعالي.

3 - **الفعل المقصود من القول أو التفوه**: استعمل المتحدث كلمة (امرئ) وهو تعبير دقيق جدا حيث شمل المرأة والرجل على حد سواء، وهذه هي دلالتها الاجتماعية،المفهومة قطعا دون تعمية. أما مبدأ التعاون في الحديث، فقد تحقق في جوانبه الأربعة.

فمن حيث مبدأ النوعية فقد كان الحديث وحيا من عند اللّه تعالى على رسوله، صلى اللّه عليه وسلم، وقدم الأدلة على ذلك وهي تعبده بغار حراء وملازمته لخلال الخير؛ فأعطاه اللّه على قدر نيته ووهب له النبوة[48] ولم يفرض رأيه أو نفسه فقال (فمن كانت، فمن كانت)

ليترك للمتلقي حرية القبول أو الرفض، كما تحقق مبدأ الأهمية فكانت المساهمة في الخطاب مفيدة من حيث المعلومات التي قدمت، وقد ناسب الحديث للموضوع العام الذي من أجله سيق الخطاب. كما أن المتحدث كان واضحا في كلماته وجمله دون غموض أو لبس يحور الدلالة، ومنتظما في الرسالة اللغوية التي قدمها.

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة يحدث أنه سمع رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – يقول: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**».

معيار الوحدة الموضوعية:

جاء في سبب ورود الحديث وسياقه عن أبي هريرة، رضي اللّه عنه، أنه قال : خطبنا رسول اللّه، صلى اللّه عليه، وسلم فقال: «**يا أيها الناس قد فرض اللّه الحج عليكم فحجوا**» فقال رجل: أكل عام يا رسول اللّه؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال النبي، صلى اللّه عليه وسلم، «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**» والرجل الذي سأله هو الأقرع بن حابس(49) فيكون موضوع الحديث إذا هو النهي عن كثرة السؤال فيما لا يفيد، بل قد يترتب عليه الضرر والمشقة في التكاليف الشرعية المبنية على التيسير،فجاءت جمل الحديث وكلماته خادمة لهذا الغرض.

معايير التماسك النصي:

الإحالة:

الضمير	العدد	الكلمات التي ورد بها
ت	3	نهيت، أمرت، استطعتم.
هـ	4	عنه، فاجتنبوه، منه، به.
هم	3	مسائلهم، واختلافهم، أنبيائهم.
ك	3	نهيتكم، أمرتكم، قبلكم.

يلاحظ أن الإحالات بلغت ثلاث عشرة إحالة مع صغر حجم النص.

الربط:

حروف العطف	عددها	الكلمات التي ورد بها
و	2	وما أمرتكم، واختلافهم.
ف	3	فاجتنبوه، فأتوا، فإنما.
ب	1	به
عن	1	عنه.
من	2	منه، من قبلكم.

الاستبدال: استخدم عبارة (فاجتنبوه) في النهي عن المحرمات جميعها ثم استبدلها بعبارة (ما استطعتم) فاشترط الطاعة في الأوامر؛ لأنها مشروطة بشروط قد لا تتوفر بخلاف النواهي فمطلوب تركها دون شرط أو قيد.

الحذف: استخدم للاختزال الدلالي لفظ (شيء) لأنها من أعم ألفاظ العموم لتشمل كل معروف.

الترادف والتكرار: (كثرة أسئلتهم) و(اختلافهم) فالذين يكثرون السؤال يكثر عندهم الخلاف.

العبارات المتوازية: نهيتكم، أمرتكم، أسئلتهم، اختلافهم.

أثر الفعل الصوتي على السامع: وقد تمثل ذلك في أن الصحابة، رضوان اللّه عليهم، قد فهموا ذلك وكفوا عن السؤال إلا فيما لابد منه، وكان يعجبهم أن يجيء الأعراب يسألون رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، فيسمعون ويعون(50).

الفعل المقصود من القول أو التفوه: استعمل المتحدث كلمة (فحجوا) لفرضية الحج مرة في العمر لوضوح دلالتها الاجتماعية، فاللفظة يصدق عليها المرة الواحدة وهي مفهومة قطعا ولو كانت مطلقة لم يقل، صلى اللّه علية وسلم، (لو قلت نعم لوجبت)(51).

مبدأ التعاون في الحديث:

قد تحقق هذا المبدأ في الخطاب من خلال النقاط التالية:

* مبدأ النوعية: فقد كان المتكلم صادقا في أنه لم يقل ما لا يعتد صحته وهو فرضية الحج مرة واحدة في العمر، وأثبت ذلك بالأدلة أنه لو قال نعم لكانت المشقة والتعسير الذي تنفر النفس البشرية.
* مبدأ الأهمية: إن مساهمة المتحدث في الحوار كانت مفيدة من حيث المعلومات الخادمة لهدف الحوار، فأمر بالاجتناب عن النواهي، والاستطاعة في الأوامر، والنهي عن أسباب الاختلاف.
* مناسبة الحديث للموضوع العام.
* الوضوح: قد تجنب المتحدث الغموض في المفردات، كما تجنب اللبس وهو احتمال أكثر من معنى لما يقول، مع الإيجاز وتنظيم الرسالة اللغوية.

الحديث الثالث:

عن أبي عبداللّه جابر بن عبداللّه الأنصاري، رضي اللّه عنهما، أن رجلا سأل رسول اللّه، صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال : «أرأيت إذا

صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئا أدخل الجنة؟ قال: **نعم**».

معيار الوحدة الموضوعية:

سبب ورود الحديث وسياقه يبين أن النعمان بن قَوْقَل هو الذي قدم على النبي، صلى الله عليه وسلم، مستفسرا، استكثرت عليه النوافل وتداخلت عليه السنن والفضائل، فأراد أن يجلي الأمر ويسأل عن الشروط الأساسية التي يتوقف عليها دخوله الجنة قبل أن يعرف الأعمال التطوعية التي ترتقي به في الدرجات العلا من الجنة، وهذا هو معيار الموضوعية في هذا الحديث، وقد رتبت جمله وكلماته في شكل هندسي متكامل تمحور حول الشروط الأساسية لدخوله الجنة.

الإحالة:

الضمير	العدد	الكلمات التي ورد بها
ت	5	أرأيت، صليت، صمت، أحللت، حرمت.

الربط:

حروف العطف	العدد	الكلمات التي ورد بها
و	4	وصمت، وأحللت، وحرمت، ولم أزد.

الاستبدال: استخدم عبارة (أرأيت) والهمزة فيها ليست للاستفهام بدلا من (أخبرني) وستخدم عبارة (المكتوبات) بدلا من (المفروضات) (وأحللت الحلال، وحرمت الحرام) بدلا من (مما افتُرض علي).

الحذف: (ولم أزد) (أدخل) حذف الفاعل وجوبا وتقديره (أنا) (قال: نعم) حذف الفاعل جوازا وتقديره (هو)

الترادف والتكرار: (أحللت الحلال، حرمت الحرام).

العبارات المتوازية: صليت، صمت، أحللت ، حرمت.

معيار الفعل الكلامي:

الفعل الصوتي: وقد تحقق في عبارة: (ولم أزد على ذلك).

2 - **أثر الفعل الصوتي على السامع**: وقد تمثل تأثير الفعل الصوتي على المخاطب في يوم أحد حين قال: «أقسمت عليك رب العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي خضر الجنة» وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأنه وطأها دونما عرج، رضي الله عنه.

كما أن مبدأ النوعية قد توافر في الخطاب بحيث لم يفرض المخاطَب نفسه أو رأيه في أن يلزمه بالنوافل مع أنه، صلى الله عليه وسلم، كان يقيم الليل كله حبا في الإكثار من الطاعة والنفل، كما أعطى المستمع فرصة للإجابة بالقبول أو الرفض، وأشعره كذلك بالارتياح والسرور بقوله (نعم) لتكتمل بذلك عناصر مبدأ التعاون في الحديث.

كما أنه لم يغب في الخطاب كذلك مبدأ الأهمية والذي تحقق في المساهمة المفيدة من حيث المعلومات المناسبة في الحوار المطروح دون زيادة أو غموض.

الحديث الرابع:

عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: **لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت.** ثم قال: **ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا** : ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ حتى إذا بلغ: ﴿**يعملون**﴾ ثم قال: **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟** قلت: بلى يا رسول الله، قال: **رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**، ثم قال: **ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟** قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه

وقال: **كف عليك هذا**، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟**

معيار الوحدة الموضوعية:

سبب ورود الحديث يبين لنا معيار الوحدة الموضوعية وهو أن معاذا، رضي الله عنه، يروي لنا «بينما نحن نخرج مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك وقد أصابنا الحر، فتفرق القوم، فإذا رسول الله، صلى الله عليه و سلم، أقربهم مني، فدنوت منه، وقلت: (أخبرني بعمل يدخلني الجنة)»[52] فالطريق إلى تبوك كان شاقا وطويلا، والسير مضنيا، والحر يلفح الوجوه، والجيش الإسلامي يتلقى كل هذه الصعاب ويذللها، ومع ذلك يحرص هذا الصحابي على معرفة ما يدخل جنات الفردوس، ويباعد عن أبواب جهنم، فكل جملة من جمل هذا الحديث جاءت في شكل هندسي متكامل خادمة للموضوع.

الإحالة:

الضمير	العدد	الكلمات التي ورد بها
هـ	13	إنه ليسير، يسره الله، عليه، جنوبهم، وعموده سنامه، عموده، وسنامه، وذلك كله، لسانه، وجوههم، مناخرهم، ألسنتهم.
ت	5	قلت يا رسول الله، سألت، قلت بلى، قلت يانبي الله.
ك	5	ألا أدلك؟ ألا أخبرك؟ ألا أخبرك؟ كف عليك، ثكلتك

بلغت الإحالة في الخطاب (23) ثلاثا وعشرين إحالة دلالة على تحقيق هذا المعيار.

الربط:

حروف العطف	عددها	الكلمات التي ورد بها
و	12	وإنه ليسير، وتقيم، وتصوم، وتؤتي، وتحج، والصدقة، وصلاة الرجل، وعموده، وذرة سنامه، وعموده، وذروة سنامه، وإنا لمؤاخذون، وهل يكب.
ثم	2	ثم قال، ثم تلا.
ف	4	في جوف، فأخذ، فقال، في النار.
م	1	كما يطفئ.
على	2	على وجوههم، على مناخرهم،
عن	1	عن المضاجع،
ب	1	بما نتكلم.

بلغت أدوات الربط ثلاثا وعشرين أداة تحقيقا لمعايير تحليل الخطاب ووفق دلالة الحال.

الإبدال: استخدم عبارة (ألا أخبرك) مرتين ، بدلا من (ألا أدلك) كما استخدم عبارة (رأس الأمر) بدلا من (لا تشرك)و يعني برأس الأمر الشهادتين، وهو من باب التشبيه المقلوب إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر؛ ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه[53].

الحذف: حذف الفاعل في (تعبد، لا تشرك، وتقيم، وتؤتي، وتصوم، وتحج، يدخل يباعد، أدلك، أخبرك، تطفئ، بلغ، فأخذ، كُف، نتكلم) كما حذف جواب الاستفهام في (ألا أخبرك) وتقديره (بلى يا رسول الله).

الترادف والتكرار:

أولا: تكرر في هذا الحديث لفظ (الصلاة) ثلاث مرات كما يلي:

1 - وتقيم الصلاة: والمقصود منها الصلاة المفروضة.

2 - وصلاة الرجل: والمقصود منها النافلة.

3 - وعموده الصلاة: والمقصود منها هنا أن الذي تقدم من أعمال الخير كله يمثل بيتا مكتمل الأركان إلا أن عموده إقامة الصلاة.

ثانياً: تكرر لفظ (الصوم) مرتين: مرة بمعني الفرض (وتصوم رمضان) ومرة بمعنى إذا أردت يا معاذ أن يأتي الصوم مفعوله كاملا وثماره كذلك فاعتبره (جنة) وقاية وسترة لك في الدنيا من المعاصي وفي الآخرة من النار.

ثالثا: تكرار وترادف في لفظ(الزكاة) مرة بمعني الزكاة المفروضة. وإعلانها، ومرة بمعنى الإنفاق في الخفاء (والصدقة تطفئ الخطيئة) وقد أفاد التكرار هنا بيان أثر تلك الأركان على الفرد والجماعة.

العبارات المتوازية: عموده، ذروة سنامه، عموده، وذروة سنامه، ملاك ذلك كله، وجوههم، مناخرهم، ألسنتهم.

معيار الفعل الكلامي:

1 - الفعل الصوتي: وقد تحقق في عبارة (ألا أدلك، ألا أخبرك، ثكلتك أمك).

2 - أثر الفعل الصوتي على السامع: وقد تمثل في الاختزال الصوتي وهو جواب الاستفهام (بلى يا رسول الله).

3 - الفعل المقصود من القول أو التفوه:

مبدأ النوعية:

قد تحقق هذا المبدأ في أن المخاطَب كان يجيب ومعتقدا صحة ما يقول، وله القدرة على إثبات ذلك بالأدلة والبراهين، ثم يطرح سؤالا علي المخاطِب(ألا أدلك ؟، ألا أخبرك؟) مستفهما أيها عن الاستزادة، فيجيبه المخاطِب اختزالا (بلى) ثم يتكرر هذا الشكل من الحوار حتى نهايته، لينتفي بذلك فرض الرأي والنفس على المخاطب وعدم الإلزام، كما استوفى المخاطب فرصته كاملة في القبول أو الرفض، وقد وضح الارتياح والسرور منه في جوابه المحذوف فصاحة (ياحبذا).

مبدأ الأهمية:

قد توافر هذا المبدأ في الخطاب النبوي فقدمت المساهمة في الحوار بمعلومات صادقة وكثيرة ومتنوعة بناء على الدلالة المقامية والتي استشفها متلقي الحوار من حال السائل وهي كما مرَّ في سياق الحديث وسبب وروده تتمثل فيما يلي:

- السائل واحد من الذين خرجوا في غزوة تبوك.
- حالة الطقس في هذه المنطقة شمس محرقة تلفح الوجوه، وأرض مرمضة، وسماء كالحة.
- السفر مضن وشاق.
- المسافة بعيدة.
- الجيش الإسلامي يحاول تذليل كل هذه الصعاب.
- يتفرق القوم أو الجنود برهة من الزمن .
- يحظى السائل بأن أقرب القوم إليه النبي، صلى الله عليه وسلم، فيدنو منه فيسأله.

إن السؤال في هذه اللحظات الحرجة ليدل دلالة بينة على تلهف السائل لمعرفة أصول الدين، والعشق والهيام ليكون من أصحاب الجنة

المقربين، وكلاهما قد أمرضه، وأسقمه، وأحرقه، فجاءت المساهمة في الحوار مفيدة من حيث صدق المعلومات وبقدَر من حيث عددها وتنوعها فرضا ونفلا،ومتناسبة مع هدف الحوار، وهذا ما قصدنا إبرازه في هذه الصفحات.

الخاتمـة:

الحمد للّه بدءاً وختما على توفيقه وعونه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه في ختام هذه المحاولة التي قصدت منها إبراز معايير تحليل الخطاب، وتطبيقها على الحديث النبوي الشريف، وهو مسلك وعر عزت عليَّ فيه المراجع التطبيقية نظرا لحداثة التجربة أولاً، ومنشئية العلم الغربية ثانيا. فقد اتبعت في تطبيق تلك المعايير المنهج الوصفي التحليلي بعد رسم هيكلته، ومباحثه ومطالبه، راجيا من اللّه تعالى أن أبلغ أملي في خدمة حديث رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، وفق منهج مأمون من الزيغ وتحريف الكلم.

وقد توصل البحث إلى نتائج وتوصيات من أهمها:

* إن معيار مبدأ التعاون في الحديث بأقسامه الأربعة من صدق المتحدث،واعتقاده صحة ما يقول والبرهنة عليه، وما يقدمه من معلومات صحيحة وخادمة لهدف الحوار، والتناسب بين موضوع السائل أو المحاور من مفردات وجمل المتحدث من حيث الموضوع، وتجنب الغموض واللبس مع الإيجاز وبلوغ مقصود القول دون كلفة، يعد ملازما للحديث النبوي ملازمة الظل للإنسان.

* كما أن مجموع أصواته، عليه الصلاة والسلام، كانت تقابل بالترحيب والرضا والتنفيذ فور سماعها من الصحابة دونما تردد في كل الأحوال دون استثناء، وتحقيق هذا المعيار بهذا الشكل لم يتحقق في خطاب بشري سوى الحديث الشريف.

* إن معايير تحليل الخطاب التي أوجدها علماء اللغة الغربيون تنطبق على الخطاب النبوي مع الفرق الزمني البعيد؛ إلا أنه يقف شامخا مع أحدث نظريات علم اللغة الحديث.

* من الأسباب القوية للاتجاه نحو النص عند علماء اللسانيات؛ هو أن نحو الجملة أهمل السياق الاجتماعي وهو ذو أهمية كبرى في الدراسات اللغوية الحديثة

* إن الخطاب يساوي النص زائد ظروف الإنتاج. والنص يساوي الخطاب ناقص ظروف الإنتاج،

* إن الاختلاف بين النص والخطاب صوري نتج من اختلاف المدارس المسمِّية لا أكثر، فالدوال مختلفة والمدلول واحد.

* يوصي الباحث بدراسة النظريات الغربية في علم اللغة،وخاصة نظرية تحليل الخطاب والإفادة منها بتطبيقها على نصوص السنة، إبرازا لِعلوِّ الخطاب النبوي أولا، وصلى اللّه ربي وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وسلم.

الهوامش

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس مادة (خزل).

(2) انظر: تاج العروس، وكتاب العين للخليل مادة (خزل).

(3) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري باب (رجم الحبيل من الزنا) 24/7.

(4) ديوان الأعشى، ميمون بن قيس، شرح مهدي محمد ناصر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط 3، 2003م، ص 131.

(5) سنن الترمزي حديث رقم 297، باب (ما جاء أن حذف السلام سنة) 93/2.

(6) نفسه.

(7) الخصائص، لابن جني 48/1.

(8) دلائل الاعجاز، للجرجاني 146/1.

(9) الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية - النظرية اللسانية ميشال زكريا بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 1983م ، ص 28.

(10) دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن، د. صلاح الدين صالح حسنين، دار العلوم الرياض، ط 1، 1984م، ص 27.

(11) الألسنية (علم اللغة الحديث) ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط 2، 1985م، ص 260.

(12) تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، د. صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1989م، ص 66.

(13) مباحث في اللسانيات أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1999م، ص 118.

(14) نفسه، ص 188.

(15) نظام الارتباط والربط في الجملة العربية، مصطفى حميدة القاهرة، دار نوبار للطباعة، ط 1، 1997م، ص 17.

(16) الخصا ئص لابن جني 65/1.

(17) الخصائص 83/1.

(18) أدب الكاتب لابن قتيبة، ص 182.

(19) السمات التفريعية للفعل في البنية التركيبية مقاربة لسانية دكتور أحمد حساني الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1993، ص 82-83.

(20) لسان العرب مادة (خطب).

(21) أساس البلاغة للزمخشري مادة (خطب).

(22) نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل والعصر عصام أحمد البشير، ط 1، 2008م، منتدى النهضة والتواصل الحضاري، ص 10.

(23) نحو خطاب إسلامي، ص 9.

(24) نحو خطا إسلامي، ص 9.

(25) بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة، هاشم ميرغني شركة مطابع السودان للعملة المحدودة ط 1، 2008م، ص 28.

(26) الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في البنية والوظيفة والنمط، أحمد المتوكل، ط 1، الدار العربية للعلوم، ناشرون دار الأمان بالرباط، منشورات الاختلاف. ص 24.

(27) لغة الخطاب الدعوي،بشير عبد الله المساري (كتاب الأمة) العدد 143 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة ط 2، 2011م ص 23.

(28) الخطاب، سارة ميلزة، ترجمة يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات جامعة متنوري قسنطية، 2004م، ص 25.

(29) مقدمة في اللغويات المعاصرة، شحدة فارع وآخرون ط 1، 200م ، دار وائل للطباعة والنشر، ص 199.

(30) مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعية، الإسكندرية 2000م، ص 354 ومابعدها.

(31) مقدمة في اللغويات المعاصرة شحدة فارع وآخرون ص 200، 201.

(32) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ط 2، 2007م، ص 17.

(33) لسانيات النص، ص 19.

(34) شحدة فارع وآخرون، ص 203.

(35) نفسه، ص 204.

(36) انظر شحدة فارع من، ص 2004-2013.

(37) انظر القاموس المحيط ولسان العرب وأساس البلاغة وتاج العروس مادة (نصص).

(38) انظر مبادئ في اللسانيات خولة طالب الإبراهيمي – دار القصبة للنشر 197 – الجزائر 2000، ط 2.

(39) مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية – د. سعد مصلوح. قراءة جديدة لتراثنا النقدي، النادي الأدبي الثقافي – جدة 2، 1980م.

(40) تحليل الخطاب الروائي – الزمن، السرد، التبئير، سعيد يقطين، بيروت المركز الثقافي العربي ط 1، 1989م، ص 17.

(41) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق – عدنان بن ذريل – اتحاد الكتاب العرب 2000م – ص 54.

(42) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر ط 1، 1997م، ص 107.

(43) مدخل إلى علم النص و مجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي ط 1، 2008م، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم، ص 47.

(44) شحدة فارع وآخرون، ص 199.

(45) الخطاب، سارة ميلزة، ص 2، 3.

(46) الصبيحي، ص 73.

(47) النص والخطاب والاتصال، محمد العيد ط 1، القاهرة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي 2005م، ص 7.

(48) فتح الباري 11/1.

(49) فتح البارئ 41/6.

(50) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد 37.

(51) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد 37.

(52) تحفة الأحوذي 305/7.

(53) تحفة الأحوذي 305/7.

التحويل بإعادة ترتيب عناصر الجملة في شعر الفرزدق
دراسة في ضوء نظرية تشومسكي

إحسان عثمان محمد الطيب(*)

المقدمــة:

شرَّف الله اللغة العربية وخصها بالعديد من الميزات لأنها لغة القرآن، وهي إلى ذلك تمتاز بتنظيم تركيبي، جعل نظامها اللغوي فريداً من نوعه. ولقد تعددت مباحثها وفروعها وتناولها العلماء كلٌّ حسب رؤيته وأهدافه، فمنهم من تناول هذه المباحث من الجانب النحوي أو الجانب البلاغي. وتعد ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر المهمة في اللغة العربية، وصارت من الموضوعات التي نالت حظاً وافراً من قبل النحويين والبلاغيين الذين أولوها اهتماماً زائداً، لشرف اللغة التي يدرسون نظامها وتراكيبها. ولما كانت الجمل يستقيم بها الكلام فإن الوقوف على أنواعها وبنائها من الأمور المهمة التي يجب على كل باحث الوقوف عليها والاهتمام بها.

ولأن الشعر يمثل مجالاً و اسعاً لدراسة الجمل، انصبت الدراسة في هذا البحث على شعر الفرزدق، للوقوف على ظاهرة التقديم والتأخير عنده لأنه كثيراً ما كان يخرج عن نظام الجملة في العربية

(*) كلية العلوم والآداب - جامعة الباحة - السعودية.

فيقدِّم ويؤخِّر عناية واهتماماً بالمقدم، وأحيانا لطلب إظهار المعاني في النفس مما يؤدي إلى التعقيد المعنوي عنده. وسيتم البحث في إطار النظرية (التوليدية التحويلية) عند تشومسكي والتي تناول فيها التقديم والتأخير والذي اسماه في نظريته باسم التحويل بإعادة الترتيب لمكونات الجملة[1]. وذلك عن طريق إيراد أمثلة من شعر الفرزدق مبينة فيها البناءين الباطن والظاهر.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1 – التعمق في دراسة ظاهرة التقديم والتأخير عند الفرزدق.

2 – تحليل النماذج الشعرية الموضحة لظاهرة إعادة ترتيب العناصر البنائية للجملة .

3 – توضيح المعاني الدلالية التي تعكسها ظاهرة إعادة الترتيب للنموذج وبيان العلاقة بين التركيب والدلالة في النظام اللغوي للعربية.

أسباب اختيار البحث:

1 – قمت بدراسة شعر الفرزدق في بحثي للدكتوراه، ولاحظت أنه كثيراً ما كان يخرج عن نظام الجملة العربية، فيقدّم ويؤخّر لأسباب يقتضيها وزن البيت ومتطلبات تجسيد المعنى بالتركيز والإبراز للعنصر البنائي المقدّم في ضوء السياق الذي وردت فيه؛ ولذلك حاولت أن أخصص هذا البحث لأتناول فيه هذه الظاهرة موضحة أن التقديم والتأخير لايكون إلاّ لأمور تقتضيها متطلبات المعنى.

2 – نظرية تشومسكي من النظريات اللغوية التي تستحق العناية والاهتمام من الباحثين؛ لسعة انتشارها، وقربها من الفكر اللغوي العربي.

منهج البحث:

المنهج المتبع في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الدراسات السابقة:

1 – أثر عناصر البناء الظاهر للجملة في التفسير الدلالي من خلال القراءات القرآنية،.لبكري محمد الحاج،دار جامعة أمدرمان الإسلامية 1996م .ومطابع العملة السودانية 2009م.

2 – رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في اللغة العربية في ضوء علم اللغة المعاصر:خليل عمايرة المجلة العربية للعلوم الإنسانية الكويت، العدد 8 المجلد الثاني 1982.

هيكل البحث:

اقتضى تصميم البحث أن يشتمل على: مقدمة، ومحورين، تتلوهما خاتمة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

المحور الأول: تمهيد.

– التقديم والتأخير عند علماء العربية من النحاة والبلاغيين.

– التعريف بالنظرية التوليدية ومؤسسها.

المحور الثاني: التقديم والتأخير عند الفرزدق وقمت بتقسيمه إلى الآتي:

1 – **التقديم في الجملة الاسمية:**

أولاً: تقديم المبتدأ وتأخير الخبر مع تحليل النماذج الشعرية التي وردت فيها الشواهد.

ثانياً: تقديم الخبر على المبتدأ مع تحليل النماذج الشعرية التي وردت فيها الشواهد.

1 - التقديم في الجملة الفعلية.

أولاً: تقديم الفاعل على الفعل.

ثانياً: تقديم المفعول به على الفاعل والفعل.

ثالثاُ: متعلقات الفعل.

الخاتمـة.

المحور الأول : التمهيد:

الجملة العربية إمّا فعلية وإمّا اسمية، فإذا كانت فعلية فترتيب عناصرها واضح، فالفعل هو المقدم في الترتيب على الأصل. أمّا إذا كانت اسمية واستوى طرفا الجملة وكانا معرفين معاً، فقد اختلف في أيهما :يمكن أن تصدر به الجملة، وأيّهما تجعله خبراً، فأمّا النحويون فقد أوضحوا أنّ الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، ويعربون المقدم مبتدأ والمؤخّر خبراً، «لكن البلاغيين بحثوا الأمر بحثاً فكرياً منطقياً، ناظرين الى حال المخاطب ، وما هو الأعرف لديه من ركني الإسناد اللذين هما من المعارف»(2).

يقول (عمايرة): «إنّ التقديم والتأخير يعد من أبرز عناصر التحويل، وأكثرها وضوحاً، لأنَّ المتكلم يعمد الى مورفيم حقه التأخير... فيقدمه، أو إلى ما حقه التقديم فيؤخره، طلباً لإظهار المعاني في النفس»(3).

وقد أشار سيبويه الى أهمية التقديم والتأخير، ودوره في المعنى، حيث يقول: «وإن قدمّت المفعول، وأخرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك كقولك: (ضرب زيداً عبدالله)، لأنّك إنما أردت به مؤخراً، ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان إنّما يقدمون الذي ببيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنياهم»(4).

فعبدالقاهر الجرجاني نظر الى التقديم والتأخير نظرة أسلوبية تعبيرية[5].

وفي موضع آخر يقول: «إنّ التقديم والتأخير، يكون لعلل لغوية يقضيها ترتيب معاني الكلام، وكل صورة من هذه الصور، تدل على معنى معين، وتصور صورة ذهنية لا تتعداها الى غيرها، وذلك لانّ التقديم والتأخير، لا يأتيان للاهتمام والعناية فحسب، بل يأتيان لتحديد المعاني وضبطها»[6].

أمّا ابن جني فيرى «أنّ التقديم والتأخير يأتي على ضربين أحدهما:

- ما يقبله القياس.

والآخر: ما يسهله الاضطرار.

فالأول كتقديم المفعول به على الفاعل تارة، وعلى الأفعال الناصية تارة أخري كـ (ضرب زيداً عمرو)، وكذلك الظرف نحو: (قام عندك زيدٌ)، (وعندك قام زيدٌ) وكذلك الحال نحو: (جاء ضاحكاً زيدٌ) (وعندك قام زيدٌ) وكذلك الاستثناء نحو: (ما قام إلاّ زيداً أحد) ومما يجوز ويصح تقديمه خبر المبتدأ على المبتدأ نحو: (في الدار صاحبك)، وكذلك خبر كان وأخواتها على أسمائها وعليها أنفسها، وكذلك خبر ليس»[7].

وهناك العديد من الأسباب والدواعي لتقديم المسند إليه على المسند لعل السبب المقدم عليها جميعاً أنّ ذكره أهم من ذكر غيره، قال سيبويه: «وإن قدّمت الاسم فهو عربي جيّد، كما كان ذلك عربياً جيّد وذلك كقولك: (زيداً ضربتُ)، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء، مثله في: (ضرب زيدٌ عمراً) (وضرب عمراً زيدٌ)»[8].

1 - قد يقدّم المسند إليه بغرض تخصيصه بالخبر الفعلي، وقصر هذا الخبر عليه[9].

وإما لأنّ في تقديمه تشويقاً للسامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أورده ....[10].

ولقد اتفق علماء النحو والبلاغة في الإشارة إلى أهم الأغراض في تقديم المسند إليه من حيث كونه الأهم فلذلك يتم تقديمه. ومن الذين اهتموا بهذه الظاهرة كظاهرة لغوية من غير علماء العربية نجد «العالم الأمريكي(تشومكسي) الذي يعد أحد العلماء الذين كانت لهم آثارهم اللغوية في الغرب، ويعتبر كتابه (التراكيب النحوية)، النواة الأولى للنظرية (التوليدية التحويلية)، والذي نشر عام (1957م)»[11]. «فهو في كتابه هذا يؤكد استقلال علم اللغة (الألسنية الحديثة) استقلالاً تاماً عن غيره من العلوم الأخرى، على الرغم مما يوجد من الصلات الوثيقة بينه وبين العلوم الأخرى كالمنطق والفلسفة، والرياضيات»[12]. «ويعتبر (تشومسكي) مؤسس النظرية (التوليدية التحويلية) التي هي حالياً أكثر النظريات الألسنية انتشاراً، ليس فقط في الجامعات الأمريكية، إنّما أيضاً في الجامعات الأوربية»[13].

«تقوم النظرية التوليدية التحويلية على اعتبار مبدأين كبيرين لهما وجود في اللغات الإنسانية كافة هما:

1 – التوليد : (Generation).

2 – التحويل: (Transformation) وبهما سميت هذه النظرية»[14].

«فالتوليد هو : انبثاق تركيب أو مجموعة من التراكيب من جملة هي الأصل وتسمى الجملة الأصل بالجملة التوليدية، وتتكون من عدد من الكلمات تؤدي معنى مفيداً .

أمّا التحويل: فيجري باشتقاق جملة أو مجموعة جمل من جملة تسمى الجملة النواة»[15]. فمبدأ التحويل عند تشومسكي: أنّ الجملة الواحدة يمكن أن تتحول إلى عدد كبير من الجمل، فقد تتحول الجملة

الخبرية إلى استفهامية، من استفهام تصديقي إلى جميع أنواع الاستفهام (تصوري للزمان)، (تصوري للمكان)، تصوري للهيئة (تصوري للذات) ويصبح التحويل باباً مفتوحاً على مصراعيه للنفي، والتأكيد والبناء للمجهول، والعطف، والزيادة والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الموضوعات»[16].

«وقد فصلت النظرية النموذجية بين البناءين الباطن والظاهر، للجملة بطريقة واضحة ، وأكدت على أنّ المعلومات المتعلقة بفهم الجملة، توجد في البناء الباطن، وأدخلت عنصرين تفسيريين هما: العنصر الدلالي: الذي يعطي التفسير الدلالي للجملة، والعنصر الفونولوجي، الذي يعطي الصورة المنطوقة لها أو المكتوبة.

ويتم تحويل البناء الباطن إلى بناء ظاهر في نظرية تشومسكي بواسطة ما يعرف باسم القواعد التحويلية (transformational rules) ويؤدي هذا التحويل إلى حدوث تغييرات في البناء الباطن عند تحويله الى بناء ظاهر تمثل أهمها في التحويل عن طريق:

1 - إعادة الترتيب .

2 - الحذف .

3 - الزيادة .

4 - الاستبدال»[17].

المحور الثاني: التقديم والتأخير: وقمت بتقسيمه إلى الآتي:

التقديم في الجملة الاسمية ويشتمل على:

أولاً: تقديم المبتدأ وتأخير الخبر:

«الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لأنّ الخبر وصف في المعنى للمبتدأ فاستحق التأخير كالوصف»[18].

وهناك مواضع يجب فيها تأخير الخبر هي:

الأول: أن يكون كلٌ من المبتدأ والخبر معرفة، أو نكرة صالحة لجعلها مبتدأ.

الثاني: أن يكون الخبر فعلاً رافعاً لضمير المبتدأ مستتراً.

الثالث: أن يكون الخبر محصوراً بإنَّما.

الرابع: أن يكون خبر المبتدأ دخلت عليه لام الابتداء.

الخامس: أن يكون المبتدأ له صدر الكلام، كأسماء الاستفهام»[19].

وستتناول الباحثة أنماط تقديم المبتدأ وتأخير الخبر من خلال مادة البحث كما يلي:

النموذج الأول: أن يكون كلٌ من المبتدأ والخبر معرفة أو نكرة.

قال الفرزدق[20]:

(عميرٌ أبوهم) ذو المساعي وجدُهم ضبيعة ضّراب الطلى والجماجم

هـم الهامةُ العلياءُ من آل وائـل وفرسانُها في المأزق المتلاحم

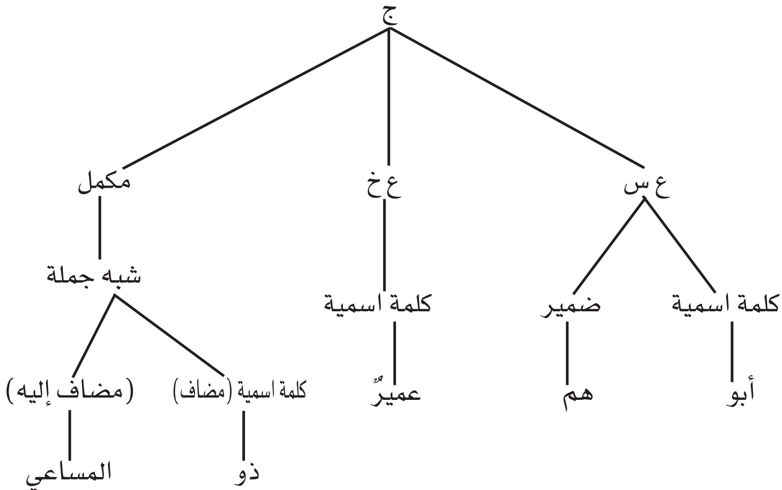
هذان البيتان من قصيدة له بعنوان (نعم تراث المرء) يمدح فيها عمير بن ضبيعة أحد بني رقاش و يخاطب فيها بني ضبيعة ويقول لهم: «افخروا بفعال أبيكم عمير، لأنكم أصبحتم من أهل المكارم، والشرف، والمجد الذي بني على المآثر وعلى دعائم راسخة»[21].

والبيت الأول يتكون صدره من مبتدأ وخبر (عميرٌ أبوهُم) حيث المبتدأ هو (عميرٌ) والخبر (أبوهم)، فتساوى كل من المبتدأ والخبر في التعريف، ولذلك كان للمبتدأ حق الصدارة في الجملة وذلك لأنّ كلا من المبتدأ والخبر يصلح أن يكون مبتدأ أو يكون خبراً لاستوائهما في التعريف.

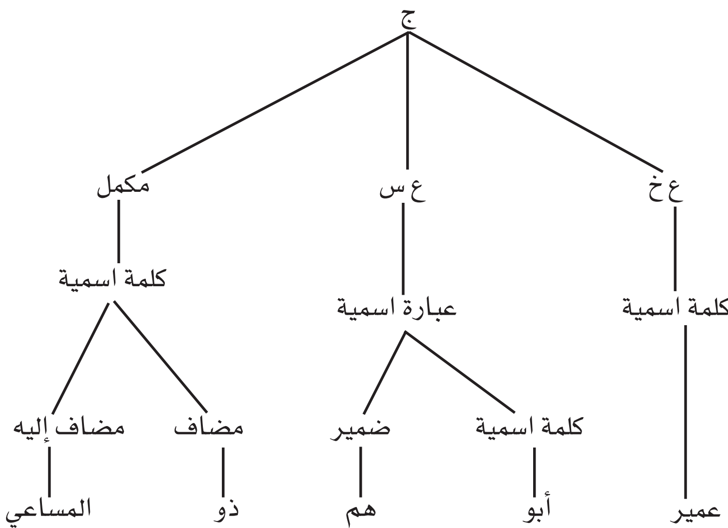
فالفرزدق كثر لديه ارتباط الأبيات مع بعضها البعض من حيث المعنى، وهذا ما يسميه العروضيون بالتضمين، وما ذلك إلاّ بسبب

حرصه على التدقيق في المعاني وتقييدها، فيقع في شعره كثيراً بين المبتدأ والخبر، كما ظهر ذلك في البيتين السابقين ونقوم بتحليل البيت الأول من خلال المشجرين الآتيين:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:

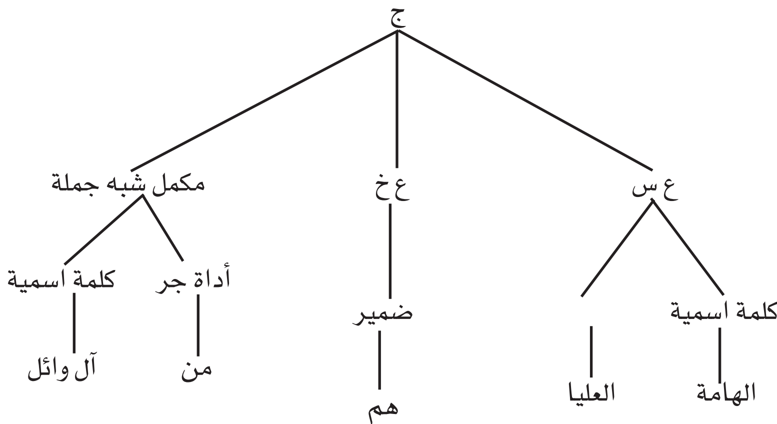


ومن خلال المشجرين يتضح لنا أنّ المبتدأ (عميرٌ) والخبر (أبوهم) تساويا في التعريف لانّ الخبر تعرف بالإضافة وذلك عندما تم تحويل البناء الباطن إلى بناء ظاهر. «وهو من المواضع التي يجب فيها تقديم المبتدأ على الخبر، إذا كان كل من المبتدأ والخبر معرفة صالحة لجعلها مبتدأ أو خبراً كما أشار بذلك علماء النحو»[22].

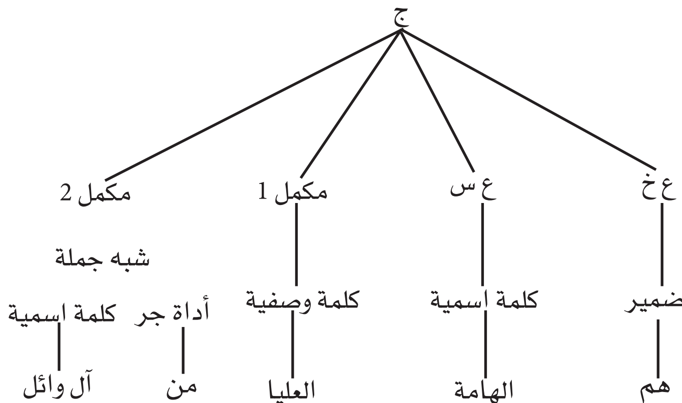
تحليل البيت الثاني:

(هم الهامة العليا من آل وائل وفرسانها في المأزق المتلاحم)

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وعند تحويل البناء الباطن إلى بناء ظاهر اتضح لنا أنه تساوى كل من المبتدأ والخبر في المعرفة، وهي المواضع التي يجب فيها تقديم المبتدأ، والمبتدأ ضمير كما يقع المبتدأ اسماً ظاهرًا.

النموذج الثاني: الخبر جملة فعلية.

قال الفرزدق[23]:

وأطلـس عسّـال وما كان صاحـباً

دعوت بنـاري موهناً فأتــاني

نزلنا بها (والثغرُ يخشى انخرا قه)

بشعث على شعث وكل حصـانِ

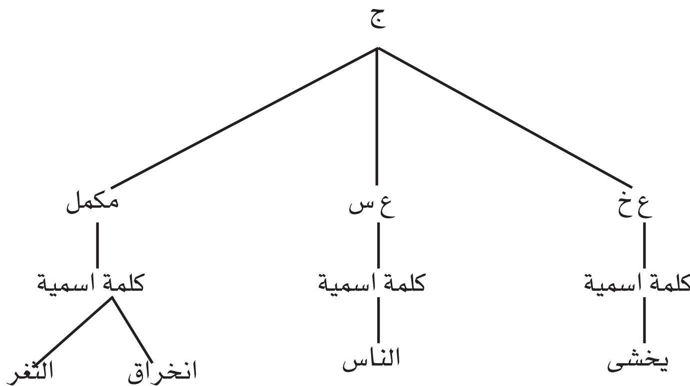
هذان بيتان من قصيدة له بعنوان: «(الفرزدق والذئب) مطلعها (وأطلس عسّال وما كان صاحباً)»[24].

يقول الفرزدق: «إنه خرج في نفر من الكوفة يريد يزيد بن المهلب فلما عرسوا آخر الليل عند الغربيين، وعلى بعير لهم مسلوخة كان اجتزرها، ثم أعجله المسير فسار بها فجاء الذئب فحركها وهي مربوطة على بعير، فذعرت الإبل، وجفلت الركاب منه، وثار الفرزدق فأبصر الذئب ينهشها فقطع رجل الشاة فرمى بها إلى الذئب ، فأخذها وتنحى ثم عاد فقطع اليد فرمى بها إليه فلما أصبح القوم خبّرهم الفرزدق بما كان»[25].

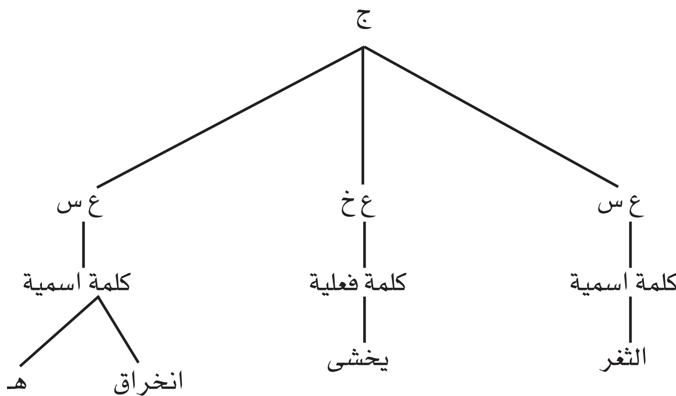
تحليل النموذج : (والثغرُ يُخشى انخراقه)

ويمكن توضيح ذلك من خلال المشجرين الآتيين:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



من خلال المشجرين السابقين يتضح لنا: أنّ خبر المبتدأ جاء جملة فعلية الفعل فعلها مضارع، (يخشى انخرا قه)، والمبتدأ هو كلمة (الثغر) تقدم فيها المبتدأ على الخبر وهو من المواضع التي يجب فيها تأخير الخبر إذا كان الخبر فعلاً رافعاً لضمير المبتدأ مستتراً.

كما نلاحظ هنا حذف المسند إليه في البناء الظاهر والذي يمثل الفاعل وحل محله نائب الفاعل (انخراقه).

ثانياً: تقديم الخبر على المبتدأ:

قال ابن مالك:

الأصل في الأخبار أن تؤّخرا وجوّزوا التقديم إذ لاضررا

يقول ابن مالك: «الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لانّ الخبر وصف في المعنى للمبتدأ فاستحق التأخير كالوصف، ويجوز تقديمه، إذا لم يحصل بذلك لبس أو نحوه. فنقول: (قائم زيدٌ،) و(قائم أبوه زيدٌ)، (وفي الدار زيدٌ)، و(عندك عمٌر)»[26].

وقد تناول نحاة العربية الترتيب الأصلي للجملة الاسمية، قال السيوطي: «الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، لانّ المبتدأ محكوم عليه، فلابد من تقديمه ليتحقق، ويجوز تأخيره حيث لا مانع[27].

وقد أشار ابن مالك الى هذه المواضع في الألفية حيث قال[28].

ونحو عندي درهمٌ ولي وطر ملتزم فيه تقدُّم الخبـر
كـذا إذا عـاد عليــه مضـمر مما به عنه مبيناً يخبر
كذا إذا يستوجب التصديـرا كأين من علمته نصيـرا
وخبـر المحصـور قـدّم أبدا كما لنا إلاّ اتباع أحمـدا

وسوف أتناول هذه المواضع من خلال أبيات من شعر الفرزدق:

أولاً: أن يكون المبتدأ نكرة، ليس لها مسوغ للابتداء إلاّ تقدّم الخبر والخبر ظرف أوجار ومجرور.

ثانياً: أن يشتمل المبتدأ على ضمير يعود على الخبر.

ثالثاً: أن يكون الخبر له صدر الكلام كأسماء الاستفهام[29].

النموذج الأول: الخبر جار ومجرور

قال الفرزدق[30]:

(لكم أثلهٌ) منها خرجتم وظلها عليكم (وفيكم نبتها) في ثرائها

البيت للشاعر يمدح فيه ذهل بن شيبان، وهو عندما يريد أن يعبر عن أصل قوم، يصفهم بالنجابة والسيادة يستخدم لفظ (أثلة) وهي نبت معروف لديهم. فالشاعر قد يقدم المسند على المسند إليه، وقد يؤخره عنه، وقد يفصل بينهما بفاصل ، وذلك لضرورة يفيدها التقديم أو التأخير، وإن دل ذلك على شي، فإنه يدل على أنّ الشاعر يريد أن يثبت صفة لممدوحه أو يزيدها جلاءً وتوكيداً.

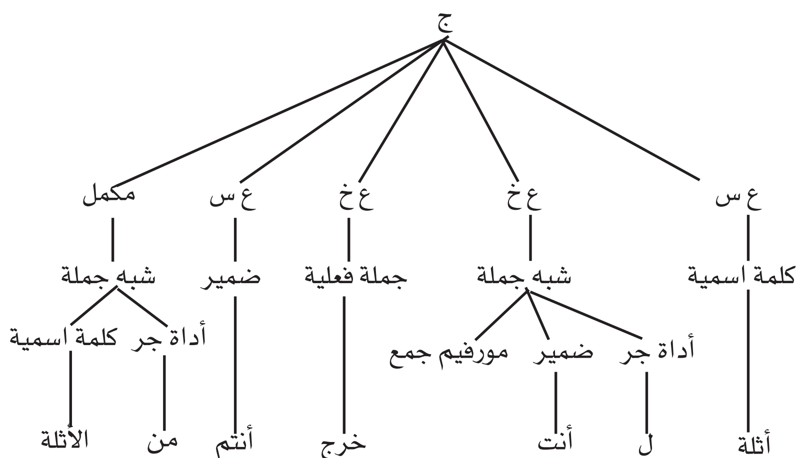
«فهنا يتحدث عن أصالة ذهل بن شيبان، فهي قبيلة من القبائل العربية وصفها بالأصالة والكرم، وطيب الأصل، حيث شبههم (بالأثلة)»[31].

«والأثلة شجر يشبه الطرفاء، إلاّ أنّه أعظم منه وأكرم وأجود عوداً، تسوى به الأقداح الصفر الجياد، ومنه اتخذ منبر النبي صلى الله عليه وسلم»[32].

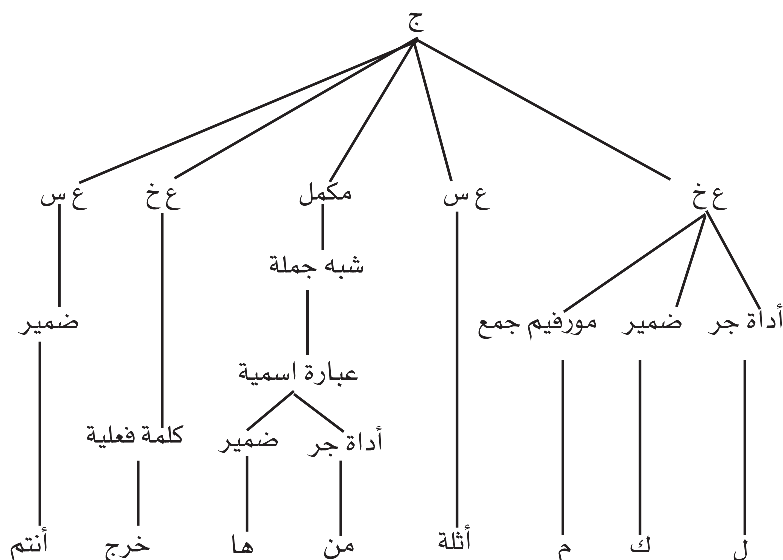
البيت في صدره جملة بسيطة وهي: (لكم أثلة) المبتدأ فيها كلمة (أثلة) نكرة وهي مبتدأ مؤخر، تقدم عليه الخبر الجار والمجرور (لكم) وهي من المواضع التي يجب فيها تقديم الخبر على المبتدأ إذا كان المبتدأ نكرة.

ويمكن توضيح ذلك من خلال المشجرين الآتيين:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين الباطن والظاهر يتضح لنا أنّ خبر المبتدأ شبه الجملة تقدم على المبتدأ النكرة في البناء الظاهر، وذلك لأنه لامسوغ للابتداء بالنكرة إلاّ تقدم الخبر، ومسوغ الوصف.

وتم ذلك وفقاً لقاعدة التحويل بإعادة الترتيب، كما تم استبدال الضمير الهاء في البناء الباطن بالاسم الظاهر (الأثلة) وتم ذلك وفقاً لقاعدة التحويل بالاستبدال.

النموذج الثاني: (ب) الخبر ظرف.

قال الفرزدق(33):

سما لك شوق من نوار ودونها سويقة والدهناء وعرض جوائها

البيت من قصيدة له بعنوان: (سما لك شوق من نوار) يمدح فيها عبدالملك بن أبي عمرة الشاعر الشيباني. والنوار هي زوجة الفرزدق، وهي بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي.

والبيت يليه بيتان للشاعر يقول فيهما:

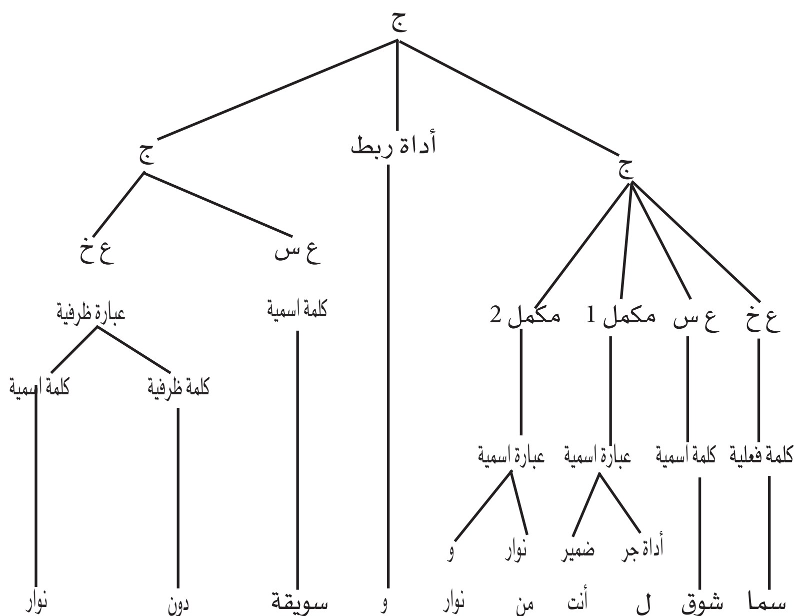
وكنت إذا تذكر نوار فإنّها لمندملات النفس تهياض دائها

وأرضٌ بها جيلان ريح مريضة يغض البصير طرفه من فضائها

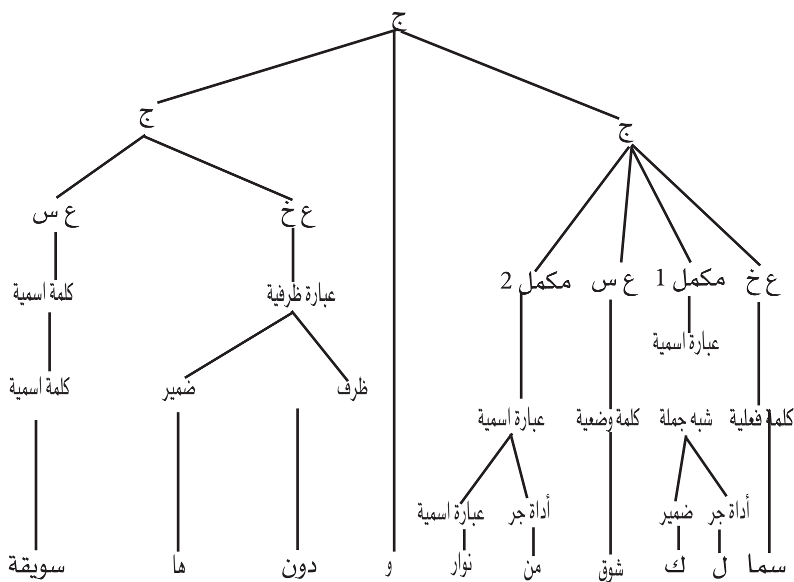
وقد بدأ الفرزدق قصيدته بالنسيب كعادة الشعراء الجاهليين، فهو يوضح في هذه الأبيات شوقه لزوجه النّوار، ويبين بعد الشقة بينهما بذكر أماكن معروفه لدى المتلقي.

فهو يقول: «إنه تاق إلى زوجته النّوار وهو يجتاز تلك المواضع المقفرة العسيرة الارتياد، وأنّه حين تذكر النّوار فإنّ نفسه تتفتح جراحها ويبعث فيها من جديد السقم الذي توهمت أنها أبلت منه»(34). ويمكن تحليل النموذج كما يلي(34):

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين الباطن والظاهر يتضح لنا، تقدم خبر المبتدأ الظرف (دون) على المبتدأ في البناء الظاهر، وتم ذلك وفقا لقاعدة التحويل بإعادة الترتيب. وكما نلاحظ من خلال البيت أنه يحتوي على جملتين بسيطتين عطفت الثانية على الأولى بأداة العطف (الواو) والجملتان هما: (سما لك شوق من نوار) والجملة الثانية (دونها سويقة).

النموذج الثالث: الخبر اسم من الأسماء التي لها الصدارة.

يتقدم خبر المبتدأ على المبتدأ إذا كان من الأسماء التي لها الصدارة كأسماء الشرط والاستفهام. ومنه قول الفرزدق[35]:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

(أين الوجوهُ الواضحاتُ) عشيةً على الباب والأيدي الطوال النوافعُ؟

البيت من قصيدة له بعنوان: (أولئك آبائي يمدح فيها قومه بالكرم)[36].

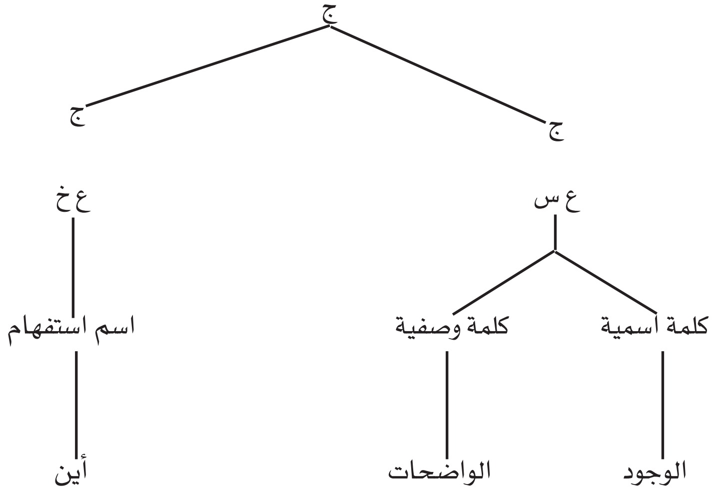
والبيت يسبقه قوله:

وأين (تقضي المالكان أمورها)؟ بحق وأين (الخافقات اللوامعُ)؟

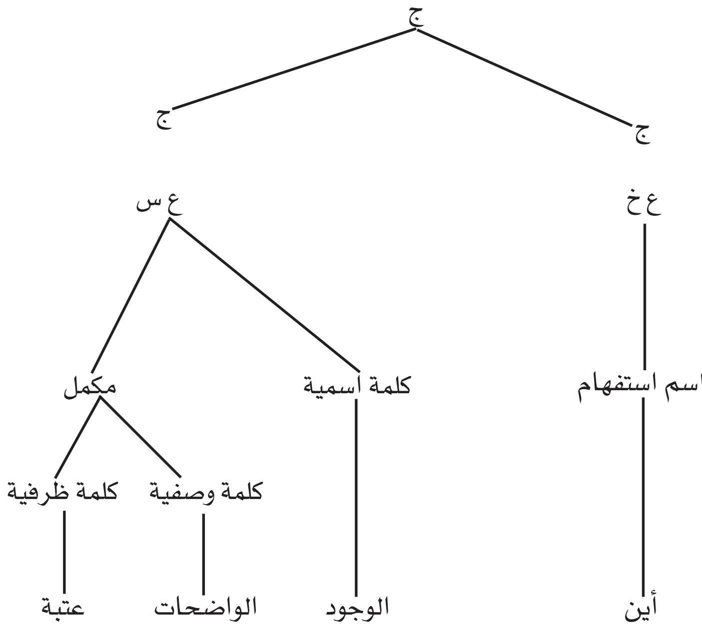
«والمالكان: هما مالك بن زيد ومالك بن حنظله. فهنا يريد أن يهجو جريراً ويظهر غباءه، ويفتخر بآبائه من خلال ذكر هذه الأسماء التي كانت مشهورة عند قبيلته»[37]. فالبيت يتكون من جملة مصدرة باسم الاستفهام (أين) وذلك لأنّ الاستفهام له صدر الكلام . وكما نجد تقدم الخبر (أين) في البيت الثاني وخبره الجملة الفعلية (تقضي المالكان أمورها) وقد استخدم الشاعر اسم الاستفهام كذلك في عجز البيت (أين الخافقات اللوامع؟) «فهو يريد أن يجد من جرير إجابة على سؤاله له، ويريد أن يثبت له كرم آبائه وأصالتهم. استهزاءً واستحقاراً به»[38].

ويمكن توضيح ذلك من خلال المشجرين الآتيين .

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا، تقدم خبر المبتدأ اسم الاستفهام في البناء الظاهر، في الطرف الأول من هذه الجملة، حين حول البناء الباطن إلى بناء ظاهر وذلك وفقا لقاعدة التحويل بإعادة الترتيب.

التقديم في الجملة الفعلية ويشتمل على:

أولاً: تقديم الفاعل على الفعل:

الفاعل هو الاسم المرفوع الذي يلي الفعل ، ولا يجوز أن يتقدم على فعله، وهذا رأي ابن جني حيث قال في باب التقديم والتأخير: «وكما لايجوز تقديم الفاعل على الفعل ، فكذلك لا يجوز تقديم ما أقيم مقام الفاعل كـ (ضُرب زيدٌ)»[39].

ووافقه في هذا الرأي. البصريون حيث قالوا: «لا يجوز تقديم الفاعل على فعله بوجهين: أحدهما: أن الفعل وفاعله كجزأين لكلمة واحدة متقدم أحدهما على الآخر وضعاً، فكما لا يجوز تقديم عجز الكلمة على صدرها لا يجوز تقديم الفاعل على فعله[40].

وثانيهما: أنّ تقديم الفاعل يوقع في اللبس بينه وبين المبتدأ وذلك أنّك إذا قلت (زيد قام) ، وكان تقديم الفاعل جائزاً لم يدر السامع أأردت الابتداء بزيد والإخبار عنه بجملة قام وفاعله المستتر، أم أردت إسناد قام المذكور إلى زيد على أنّه فاعل ، وقام حينئذ خال من الضمير»[41].

أما الكوفيون فقد أجازوا تقديم الفاعل على رافعه مع بقائه على فاعليته. واستشهدوا على ذلك بقول الزباء[42].

مال الجمال مشيها وئيدا؟ أجندلاً يحملْنَ أم حديدا؟
أم صرفاناً بارداً شديدا؟ أم الرحال جُثّما قعودا؟

فأعرب الكوفيون (كلمة مشيها) بالرفع فاعلاً مقدماً لوئيد ولعله مثال واحد أتى به الكوفيون، وذلك لأنّ رأيهم في أمر القياس كانوا

يكتفون بالشاهد ، أو الشاهدين، طالما أنّه ورد ذلك من أفواه العرب الفصحاء.

وقد يأتي تقديم الفاعل على الفعل عناية واهتماما من الشاعر للمخاطب . ومن نمط هذا التقديم عند علماء العربية ما أشار إليه ابن فارس بقوله:

«ومن سنن العرب تقديم الكلام، وهو في المعني مؤخر ، وتأخيره وهو في المعني مقدم»[43]. كقول ذي الرمة[44]: (ما بال عينيك منها الماء ينسكب؟) أراد ما بال عينيك ينسكب منها الماء؟.

ولعلماء النحو رأي في عدم تقديم الفاعل على فعله، حيث يرون أنّ الفاعل حقه التأخير عن فعله حسب نظام الجملة العربية[45].

ولعل ظاهرة تقديم الفاعل على فعله كثيرة في القرآن الكريم، وهناك كثير من الآيات ورد فيها الفاعل مقدماً، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[46]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾[47].

والمتأمل لهاتين الآيتين يجد تقدم لفظ الجلالة على الفعل في كل من الآيتين، ففي الآية الأولى تقدم لفظ الجلالة (اللّه) على الفعل المضارع (يصطفي)، وفي الآية الثانية تقدم على الفعل (خلق) والتقديم جاء هنا لغرض العناية والاهتمام والتركيز على الفاعل وهو لفظ الجلالة (اللّه) وجاء في الأصول في النحو[48] «لا يجوز أن يتقدم الفاعل على الفعل فلا يجوز أن نقول: (زيدٌ قام) في جملة (قام زيدٌ)

فترفع زيداً بقام، ويكون قام فارغا ولو جاز هذا لجاز أن نقول: (الزيدان قام) و(الزيدون قام) تريد (قام الزيدان)وقام الزيدون)».

أمّا بالنسبة للشاعر الفرزدق فكثيراً ما كان يقدّم في جمله ويؤخّر أحياناً للضرورة الشعرية، وأحياناً أخرى للعناية والاهتمام بالفاعل وتمشياً مع السياق واستجابة لتجسيد المعنى، مخالفاً بذلك أصل الجملة في العربية.

ونأخذ النموذج التالي لتقديمه للفاعل.

النموذج الأول:

قال الفرزدق[49]:

ذكرت داؤود والأشراف قد حضروا باب الأمير ففاض الدمع وانحدرا

(الله يعلم)، (والأقوام قد علموا) أنّ الصعاليك أمسى جدّهم عثرا

البيت للشاعر من قصيدة له بعنوان (ذكرت داؤود والأشراف قد حضروا)[50]. ومناسبة القصيدة لما هلك داؤود بن قحزم بني قيس بني ثعلبة، وانتهى إلى الأشراف، وهم ينتظرون الإذن على باب الأمير بالبصرة، وحمل داؤود في غداة على ألف خارج فوقف عليهم الفرزدق وقال هذا البيت».

فهو يريد أن يقول: «إنّه ذكره حين حضر الأشراف على باب الأمير فبكى وعلم أنّ الصعاليك عثر حظهم لأنّ مجيرهم قد مات (والصعاليك هم الفقراء)»[51].

بدأ الفرزدق البيت الثاني بجملة بسيطة وهي (الله يعلم) حيث قدم لفظ الجلالة (الله) على الفعل، عناية واهتماما، كما خصه بالعلم دون غيره، وهو العلم الغيبي، ولكن علم الأقوام هي شهادتهم وملاحظتهم حيث أشار إلى ذلك في عجز البيت (بأنّ الأقوام قد علموا) فعطفت

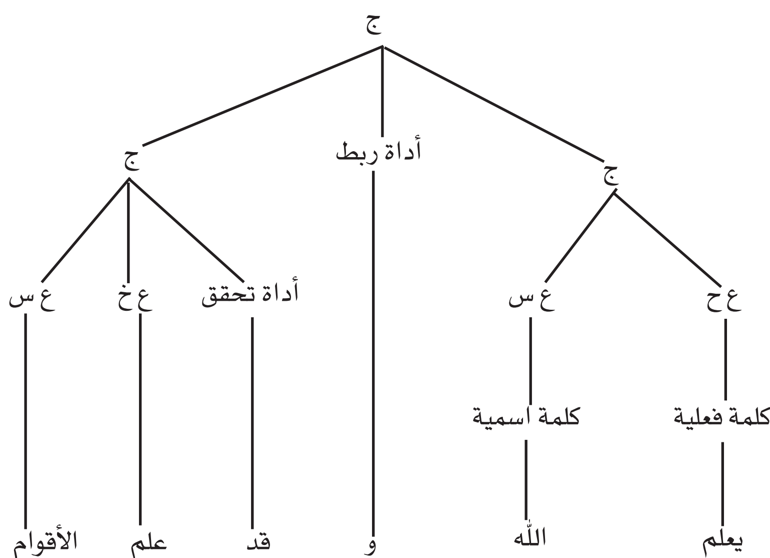
الجملة الثانية على الأولى بالواو، فهنا لم يرد الشاعر أن يشرك علم الأقوام بعلم الله ولكنه أراد أن الأقوام قد شهدت ورأت هؤلاء الفقراء يقفون على باب الأمير، ينتظرون حظهم من العطايا.

وقد فصلت الجملة الثانية بحرف التحقيق (قد) وهي تفيد مع الماضي التقريب من الحال ومعناها الرؤية[52]. كما جاء الفاعل مقدماً في جملة (والأقوام قد علموا)، وهنا يرى النحاة أنّه لا يكون في الجملة الفعلية الواحدة إلا فاعلا واحداً، وهذا هو الحكم العام بمعنى أنه إذا جاء الفعل وبعده فاعل فالأصل أن يفرد ذلك الفعل لفاعله.وقد ظهر في فصيح كلام العرب مايخالف تلك الظاهرة، فقد ظهر في قبيلة طي وبالحارث وأزد شنوءة أنهم يلحقون الفعل علامة تثنية الفاعل المثنى، وعلامة جمع للفاعل المجموع وعرفت تلك الظاهرة عند النحاة (بلغة أكلوني البراغيث) وعبّر عنها المصنف في كتبه بلغة (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) وقد استشهد ابن مالك على هذه اللغة بهذا الحديث وذلك على اعتبار أن الواو في يتعاقبون علامة جمع المذكر و(ملائكة) هو الفاعل مذكور بعد الفعل المتصل بالواو. وأول من أطلق عليها هذا المسمى إمام النحاة سيبويه وقال إنها لغة فصيحة[53]. وإذا نظرنا لإعراب جملة (والأقوام قد علموا) فنجد هنا أن الفاعل هو كلمة (الأقوام) وهو الفاعل الأول، أما (الضمير واو الجماعة) فهو فاعل ثان، ولا يصح احتواء الجملة على أكثر من فاعل واحد كما لا يصح أن يتطابق الفعل مع فاعله أو نائبه إفراداً وتثنية وجمعا وإنما هو مفرد في كل حال.

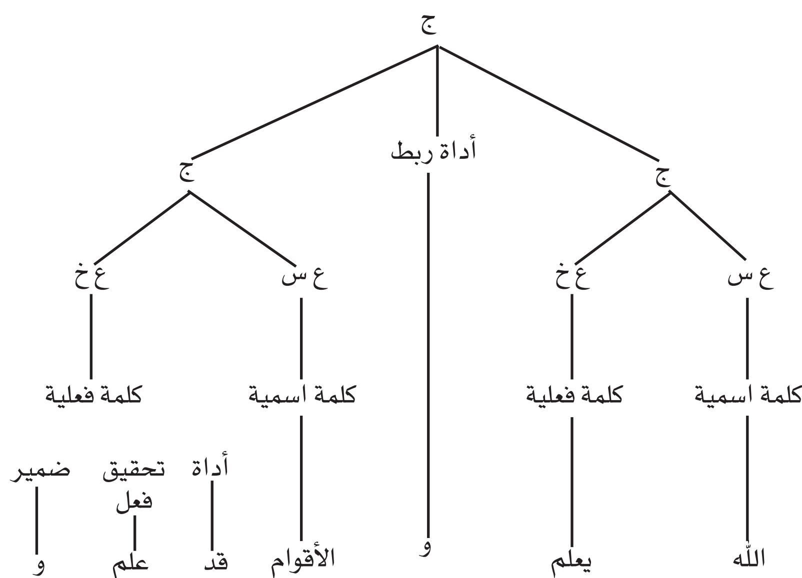
تحليل النموذج الأول:

ويمكن توضيح ذلك من خلال المشجرين الآيتين:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا تقديم المسند إليه في البناء الظاهر والذي يمثل الفاعل في الطرف الأول للجملة (اللّه) وثم هذا التقديم وفقا لقاعدة التحويل عن طريق إعادة الترتيب، كما تقدم الاسم في الطرف الثاني للجملة (الأقوام) رغم أنه فصل بينه وبين الفعل بفاصل (قد) وهذه ظاهرة كثيرة لدى الفرزدق كظاهرة التقديم والتأخير مخالفاً الأصل في بناء جمله. (وجاء نصب كلمة (باب) على نزع الخافض، فظهر كأنه مفعول به للفعل (حضر) على اعتباره بمعنى المعتدي).

النموذج الثاني:

قال الفرزدق[54]:

(وإذا الرجال رأوا) يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

البيت من قصيدة يمدح فيها الفرزدق آل المهلب بعنوان (لأمدحنّ بني المهلب).

لأمدحنّ بني المهلب مدحة غراء ظاهرة على الأشعار
مثل النجوم أمامها قمر لها يجلو الدجى ويضيء ليل الساري
ورثوا الطعان عن المهلب والقرى وخلائقاً كتدفق الأنهار

ويصف يزيد بن المهلب فيقول:

إني رأيت يزيد عند شبابه لبس التقى، ومهابة الجبار
ملك عليه مهابة الملك التقي قمر التمام به وشمس نهار
وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

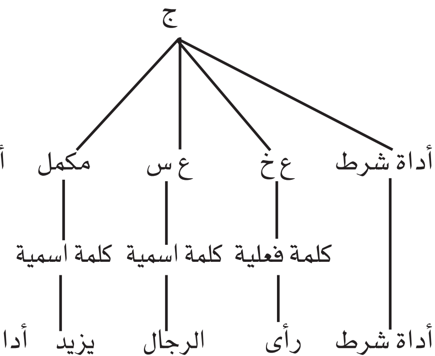
«فهنا يصف يزيد بأنه ذو مهابة موروثة عن أبيه وأمه فحين يراه الناس ينحنون تهيباً منه. وكانوا يخشونه، ولهذا استحق المدح»[55].

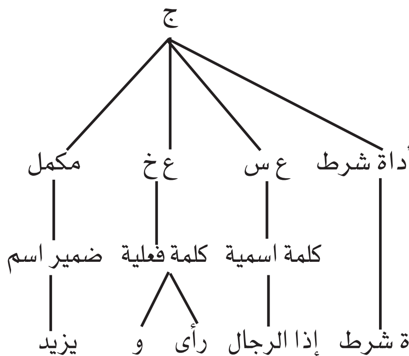
فالبيت يتكون من جملة شرطية مبدوءة بأداة الشرط إذ تقدّم فيها الاسم (الرجال) الواقع فاعلاً للفعل بعدها (رأوا) وجاء تقديمه عناية واهتماماً.

يقول أحمد الهاشمي: «من الجمع على غير قياس قوله: (نواكس) جمعاً لناكس، وهذا الوزن (فواعل) لا يطرد إلا في وصف لمؤنث عاقل. وقد ورد للمذكر في لفظين، هما: (نوارس) و(هوالك)[56].

ويمكن توضيح ذلك من خلال المشجرين الآتيين:

(أ) البناء الباطن: **(ب) البناء الظاهر:**





وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا تقدم الفاعل (الرجال) على الفعل رأى في البناء الظاهر وذلك وفقا لقاعدة التحويل عن طريق إعادة ترتيب الجملة، ولقد تمّ ذلك لأنه محل عناية الشاعر واهتمامه.

النموذج الثالث:

قال الفرزدق[57]:

إذا مالك ألقى العمامة فاحذروا   بوادر كفي مالك حين يغضب

البيت من قصيدة له بعنوان (إذا مالك ألقى العمامة فاحذروا) قاله لمالك بن المنذر بن الجارود، ويليه البيت التالي:

فإنهما إن يظلماك، ففيهما   نكال لعربان العذاب عصبصب

يقول: «في مالك بن المنذر إنه حين يلقي عمائمه متغضباً، فإنه يقتل تواً ليخاف من يراه متغضباً. والنكال: ما يجعل عبرة لمن دونه

فيقول في معنى البيت إن من يظلمه يصير عبرة لمن دونه في العذاب الشديد»[58].

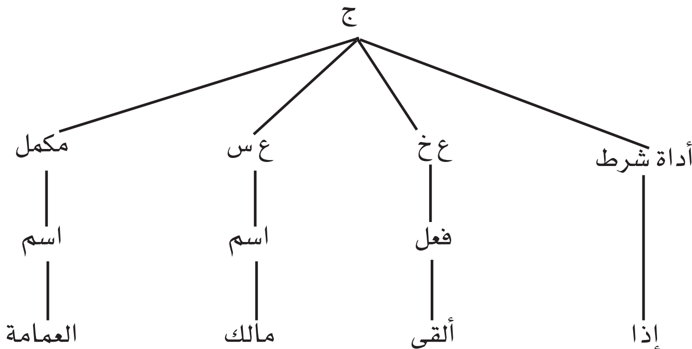
فكلمة عصبصب من الألفاظ الغريبة والتي لم تعد تستعمل إلا نـادراً، (عصبصب): مشتق من قولك عصبت الشيء إذا شددته وذكر ابن دريد (العصبصب) الشديد يقال: يوم عصبصب في الشر خاصة[59] وقد استخدمه الفرزدق صفة (نكال) وهو اسم لما يجعل عبرة للآخرين فيدفعهم إلى الخوف من إتيان الأمر، والتفكير به، وقد يكون بمعنى العقوبة أو القيد المانع، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾[60]. وسميت القيود أنكالا لأنه ينكل بها، أي يمنع بها: «وهو مأ خوذ من قولك : عصب القوم يعصبهم عصباً ، إذا ضمهم واشتد عليهم»[61].

والبيت يتكون من جملتين بسيطتين.

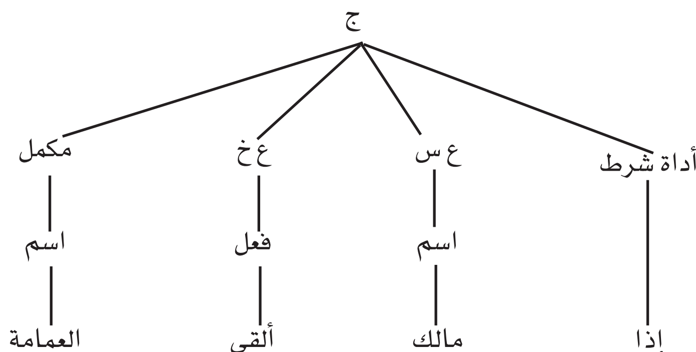
الأولـى تمثل الشرط والثانية جواباً للشرط حيث أتـى الجواب (فاحذروا) مسبوقاً بالفاء لكون الجملة طلبيه والفاء من حروف العطف.

تحليل النموذج لتوضيح ما حدث من تغيير لمكونات الجملة من حيث التقديم والتأخير.

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



ونلاحظ من خلال المشجرين أنه تمّ تقديم الاسم (مالك) والذي يمثل الفاعل للفعل (ألقى) مع أنّ رتبته التأخير، ولقد تقدم لأنه محل عناية الشاعر واهتمامه.

ثانياً: تقديم المفعول به:

المفعول به هو كل اسم منصوب يدل علي من وقع عليه فعل الفاعل دون تغيير معه في صورة الفعل.

قال ابن مالك[62]:

وبعد فعل فاعل فإن ظهر   فهو وإلا فضمير استتر

فترتيب الجملة الفعلية كما قال شيخ النحاة: «عبارة عن فعل وفاعل ومفعول ، فالفعل في مقدمة الجملة ، وبعده الفاعل، لانّ الفعل وفاعله كجزأي كلمة ولا يجوز تقديم عجز الكلمة على الصدر هذا هو الترتيب المعتاد. ويجوز تقديم المفعول على الفعل والفاعل معاً في نحو: (عليا أكرمتُ) ومنه قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾»[63].

حيث تقدم المفعول به (فريقاً) على الفعل والفاعل في هذه الآية.

قال أبو عبيدة[64]: «مقّدم ومؤّخر مجازه كّذبوا فريقاً ويقتلون فريقاً.ويجب تقديمه عليهما في أربع مسائل.

1 - أن يكون اسم شرط كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[65].

2 - أن يكون اسم استفهام كقوله تعالى: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[66].

3 - أو مضافا لاسم استفهام نحو (كتاب من أخذت).

4 - أن يكون (كم) أو (كأين) الخبريتين نحو: (كم كتاب ملكتُ) ونحو: (كأين من علم حويتُ) أو مضافاً إلى كم الخبرية نحو: (ذنب كم مذنب غفرتُ).

أمّا (كأين) فلا تضاف ولا يضاف إليها .

5 - أن ينصبه جواب - أما - وليس لجوابها منصوب مقدم غيره. كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾[67].

وإنما وجب تقديمه والحالة هذه ليكون فاصلا بين - أما - وجوابها، فإن كان هناك فاصل غيره فلا يجب تقديمه نحو: أما اليوم فافعل مابدا لك».

تقديم المفعول به على الفعل والفاعل يمكن توضيحه من خلال النماذج الآتية:

قال الفرزدق[68]:

وغرا قد نسقت مشهرات طوالعُ لا تطيق لها جوابا

البيت من قصيده له بعنوان (أنا ابن العاصمين بني تميم).

قالها يناقض جريراً مطلعها :

أنا ابن العاصمين بني تميم إذا ما أعظم الحدثان نابا

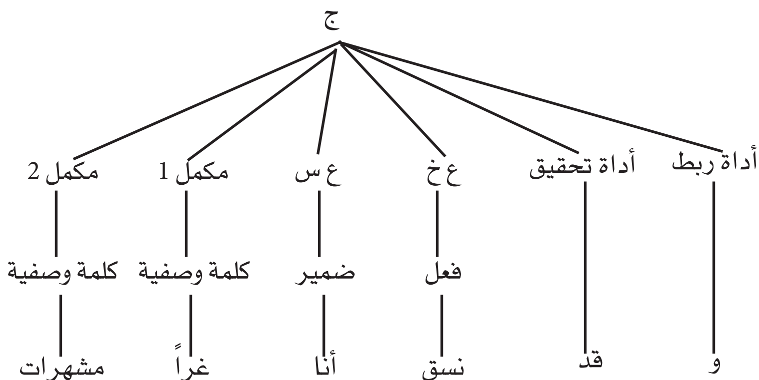
فيقول في معنى البيت الأول «إنّه ينظم القصائد الغراء الشهيرة التي لا قبل لجرير بالرد عليها»[69].

وفي البيت الثاني يفخر «بأنه ابن الذين يعصمون النّاس ويحمونهم، حينما تذلهم خطوب الدهر وتنزل بهم»[70].

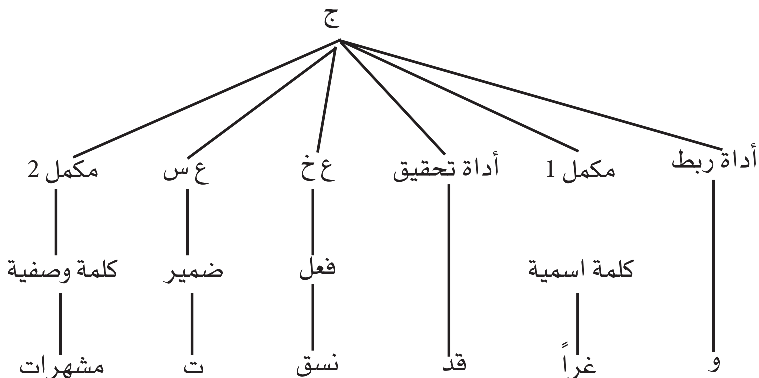
فالشاعر هنا قدم المفعول به (غراً) حيث نصبه بالفعل (نسق) والأصل (قد نسقتُ غراً مشهرات).

وللوقوف على تقديم المفعول به من خلال البيت السابق يمكننا توضيح ذلك من خلال المشجرين الآتيين:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين يتضحٍ لنا تقديم المفعول به (غراً) على الفعل في البناء الظاهر وذلك وفقاً لقاعدة التحويل عن طريقة إعادة الترتيب.

النموذج الثاني:

قال الفرزدق[71]:

شفيت من الداء العراق فلم تدع به (ريبةً) بعد اصطفاق الزلازل

وكانوا كذي داء (أصاب شفاءه) (طبيبٌ) به تحت الشراسيف داخل

هذه الأبيات من قصيدة له يمدح فيها الحجاج بن يوسف الثقفي مطلعها

وإذا وعد الحجاجُ أوهمّ أسقطت

مخافته ما في بطون الحوامل

«وصفه هنا بالشدة حتى إنّ الحوامل يجهضن من هيبته ،و يصفه بأنه بعث الأمن في العراق بعد الشقاق والفوضى، وأنّه أبرأهم من دائهم الكامن في دواخلهم»[72]. ففي البيت الأول: جملتان: الأولى (شفيت من الداء العراق) والثانية (فلم تدع به ريبة)، عطفت الثانية على الأولى بحرف العطف (الفاء) فهو يريد أن يثبت للحجاج صفة أصيلة لا طارئة وجاءت الأفعال منسجمة مع صورة الرعب التي أراد أن يصور بها من يتوجه إليه الحجاج بوعوده.

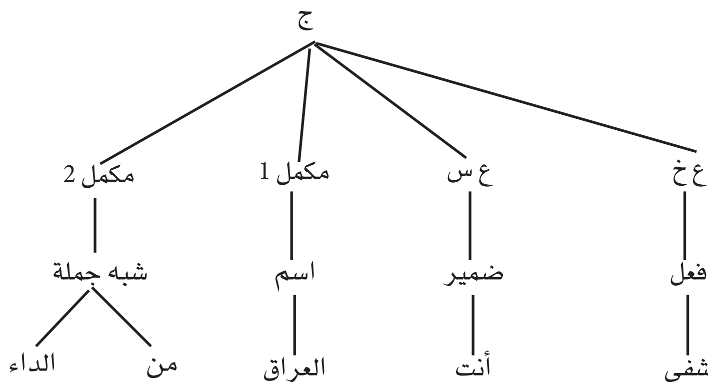
ففي البيت الأول (شفيت من الداء العراق) نلحظ أنّه قدّم الجار والمجرور (من الداء) على المفعول به (العراق) وذلك لمّا أراد أن يشير إلى أمر مفهوم ، لا يتطلب مزيداً من الإيضاح فهو لمّا أراد أن يوحي إلى المتلقي بمقدرة الحجاج على القضاء على الداء أينما كان ولمّا عدل عن ذلك ، وأحب أن يحدد المكان فقد جاء بلفظ (العراق)ليفيد العموم الحاصل من فهم العبارة السابقة.وما هذا إلا بقصد التركيز على أن مهمة الحجاج في القضاء على الداء،وقد تركزت في العراق حيث كانت ولايته.

وحين ننظر إلى الجملة التالية (لم تدع به ريبة) نجده قد فصل بين الفعل والمفعول به بالجار والمجرور كذلك حيث أخّر المفعول به الذي رتبته التقديم .

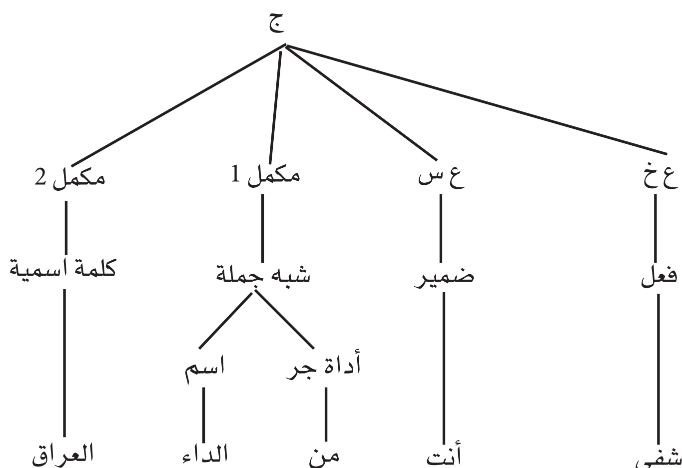
وبدأ البيت الذي يليه بجملة (وكانوا كذي داء) اتبعها بجملة (أصاب شفاءه طبيب) ومن الواضح أن الواو في قوله: (كانوا)، ترجع إلى متقدم ملحوظ في البيت السابق: (شفيت من الداء العراق) أي أهل العراق ، حيث ذكر العراق على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الحالية أو المكانية. وننظر إلى الجملة الثانية: (أصاب شفاءه طيب) حيث نجده قدم المفعول به على الفاعل، وهذا مخالف لأصل بناء الجملة، كما نلحظ الفصل بين الصفة والموصوف فيما تبقى من البيت (به تحت الشراسيف داخل) حيث فصل بين الضمير في قوله (به) وبين صفته (داخل) بالمتضايفين وسنقوم بتحليل النماذج السابقة لتوضيح البناءين الباطن والظاهر وتوضيح ما حدث من تقديم وتأخير .

الجملة الأولى: (شفيت من الداء العراق).

(أ) البناء الباطن:



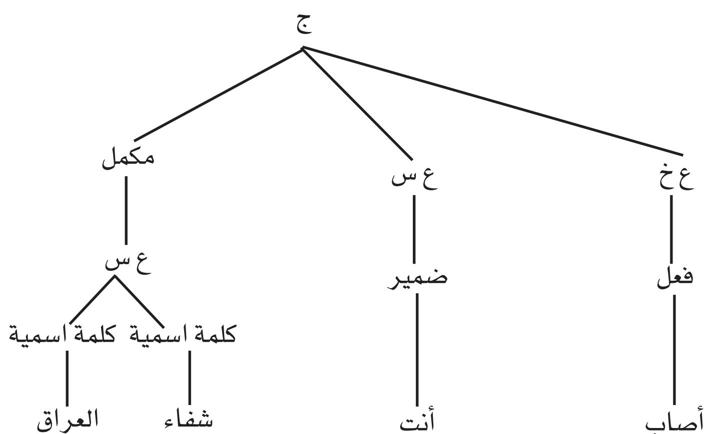
(ب) البناء الظاهر:



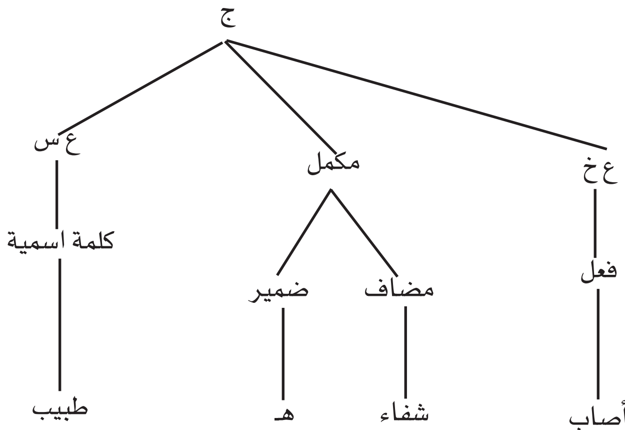
وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا تأخر المفعول به عن الفعل والفاعل، كما اتضح تقديم الجار والمجرور وهذا مخالف لبناء الجملة التي يرد فيها المفعول به غالبا بعد الفعل والفاعل.

وفي البيت الذي يليه تأخذ جملة (أصاب شفاءه طبيب) ونقوم بتحليلها على النحو الآتي:

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا تقدم المفعول به(شفاء)على الفاعل (طبيب)، البناء الظاهر وذلك وفقا لقاعدة التحويل عن طريق إعادة الترتيب.

متعلقات الفعل:

لقد شاع لدى الفرزدق الفصل بين الجمل مما يؤدي أحيانا لصعوبة الوصول إلى المعنى المراد، وذلك لتعلق الكلام بما بعده أو بما قبله وسوف أتناول هذه الظاهرة وامثل لها بنموذج واحد وذلك خوفاً من التكرار.

قال الفرزدق[73] يمدح الحجاج بن يوسف:

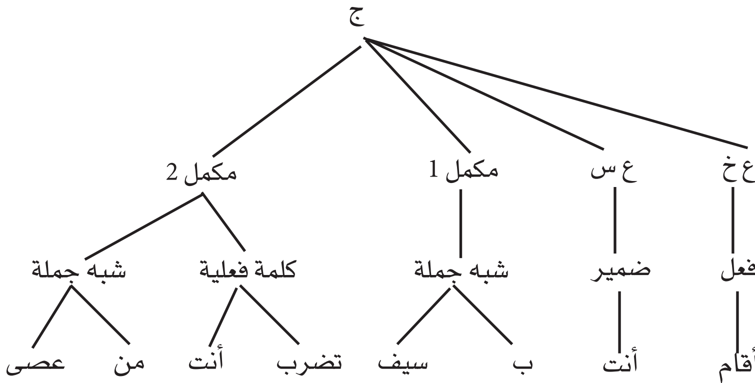
وكم من عشى العينين أعمى فؤاده أقمت وذي رأس عن الحق مائل

بسـيف به لله تضـرب من عصـى على قصر الأعناق فوق الكواهل

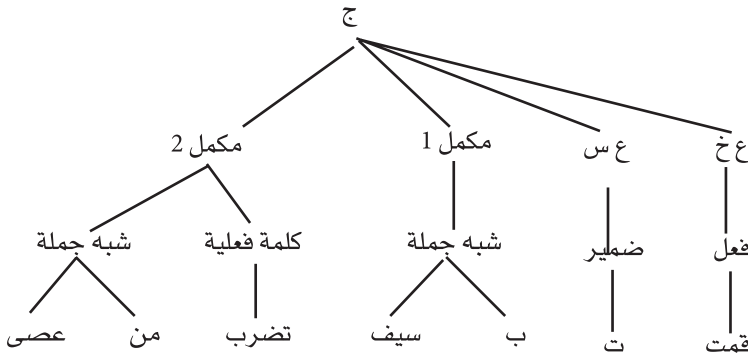
فهنا يصف الحجاج بالشدة مع رعيته وأنه يستخدم السيف في قطع رؤوس من يعصي اللّه ويميل عن الحق[74]. فنجده في البيت الثاني، أتى بشبه الجملة الجار والمجرور (بسيف)، وهي متعلقة بفعل

(أقمت) في البيت السابق، وفضلاً عن فصله بين المتعلقين بفاصل معنوي، حيث ورد كلٌّ منهما في بيت مستقل،فإن هناك الفاصل اللفظي (وذي رأس عن الحق مائل)، فهذا الفاصل معطوف على قوله: (عشى العينين)، حيث فصل بين المتعاطفين كما هو واضح من توالي الالفاظ في البيت. ثمّ إن تداخل الجمل وأشباه الجمل، واضح في شعره مما ينتج عنه صعوبة تتطلب من المتلقي أن يفكر في العلاقة بين الألفاظ ويربط بين مدلولاتها ليتوصل إلى المعنى المطلوب. وسنقوم بتحليل النموذج لتوضيح البناءين الباطن والظاهر.

(أ) البناء الباطن:



(ب) البناء الظاهر:



وبالمقارنة بين البناءين يتضح لنا أن عبارة الجار والمجرور والتي وردت في البيت الثاني جاءت متعلقة بالفعل أقمت في البيت السابق وذلك عندما قمنا بتحويل البناء الباطن إلى بناء ظاهر، وذلك وفقاً لقاعدة التحويل بإعادة ترتيب عناصر الجملة. كما لاحظنا ذلك كثيراً عند الشاعر الفرزدق، مما يؤدي إلى صعوبة الوصول إلى المعنى عنده.

الخاتمـة:

حاولت من خلال هذا البحث أن أتناول ظاهرة التقديم والتأخير عند الشاعر الفرزدق واتخذت لدراستي نموذجاً لغوياً، هو النظرية التوليدية التحويلية لتشو ميسكي، حيث توصلت إلى النتائج التالية:

1 - ظاهرة التقديم والتأخير في الجملة العربية تناولها علماء النحو كما تناولها علماء البلاغة واللغة وأولوها اهتماما كبيراً.

2 - ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة شاعت عند الفرزدق في شعره مخالفاً بذلك نظام الجملة العربية، مما أدى في كثير من الأحيان إلى التعقيد اللفظي لفهم معانيه.

3 - النظرية التوليدية التحويلية تقوم على مبدأين كبيرين لهما وجود في اللغات الإنسانية هما:

التوليد والتحويل حيث يتم تحويل البناء الباطن إلى بناء ظاهر بواسطة ما يعرف باسم القواعد التحويلية، ويؤدي هذا التحويل إلى حدوث تغييرات في البناء الباطن عند التحويل الى بناء ظاهر. تمثل أهمها في التحويل عن طريق (إعادة الترتيب) والذي يسمى عند علماء النحو بالتقديم والتأخير والذي يكون لأسباب يرتضيها المتكلم، منها: العناية والاهتمام بالمخاطب، أو لكونه الأصل ولا مقتضي للعدول عنه. وعند تحليل الأبيات التي تمثل عينة البحث أثبت البحث أنَّ:

1 – الاسم المبتدأ يتقدم على الخبر إذا تساوى كل من المبتدأ والخبر في التعريف أو التنكير، كما يتم إذا كان من الأسماء التي لها الصدارة كأسماء الاستفهام والشرط، أو أن يكون الخبر رافعاً لضمير المبتدأ مستتراً.

2 – يتقدم الاسم الخبر على المبتدأ إذا كان من الأسماء التي لها الصدارة كأسماء الاستفهام أو الشرط، كما يتقدم الخبر على المبتدأ إذا كان المبتدأ نكرة ولا مسوغ للابتداء ألا يتقدم الخبر، الجار والمجرور والظرف، كما يتقدم الخبر إذا اشتمل المبتدأ على ضمير يعود على الخبر.

3 – يتقدم الفاعل على فعله وعلى المفعول به وذلك لعناية الشاعر واهتمامه بالمخاطب.

4 – يتقدم المفعول به على الفعل أحياناً، كما يتقدم على الفاعل، وقد يأتي مفصولاً عن الفعل بأحد المتضايفين، كما يأتي متأخراً عن الفعل والفاعل.

5 – لقد شاع كثيراً عند الفرزدق الفصل بين المتعلقات في الجملة بسبب التقديم والتأخير.

الهوامش

(1) النحو العربي:جابر بكر أبو السعود: 140.

(2) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: عبدالرحمن حسن حبنكه: 356/1.

(3) في نحو اللغة وتركيبها: خليل عمايرة: 88.

(4) الكتاب:سيبويه: 34/1.

(5) دلائل الإعجاز في علم المعاني: الجرجاني: 106.

(6) نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند القاهر الجرجاني: وليد محمد مراد 66.

(7) الخصائص: 2 ابن جني: 384.

(8) الكتاب: سيبويه: 79/1.

(9) دلائل الإعجاز: الجرجاني: 107، وانظر الكتاب: 34/1.

(10) شرح التلخيص في علوم البلاغة: القز ويني: 40-41.

(11) مفتاح العلوم: السكاكي: 149.

(12) نظرية تشومسكي اللغوية: جون لوينز: 12.

(13) في نحو اللغة وتراكيبها: عمايرة: 54.

(14) الألسنية (علم اللغة الحديث) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: 216.

(15) اللسانيات المجال والوظيفة: كمال شريف إستيتيه: 178.

(16) المرجع نفسه: 179.

(17) أثر عناصر البناء الظاهر للجملة في التفسير الدلالي: بكري محمد الحاج: 3.

(18) شرح ابن عقيل: 277 محمد محيي الدين. وانظر النحو الوافي عباس حسن: 492/1.

(19) المرجع نفسه 232/1-238. وانظر النحو الوافي 496/1.

(20) ديوان الفرزدق: عبدالله الصاوي: 260/1.

(21) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 576.

(22) شرح ابن عقيل: محمد محيي الدين: 232/1.

(23) الديوان : عبدالله الصاوي: 331.

(24) لسان العرب: 8/1.

(25) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 593.

(26) المقتضب:المبرد: 126/4.

(27) شرح ابن عقيل: محمد محيي الدين: 239-240.

(28) السابق والصفحة.

(29) السابق والصفحة.

(30) الديوان : عبدالله الصاوي: 11/1.

(31) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 21.

(32) لسان العرب: ابن منظور: 10/1.

(33) ديوان الفرزدق المجلد الأول :دار صادر بيروت: 9/1.

(34) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 11.

(35) الديوان: 17/1.

(36) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 418.

(37) نفسه.

(38) نفسه.

(39) شرح الأشموني: 46/2.

(40) شرح ابن عقيل: محمد محيي الدين: 46/2.

(41) شرح الأشموني: 346/2.

(42) مجمع الأمثال الميداني.

(43) الصاحبي في فقه اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا: 412.

(44) ديوان ذي الرمة: 9-10.

(45) همع الهوامع: السيوطي: 159/1 وشذور الذهب:الحنبلي: 115.

(46) سورة الحج: 75.

(47) سورة فاطر: 11.

(48) الأصول في النحو: ابن السراج: 228/2.

(49) الديوان: دار صادر: 286.

(50) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 47.

(51) لسان العرب: ابن منظور: 243/1.

(52) مغني اللبيب: ابن هشام: 196/1.

(53) نفسه 197/1.

(54) الديوان: عبدالله الصاوي 4/1.

(55) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 496.

(56) جواهر البلاغة :أحمد الهاشمي: 12.

(57) الديوان: عبدالله الصاوي: 30/1.

(58) شرح الديوان إيليا الحاوي: 54.

(59) الجمهرة: ابن دريد: 371/3.

(60) سورة المزمل: 12.

(61) لسان العرب: ابن منظور: 607/1.

(62) شرح ابن عقيل: محمد محيي الدين: 76/2.

(63) سورة البقرة: 87.

(64) المجاز: أبو عبيدة: 173/1.

(65) سورة الرعد: 33.

(66) سورة غافر: 81.

(67) سورة الضحى: 8-9.

(68) الديوان: عبدالله الصاوي: 137/2 والنقائض 1: أبو عبيدة 477.

(69) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 166.

(70) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 173.

(71) الديوان: عبدالله الصاوي: 173/2.

(72) شرح الديوان: إيليا الحاوي: 289.

(73) الديوان: 137/2.